دراسة تحليلية
لأساليب محمود شاكر
رحمه الله

١٣٢٧هـ - ١٤١٨هـ

تأليف أبي سهيل
عمر بن عبد الله العُمَري

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ

دراسة تحليلية لأساليب محمود شاكر رحمه الله

١٣٢٧ هـ ـ ١٤١٨ هـ

تأليف أبي سهيل

عمر بن عبد الله العُمَري

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمري ، عمر عبدالله عمر
دراسة تحليلية لأساليب محمود شاكر. / عمر عبدالله عمر العمري
.- عنيزة ، ١٤٤٣هـ
١٥٤ ص ؛ ..سم

ردمك: ٨-٨٤٩٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- شاكر ، محمود محمد ، ت ١٤١٨ هـ ٢- المقالة العربية - نقد - مصر أ.العنوان

ديوي ٨١٤,٩٦٢٠٠٩ ١٤٤٣/٢٤٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٤٣
ردمك: ٨-٨٤٩٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨


أمَّا قبل

فمن تقديم المقدمة

أقول: هذه كلمةٌ قالها شاكر في ج٢ ص ١٢١٨ وما بعدها من جمهرة مقالاته؛ وكُتب في الهامش أنها المقدمة التي كتبها الأستاذ شاكر وصدَّر بها كتاب «سعيد العَريان «عن الرافعي؛ وحين قرأت هذه المقالة رأيت فيها ما يصلح مقتَبَسًا مناسبًا فاستجزت أن أقول عن شاكر ما كتبه عن الرافعي رحمهما الله؛ إذ قال شاكر: (. . . وقد فرغ الرافعي ـ رحمه الله ـ من أمر الناس إلى خاصة نفسه، ولكن الناس لا يفرغون من أمر موتاهم، ولو فرغوا لكان التاريخ أكفانًا تُطوى على الرمم، لا أثوابًا تُلقى على الميت لتنشره مرة أخرى حديثًا يؤثر وخبرًا يروى وعملاً يُتمثل وكأن قد كان بعد إذ لم يكن . . . والتاريخ ضربان يترادفان على معناه . . . وأما التاريخ الثاني فإيجادُ حياة قد خرجت من الحياة ورَدُّ ميتٍ من قبر مغلق إلى كتابٍ مفتوح)

ولو قلت : « وقد فرغ شاكر . . . . » بدلاً من : « وقد فرغ الرافعي ــ رحمه الله ــ من أمر الناس إلى خاصة نفسه « لقلتُ إنَّ الأمر يستقيم تمام الاستقامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بك ربي استعين ومنك استلهمُ العونَ والرشاد والتوفيقَ والتسديد، اللهم إنك قلت: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ النور ٤٠ فاللهم اجعل لي نورا، وقلت: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ الكهف ٦٥ فاللهم آتني رحمةً من عندك وعلمني من لدنك علما، اللهم خذ بيدي ولا تكلني إلى نفسي ولا لأحدٍ من خلقك طرفةَ عين، وصلِ اللهم وسلّم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد فأنا حفيٌ بأدب الشيخ محمود شاكر عليه رحمة الله ورضوانه؛ وهو من الذين استعذب القراءة في كتبهم، لفخامة الأسلوب وعفة اللسان وتدفُق المعرفة وسعة الاستشهاد وتوثيق الشاهد ونبل الغاية، أحببته في الله لما أجد في كتاباته من

حبٍ للحقيقة وحبً للعربية؛ وحبُّه هذا أمرٌ أحسسته في نفسي ووجدته يجري في خاطري؛ وما كان في مثل هذا الحال من أي قارئ فإنه يذكره وقد لا يستطيع تبيانه على ما يجده في نفسه لمن يقرأ حروفه؛ فهو إحساس يجري في النفس؛ وبعضٌ من المعاني يكون الكلام بها أبلغَ من كتابتها .

وقد رأيت الشيخ يتدفق معرفةً حين يرد وينقض ، ورأيته في نقضه أبلغَ وأشمل من المقالات التي يكتبها ابتداءً من عند نفسه؛ وأنا أعاودُ القراءة فيما بين يدي من كتبه .

وفي يوم الثلاثاء / ٢٧/جمادى الثانية/١٤٤٢هـ كنت أقرأ في كتاب «جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر» اعتنى بها الدكتور عادل سليمان جمال ؛ وهذا الكتاب جاءت بعض مقالاته ابتداءً لا ردًا ، فوجدت فرقًا في الأسلوب ، عندها قدح في ذهني أن أبحث فيما يتيسر لي من أدب الشيخ ويكون البحث بعنوان: « نقائض محمود شاكر « هذا هو العنوان الأول الذي بدا لي، وأعني بالنقائض ردودَه التي ينقض بها آراء مخالفيه؛ ثم غيَّرته إلى : «

دراسـة تحليليـة لأسـاليب النقـض عنـد محمـود شـاكر رحمـه الله « ثـم إلى «أسـاليب النقض عند محمود شـاكر « ثم « دراسـة تحليلية لأسـاليب محمود شـاكر «وهكذا هـي حـال العناوين مع جمهرةٍ من المؤلفين فإنَّ التسمية تمر بأكثر من اسم حتى يرى المؤلف أنَّ واحدًا من هـذه الأسماء هـو الأقربُ إليه؛ والقارئ بحلٍ مني إن رأى أن يختار مـن العناوين غـيرَ ما اخـترت.

لهـذا رأيت أن أقوم ـ مستعينا بالله ـ بدراسـة تحليليـة لما يتيسـرُ لي من ردوده الـتي سميتها نقائض ومـن كتابتـه في غـير الـردود ؛ومـن غاياتـي في هـذا الكتـاب أن أتبـينَ معـالمَ منهج للـرد أحببتـه وأحببت صاحبه؛ وأضع مفاتيح ومسـالك يهتـديَ بها مـن أراد السير في هـذا الطريق أعني طريق الرد على المخالف وأسـأل الله أن يسـددني ويحفظني مـن إطراءٍ هـو فـوق علمـه أو بشـريته.

لم يقـم بحثـي هـذا علـى الموازنـة بينـه وبـين بحوثٍ سـابقة درسـتْ أدبَ الشيخ، فلن تجد فيـه مثلاً: إنَّ البحث الفلاني أجادَ في كذا أو أهمـلَ كذا أو قصَّرَ في كذا فلم أبنهِ على اسـتدراك قصورٍ

سابق ، ولا على تصويب خطأٍ ماض ؛ وإنما أكتبه ابتداءً من عند نفسي لأني أميل إلى الكتابات التحليلية فأنا أكتبه زيادةً في الدربة لنفسي، وإثراءً للدراسات الأدبية، وخدمةً لمن له فضل الذب عن اللسان والدين وأهله، ولما أدينُ به من حق التلمذ على كتب الشيخ .

ومن قراءاتي لأدبه رـ حمه الله ـ وجدت أنَّ كتاباته ميدانٌ واسع لإثراء الباحث والقارئ فيجد الباحث ما يستحقُّ المدارسة، ويجد القارئ ما يثريه علمًا وبلاغة ، فإن جاء فيه ما لم أُسبق إليه ـ من غير ادعاءٍ ولا مفاخرة ـ فهذا من توفيق ربي فله الحمد والشكر .

وقد بنيتُ هذا البحث على دراسة أساليبه ومحاولة استقصائها وتسميتها ولم يتعرض لنقد فكره أو دراسة ما عليه من مآخذ التي لا شكَّ في وجودها فهي من عوارض نقص البشر .

وعقدت مبحثًا بينت فيه الفرق بين أسلوبه في الكتابة ابتداءً وبين أسلوبه في الرد، فقلم الشيخ حَمْلٌ وديع ما لم يُنل جناب الدين

أو التراث أو تُهمز قناة العربية، فإذا وقع هذا استحال ذاك القلم نابًا في فك أسد ، فيبدو أنَّ قلمه يستحصد أكثر عند الإثارة، وأنه إنما يعلو بيانه حين يُدفع إلى مضايق القول دفعًا ، ووجدت أنَّ له بيانا عاليًا ـ حين يكتب متأملاً ـ ولا أجدني مبالغًا حين أقول إنَّ أسلوبه في كتاباته التأملية أبلغُ أساليبه أثرًا وأصدقها حرفًا وأقدرها إبانةً عمَّا يكنه ، بل وأحبُّها إلى نفسه؛ وستجد هذا في فصل أساليبه الوجدانية حين تقرأ له ما قاله في مقدمة قصيدة « القوس العذراء »؛ وحين تقرأله فإنك تعجب من سعة علمه بموضوع بحثه ومن قدرته على الاستشهاد ، وله ذاكرة يمدها علمٌ غزير .

وقد أوجز ـ رحمه الله ـ غايته وباعثه على الكتابة في كتاب» أباطيل وأسمار» حيث قال ص ٧: (ولهذه الفصول غرضٌ واحد . . . هو الدفاع عن أمةٍ برمتها هي أمتي العربية الإسلامية وجعلت طريقي أن أهتك الأستار المسدلة التي عمل وراءها رجالٌ فيما خلا من الزمان) ص ٧٢ (من أجل هذا حملت القلم بعد طول التمادي في هجرانه ثلاثة عشر عامًا ، لأهتكَ أقنعةَ المَخْرَقة على

عقول الناس بالباطل المموه ، ولأكشفَ غاشيةَ الوباء المنتشر بلا رقيب . . . ثم حملته بعد لأذودَ عن شيخ المعرة)ص ١٤٥: (. . . ولم أجعل همي الكشف عن ادعاء هذا الدعي وحسب، بل جعلت همي أيضًا أن أزيل الخَبَث عن طريق الدراسات الأدبية) ومن غايته من هذه الردود :ص ١٣(. . . فأخدَموني « أجاكس عوض « على تفاهته واختلال سماديره، لكي يديرلي رحى الأحاديث، فأستنبط لأهلي وعشيرتي وأبناء أبي وأمي أباطيل وأسمارًا فيها بيانٌ لما خفي عليهم من مكر عدو شديد المكر . . .) قلت : أخدَموني أجاكس عوض أي جعلوه يخدمني لأقول ما قلت فكان سببًا في دفاعي عن أمتي ؛ فأُتوا من حيث لم يحتسبوا .

والنقائض أول ما ينطلق الذهن فيها إلى ما جرى بين جرير والفرزدق رحمهما الله ، وهي تسير على فن الهجاء ومُلازمه فنُ الفخر ، ولكنَّ النقائض التي أَقصدها هنا لا تسير على الهِجاء والفخر، فما أَقصده هو المنهج الذي سار عليه محمود شاكر في نقض آراء مخالفيه، ليس فيها فخر محضٌ ولا هجاءٌ محض وإن ورد

شيءٍ منهما ففخرٌ بتراث لا فخر شخصي وإن ورد تعييب فتعييب للفكر وسوء الطوية وذمٍّ للتعالم والمنهج ونحو هذا .

وهو بحثٌ أسعى فيه إلى استعراض ما استطيع مما نقض به محمود شاكر آراء مخالفيه، وما بيَّن به مستور ما يخفيه مخالفُه من فكر هادم .

ألا وإنَّ من الانتفاع الخفي لعلم العالم أن يحرك ساكنًا لدى القارئ فبالإضافة للمنفعة العلمية فإنه ينشط بعد فتور ويوقظ بعد خبوء ويفتح لك بابًا من أبواب البحث وهذا مما وجدته عند محمود شاكر؛ وبعض كُتبه وإن كانت في أصلها مقالاتٍ منشورةً في مجلةٍ أو صحيفة إلا أنها تتمثل بها الصبغة العلمية من التوثيق والتوسع وجزالة اللغة ، وهذا التصنيف يظهر جليًا فيما يكتبه نقضًا .

وهذه المقالات لا تجري على ما جرى عليه كثيرٌ من المقالات الصحفية التي يبدو عليها التخفف من التوثيق والتساهل في بلاغة العبارة وجزالتها ؛ لأنها تخاطب العامة أكثر من الخاصة .

ومما تجده عنده بكثرة، ويكاد يفوق به غيره أنه يسردُ لك سردًا مفصلاً جاذبًا إلى الأمر الذي حدا به أن يكتب فيرتع الوجدان بين جمال العبارة ومتعة التسلسل الباعث على هذه الحروف فيغري القارئ بالمتابعة بألفاظٍ يأخذ بعضها برقاب بعض، كذلك مما يكثر وروده عنده في مبدأ المقدمة أنه بعد أن يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يثنّي بالصلاة على إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام؛ وهناك معنى يتكرر كثيرًا في مقدمات كتبه وإن اختلف الحرف المعبر عنه كقوله:

(حين شرعت في كتابة هذه الفصول [سنة ١٣٨٤هـ سنة ١٩٦٤م] كنت قد قدرت لها مقادير، ونهجت لها نهجًا مستتبًا، ظننت أني بعون الله قادرٌ على أن أمشي فيه وفي دروبه أتهادى، لا يذعرني شيءٌ حتى أبلغ نهايته، ولكن شاء اللهُ غيرَ ما شئت وقدر غير ما قدرت، وخابت ظنوني واختُطفتُ عن السير في أوائله فدع عنك بلوغ نهايته) من مقدمة أباطيل وأسمار.

(وفي طريق الإجابة على هذه الأسئلة تشعب بي الكلام وامتدت أطرافه على غير ما كنت أقدر وأحسب وهكذا وجدتني أسير في طريق طويل) هذا الكلام ورد في مقدمة كتابه «نمطٌ صعب ونمط مخيف»؛ وقال في ص ٢٨٨: (كنت أريد أن اختصر الأمر اختصارا فأختمه بمقالتين صغيرتين أو ثلاث على الأكثر بيد أنَّ الأمر سار على غير ما أريد)

جرى في بعض نقائضه على شرح ما يرى أنه بحاجة إلى بيان إلى شرحه في المتن وفي صلب الموضوع الذي يتحدث عنه ولا يضعُ الشرح في الهامش؛ ووضعُ الشرح والمصدر في المتن أرى أنه سنةٌ حسنة تحفظ القارئ من التشتيت، وكنت قد جريت عليها في كتبي؛ وقد يرد على الذهن أنه إنما لم يضع هوامش لأنها مقالاتٌ نُشرت في صحيفةٍ أو مجلة؛ فأقول لو كان يرى تهميش ما أضافه على المتن لوضعها حين طُبعت في كتاب.

يستشهد بمواقف تاريخية تعينه على إيصال ما يريد وأنه ليس بغفلةٍ عن خفايا ما يحاك ص ١٢ من كتاب «أباطيل وأسمار

«: (فانكشف لي من وراء هذا الهذيان والاختلاط تدبير خيوطه في يد الجاسوس المحترف «كرستوفر سكيف« وفي أيدٍ بعيدة ممتدة من وراء «الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مدسمر حيث الخلوة المشهورة بين أشجار الدردار وعند الشلال بكامبردج) وقال في ص ٣٧١ : (. . . وإذا كنت قد استطعت، وأنا في مكاني هذا من عزلتي ، أن أعرف مواقع الأقدام الذاهبة والآيبة، وأتوسم أصحابها ، فقد أتاحه لي طول الإنصات لما أسمع واختلاف الأخبار إلي مرةً بعد مرة عن غير قصد من راويها ، وما دربتُ عليه من ربط الحوادث بعضها ببعض بعد طول تأمل) قلت : قوله : [واختلاف الأخبار إلي] أي تعاقبها وتتابعها؛ وقوله : [وما دربتُ عليه من ربط الحوادث بعضها] مَنَبهةٌ ينبغي أن يأخذ بها من يحلل ويستنبط عن بعد .

أحيانًا أعيد قراءة مقالة بعد أن أمضي عنها بصفحات ثم أجد فيها ما يحسن الاستشهاد فأثبتُ رقم صفحة سابقة قبل صفحة لاحقة ، وهذا تركته على ما أجد؛ لذلك قد تجد صفحة

دونتُ لك ما فيها تكون بعد صفحة لاحقة لها ، فتركتُ هذا الأمر على ما يرد على الذهن لأنَّه لا يمسُّ حقيقةً علمية إذا عرفنا أنّ كل مقالة تعد موضوعًا مستقلا عن غيرها وإن حوى الجميعَ فكرةٌ واحدة أو متقاربة .

هذا ومن أخص خصائص منهجه في النقض وأكثرها وضوحًا وأوسعها انتشارًا حرصُه على التوثيق في نقض الرأي المخالف وهذا المنهج من أوجب شروطه الإخلاص وسلامة النية وسعة العلم وهي درجاتٌ أحسب أنَّ الشيخ ـ رحمه الله ـ بلغها .

ص ٢٧٢ حين لمز لويس عوض تكوين ثقافة بعض الشعراء ، وأنهم لم يكن أمامهم إلا « رمى القضاء بعَيْنَي جؤذرٍ أسدًا « حينها حمي أنفُ الشيخ حبًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغضبًا لدينه فقال : (ولكن الدافع إليه هو أنَّ « نهج البردة» هو في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد هذا المأفون بما في قلبه من العداوة والبغضاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، أن يجعل هذا الشطر وحده، هو المتضمن لمذهب شوقي في شعره ، وهذا عبثٌ . . .

وعند ساحبه من عنقه سلامة موسى وعند ذيله وحامل حقيبته غالي شكري)

أحببت أن جمع ما أحسبه لطائف علمية للفائدة ، وإن لم تكن داخلةً في صلب البحث؛ لأنتفعَ بها وأتحفَ بها القارئ .

الشيخ رحمه الله شُهر بالجد والصرامة ويعرِّف بنفسه مفتخرًا بصعيديته التي يرى أنها من مورّثات الجدية لديه، ولكنه مع هذا له أساليب تسيل رقةً سميتَها الأساليب الوجدانية ووضعتُ لها أمثلة؛ وجمعه بين الجد والوجدانية عائدٌ عندي إلى تمكنه من هذه اللغة العظيمة وقد قلت في كتاب آخر في كلام عن الشاعر الصعلوك الشنفرى وعن طواعية اللغة له: (. . . بل كَيف بالشنفرى الذي يكفيك اسمه الموحي بالسطو والإغارة والخشونة أن تصدر منه عجيبة من عجائب الشعر العربي هي لامية العرب، وكما تعينُ اللغةُ الشاعرَ في تخير ألفاظه للتعبير عن الجمال، نجدها كذلك طيعةً سهلةً لينةً في التعبير عن معانيه، فمع ما فيه من جفاء الصعلكة وشظف العيش وسكنى الصحراء ، إلا أنَّ اللسان الذي

يتحدث به لسانٌ له من طواعية التصرف ما يمكّن الناطقين به من القول بما يريدون كما يريدون)

إذا أجرى قلمه في فن فإنك لِما تجده من السعة في العلم وتدفق الشاهد وتوثيقه تقولً : لا يحسن غيرَ هذا ؛ ورأيت أنَّ قلمه يعلّم الاستنباط؛ فهو يصغي للألفاظ إصغاءَ من يتحسس ما توحي به .

وأساليب نقائضه كلها جادٌ مبني على دليل مستقصى موثق وعلم واسع وبحثٍ مستفيض ، ولكن هذه الأساليب تراوحت بين الجادَّ البحت والسخرية الجادة من المخالف والتندر والوخز واللسع والإضحاك من الطرف الآخر وستجد بإذن الله أمثلةً على هذا .

وأساليبه الوجدانية مبحثٌ جدير بأن يُدرسَ دراسةً خاصة ؛ فسيجد الباحث مادةً غزيرة تعينه على الإسهام بالدراسات الأدبية دراسة مثمرة؛ لهذا وضعت مبحثًا خاصًا بهذا لعله يكون مُنبهًا ومفتاحًا لمن أراد دراسة هذا الأسلوب عنده؛ فهو ميدانٌ ثري .

رأيت أنَّ المادة المحققة لمنهج البحث وغايته أخصبُ في كتاب «أباطيل وأسمار «لأنَّ الأمر فيها دار على أكثر من قضية فأثمر هذا حجاجًا ونقضًا، وأساليب تختلف في كل قضية بخلاف ما كان بينه وبين طه حسين فهو حديث خاصٌّ عن المتنبي ثم يزيد خصوصيةً إذا دار حول النسب أو القرمطية، وهو أيضا بخلاف ما جاء في كتاب «نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف» فهو حول قضيةٍ واحدة وهي حديثٌ عن قصيدة: «إنَّ بالشِّعب الذي دون سلع» وللحديث عنها وضعت الفصل الثامن.

رأيت أنَّ الشيخ في بعض أساليبه كأنما هو يدارسك الدليلَ ومأخذَه؛ وهذا لونٌ عزيز شحيح بين الكتب.

بعض المؤلفين يُصدِّر كتابه بكلمة تحجيرية يعلن فيها هو أو الدار الناشرة بأنه لا يسمح بنسخ الكتاب أو تخزينه أو . . . ، وهذا منهج دخيل علينا ،وهو من نفايات الثقافات الوافدة؛ وفي قبول هذا التحجير حجبٌ لعلمٍ في الكتاب؛ وفيه حرمانٌ للمؤلف من علم يُنتفع به منه؛ وهل يُعذَر المؤلف إذا قال: إنَّ هذا شرطُ الناشر؟

من الأخطاء التي شاهدت أثرها فيما مر من تجارب أنَّ أحدهم حين ينجز عملاً ويبذل وسعه من التقصي والاستدلال والمراجعة فيظن أنه بلغ الغاية في الجودة وجاز القنطرة فيسترخي وقد ملأه الفرح؛ ثم إذا عرضه للناس فظهر لهم من النقص والعيب ما كان خافيا عليه؛ فإذا أظهروه له فإنه لا يحتمل ما يقال عنه؛ لأنه يعرف مقدار المشقة والعنت ويعرف كيف رد رأيًا وقبل آخر وأنه لم يفعل هذا عن هوى؛ فيُؤتى من حيث ظن في نفسه أنه تقصى واستوعب؛ وصحيحٌ أنه بذل واجتهد ولكنه نسي أنه عرضه على نفسه هو فاستحسنتْ ما أبدعتْ؛ والناس لهم الحقُّ في رد ما رآه إذا كانوا يقولون بدليلٍ صحيحِ المأخذ وجيه النظر.

الفكرة قد تكون باردة؛ أو مكذوبةً تافهةً بمقياسك العلمي؛ لكنها عند غيرك حقيقةٌ صادقةٌ أصيلة؛ يُبنى عليها ويشار إليها في بابها ؛ فلا تتردد ببيان ما تراه وقل بالدليل ما يكشف الزيف .

كتبت بحثًا بعنوان « توهيمات ابن هشام في كتابه مغني اللبيب « فلم اتحدث فيه عن شيءٍ من سيرة ابن هشام رحمه الله؛

وكتبت كتابًا بعنوان «الوساطة العُمَرية بين ابن مالك ومدلسيه» فلم أتحدث فيه عن سيرة ابن مالك رحمه الله؛ وكذلك فعلتُ هنا مع محمود شاكر رحمه الله؛ وما رأيته مسوغًا لهذا أني أكتب عن جانب محدد عن هؤلاء الأعلام؛ كما أنَّ سبيلَ الحصول على سيرِتهم مُيسَّرٌ؛ ومع هذا استجدتُ نشر هذا الموقف من سيرته الذي رواه الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة - رحمه الله - في خاطرةٍ بعنوان «محمود محمد شاكر كيف عرفته» حيث قال: (كنا ونحن طلابٌ بالدراسات العليا نتردد على منزل شيخنا الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن رحمه الله . . . ثم فاجأنا الأستاذ محمود بزيارته، ونحن نقرأ: «يا زيدُ عائدَ الكلب» فسألنا : أعائد الكلب بالدال أم عائذ الكلب بالذال؟ فقلنا : الذي في كتابنا عائد الكلب بالدال؟ فأجاب على الفور : عائد الكلب جماعةٌ منهم فلان وفلان . . . وسُمَّي عائد الكلب لقوله:

مالي مَرِضتُ فلم يعدني عائدٌ   منكم ويَمْرضُ كلبُكم فأعودُ

وعائذ الكلب بالذال جماعة . . . ثم تركنا واتجه إلى مكتبة

الشيخ نور؛ حينئذٍ علت وجوهنا الدهشة وتملكنا البُهر من روعة هذه المفاجأة، وملأ نفوسنا الإعجاب به، والإكبار له؛ ثم قطع بعض شيوخنا الصمت الذي لفنا بقوله: خير الفقه ما حوضر به).

من تتبُع « منهج التذوق « وضعت له حدًا يميزه عن المنهج « التحليلي «لأني وجدت تداخلاً شديدًا بين المنهجين فجاء ذلك الحد في الفصل الثالث.

أَثبتُّ نصين مترجمين لقصيدة «إن بالشعب الذي دون سلع» هما للدكتور عدنان عباس علي والدكتور عبد الغفار مكاوي؛ مع الأصل العربي لقصيدة: «إنَّ بالشّعب الذي دون سلع» وأجريت بينهما موازنة؛ والترجمة من اللغة الألمانية.

أدعوك لقراءة ما كتبتُه من تحليل لمقدمة «القوس العذراء» لا إعجابًا بما كتبت، بل لأنَّ في تلك المقدمة عجبًا من العجب، قلت في نفسي وأنا أكتب ذلك التحليل: [إنَّ الشيخ كتبها وهو في غيبوبةٍ علمية وصفاءٍ في الذهن واستغراقٍ للحال والمآل؛ وإني استحسن أن تبدأ بقراءته.

وقد رأيت في بعض الكتب المؤلفة حديثا أنَّ المؤلف في حقل بيان المصادر والمراجع يوردُها مرتبةً على حروف المعجم؛ ولم أر بهذا فائدةً تعود على العلم ولا على الكتاب الذي تُذكر مراجعه فتركت الأمر هنا تدوينًا من غير ترتيب.

من عادتي في بعض كتبي أن أذكرَ بعضًا من تجاربي في الحياة وتجاربي في القراءة والتأليف؛ لإطراف القارئ ولعله يجدُ فيها مفيدًا يأخذُ به؛ ولعله منهجٌ يُسرُّ له غيري فيأخذ به، ويضيف على كتبه ما يراه نافعًا لغيره فتتلاقح التجارب وتتلاحق بين أجيال الأمم، فجعلتُ هذه التوشيات جملاً تتخلل الفصول يُستروَح بها.

هذا وقد قام قائم البحث على مقدمةٍ وأحد عشر فصلا وخاتمةٍ وختم للخاتمة ومسردٍ للمراجع فكان الفصل الأول بعنوان «بين يدي الدَّراسة» جعلته فرشًا لما سأقول؛ والفصل الثاني تحدثتُ فيه عن مناهج تحليل النصوص؛ والفصل الثالث عن منهج التذوق الذي تبناه الشيخ، والفصل الرابع دراسة الأساليب؛ الفصل الخامس موازنة بين أسلوبه في النقائض وغيرها؛ الفصل السادس أسلوبه في الدراسات الأدبية؛ الفصل السابع الأسلوب الوجداني؛ الفصل الثامن قراءة لكتاب «نمط صعب ونمط

مخيف»؛ الفصل التاسع قراءة لترجمة عبد الغفار مكاوي لقصيدة «إنَّ بالشعب الذي دون سلع» والفصل العاشر موازنة بين نصين مترجمين مع النص العربي لقصيدة «إنَّ بالشعب الذي دون سلع» الفصل الحادي عشر بين الأفغاني وشاكر.

وقع الانتهاء من هذا الكتاب يوم الخميس الفاضل من شهر الله المحرم في العاشر منه؛ بحسب إتمام ذي الحجة ثلاثين يومًا؛ وهو اليوم الذي نجّى الله بها موسى ـ عليه السلام ـ وقومه من فرعون وقومه؛ والناس حولي كثيرٌ منهم صيامٌ يومهم هذا؛ فأسلك اللهم بهذا وبأنّك تباركت بيد الملك وأنت على كلّ شيءٍ قدير أن تجعله بركةً علي وعلى من قرأه وقام بشأنه؛ وقع هذا في مدينة عنيزة في بيتي بحي الأشرفية.

١٤٤٣/١/١٠

أبو سهيل

عمر بن عبد الله العُمَري

توشية

إذا وجدتَ أنَّ الشيخ يطيل في الشرح والإبانة فلا تستطل الطريق فهذا أمرٌ يلازمه وهو أصل من أصول قلمه ولا يستطيع أن يجد منه فكاكا؛ وقد يكون سببُه سعةَ علمه وحرصَه على التوثيق؛ ولكنَّ هذا قد يحرم القارئ المتعجل، وجدتُ هذا وأنا أبحث عن مراده من «التذوق» فقد قرأت من ص ١١٢٨ من جمهرة مقالاته وسرت في تشعبات وتفريعات أتعبتني حتى وصلت إلى ص ١١٨٣؛ فإذا الأمرُ يتبين طرفٌ من معالمه بأقلَّ من نصف صفحة وإن لم يكتمل بيانه رحمك الله أبا فهر؛ وسترى القول في المنهج مفصلاً في الفصل الثالث.

الفصل الأول

بين يدي الدراسة

الشك في المسألة ومن ثم تبني الرأي، مما دارت به حروف محمود شاكر وكذلك طه حسين رحمهما الله؛ فمتى ما كان الشك على منهج علمي فإنه يقود في غالبه إلى الحقيقة؛ والشك العلمي لا يأتي إليه الباحث استجلابًا أو قصدا؛ فهو لا يقول أنا أشك في صحة الرواية الفلانية وصحة الخبر الفلاني وعدالة الراوي فلان لا يقول هذا من قبل أن يقرأ أو يسمعَ شيئًا، لكن الشك العلمي هو ما يأتيك من غير استجلاب ولا انتظار فهو يأتيك فجأة يثيره حرفٌ قرأتَه أو سمعتَه، فيكون ورود الشك عليك لضرورةٍ مُلجئة لا لهوى في النفس أو تطلُّب له؛ فتقدح في ذهنك علةٌ قادحةٌ أو شائبةٌ تشوب التسليم فيقع في نفسك أنَّ هذا قد يكون خلاف الواقع؛ فأنت في مرحلتك الأولى تقول: «قد» فتتابع قراءتك فتبتعد عن «قد» قليلاً، وهذه «القد» حاضرةٌ في الذهن فتجد ما يعضد ها من اضطراب الخبر كأن ينقض آخرُه أولَه أو فساد الدليل، فيزيد الشك ويرتقي إلى تطلُّب الدليل؛ وهكذا تسير في قراءتك حتى

يجتمع لديك من الشواهد ما يثبت شكك أو ينفيه ؛ فهنا سيكون شكك سليمًا لأنك بدأت قراءتك وأنت خالي الذهن؛ وفرقُ ما بين نتيجة المنهجين أنَّ من شكَّ ابتداء فلن يصلَ إلى رأي قاطع؛ لأنه يسير في قراءته ليقرر ما وقر في نفسه؛ والشاك ابتداءً إذا اصطدم بدليل ينقض ما طوى نفسَه عليه تعسَّفَ في تأويل هذا الدليل وإن لم يستطِع فقد يخفيه ؛ أما من شكَّ عَرَضًا من غير استجلاب ؛ ثم تعددت عنده أسباب الشك وأدلته وقوّى بعضُها بعضا فسيقطع برأي جديد ؛ إذن هناك من يعتقد ثم يستدل؛ وهناك من يستدل ثم يعتقدً ؛ فالأول يقرأ والأمر مستقرٌ في نفسه ؛ والثاني يقرأ من غير أن يكون في نفسه شيء ولكن الشك يتولد من خلال قراءته؛ وسيرد عليك بعد قليل موقفٌ لياقوت فيه مثال على الشك العلمي .

وكان ـ رحمه الله ـ قد كتب اثنتي عشرة مقالة ، وقال عن هذه المقالات في ص ٣٩٥ من كتابه المتنبي : [. . . فهذا ما كنت كتبته قديمًا في صحيفة « البلاغ «بعنوان « بيني وبين طه « وكان غرضي أن أكشف الحقيقة التي انطوى عليها كتاب الدكتور طه حسين »

مع المتنبي «كتبتها يومئذٍ والدكتور طه حسين حيٌّ بعدُ يستطيع أن يردني إن جرت عن الحق]

قلت: وقوله: «والدكتور طه حسين حيٌّ» هذا احترازٌ ثمين حيث دفع ما قد يخطر من أنها كُتبت والطرفُ الآخر ميتٌ لا يستطيع الدفاع عن نفسه؛ وفيها شجاعة المنصفين.

ويشاء ربي أن تأتي على الزمن دورتان؛ فيقف شاكر على الأولى، ويقف محمود الطناحي على الأخرى عليهما رحمة الله ورضوانه؛ ففي الأولى حين كتب سيد قطب رحمه الله ما يسوء عن الرافعي ذبَّ شاكر عنه؛ وفي الثانية ذبَّ الطناحي عن شاكر؛ فقد ورد في كتاب» جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر» اعتنى بها الدكتور عادل سليمان جمال ج١ ص٨ ط٣ من مقالةٍ بعنوان «بين الرافعي والعقاد ١»: (قرأت ما كتب الأستاذ سيد قطب في العددين السالفين من الرسالة، وكنت حريًا ألا أعبأ بما يُكتب عن الرافعي في أوان حول وفاته. . . والأستاذ سيد قطب قد أبى . . . إلا أن ينبش ماضي الرافعي وما سلف من أمره؛ ليستخرج

حليةً يتحلَّى بها؛ إذ يكتب عن خصومةٍ بين رجلين: أما أحدهما ــ أنسأ الله في أجله وأمتع به ــ فما برح يتلطف للناس بما يستجد من عمل يجدد به مطارف آخرته؛ وأما الآخر ــ رحمة الله عليه ــ بين يدي ربه يتقرب إليه بعمل قد أبلى به أثواب دنياه؛ فلولا أنَّ الميت لا يدفع عن نفسه في ساعة موته مثل الذي يدفع في أيام حياته، وأنَّ ذكر الحي أقرب إلى الناس من ذكر الميت ــ لكان جديرًا بنا أن ندع الأستاذ المهذب الفاضل يتكلم بالذي يهوى) والرجلان اللذين يعنيهما شاكر هما الرافعي والعقاد رحمهما الله.

وأما الدورة الثانية للزمن فهي مما ورد في كتاب «مقالات العلامة الدكتور محمد محمود الطناحي صفحات في التراجم واللغة والأدب» دار البشائر الإسلامية ص ٦٠٨، وما بعدها من مقالة بعنوان: «محمود شاكر والسهام الطائشة» (... ما جاء في العدد الثاني من مجلة الجيل ــ ٨ نوفمبر ١٩٩٨م ــ من هجوم كاسح أكول على شيخ العربية وحارسها أبي فهر محمود محمد شاكر برَّد الله مضجعه؛ والذي تولى كِبْر هذا الهجوم هو الأستاذ حسين أحمد

أمين . . . والهجوم على محمود محمد شاكر بدأ غداة وفاته وكان أول من نقب هذا النقب السيدة صافيناز كاظم . . . وتوشك أن تكون شماتةً بالموت . . . وثورتها ترجع إلى مقابلةٍ جافة من الشيخ لها في يوم من أيام ١٩٨٢م . . . ونترك السيدة صافيناز إلى صديقنا الأستاذ نسيم مجلي . . . فلما غاب وجه محمود شاكر بالموت رتع نسيم مجلي في لحمه . . . ثم أترك الأستاذ نسيم لأصل إلى الأستاذ سمير غريب . . . ينقد مقالاً للأستاذ محمود شاكر . . . ما هذا يا قوم ؟ أتهاجمون الرجل بعد أن غيَّبه القبر ؟ لماذا لم تردوا على الشيخ كلامه في حياته . . . فليس من النبالة والإنصاف أن تهاجمُ من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ويرد عليك قولك)

وبعد ان نهيت قراءة كتاب « أباطيل وأسمار « وكتبت عنه ما تيسر لي دخلت على ما كان بينه وبين طه؛ وما بينهما جاء في مقالات مجموعها ثنتا عشرة مقالة فقرأتها وكتبت فيها عشرين صفحة أو تزيد » أو هنا بمعنى بل « فرأيت القلم هنا يتثاقل حتى اثـَّاقل ، وأحسست الذهن بغير صفائه الذي أعرفه؛ فحذفتُ

وأضفت وغيرتُ منهجي في قراءتي تلك لعل الأمر يكون على القلم أخفَّ وأحب وعلى الذهن أصفى وأجرى؛ ولكنَّ القلم استعجم بعد إفصاح وإبانة ، وحَرَن [أي أبى أن يتحرك] بعد سيلانٍ وتوثُب ، والذهن لم يستطع أن يمد القلم فجفَّ، عندها تذكرت بيتين لعنترة يقصُّ بهما شيئًا مما أحسه من فرسه حين أعياه بالكر والفر فقال عنترة:

فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرةٍ وتحمحم

لوكان يدري ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

وأنا أقصُّ عليك هنا ما ناب قلمي ، فلو انطلق بالكلام لكاشفني سرًا كان إلى معرفته أسرعَ مني؛فعمدت إلى أوراقي تلك فمزقتها وأيقنت ألا خير في إبقائها ؛ وقلت في نفسي لعل هذا من إثارة دفينٍ جرى بين رجلين من أهلِ القبلة ونسيه الناس فلعله من باب ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقد روى الدكتور محمد محمد أبو موسى في إحدى محاضراته عن محمود شاكر رحمه الله: أن طه حسين غسل

عقله من كل هذه الأوضار قبل أن يموت شهد شاكر بهذا مع ما بين الرجلين من خلافات حادة في الفكر والمنهج . ويروي أبو موسى أيضًا عن محمد حسين أن طه حسين ما كان يسمع قبل موته إلا صوت الحصري في القرآن .

و بعد قراءة ما جرى به قلمُ الرجلين « طه وشاكر « أقرأه و قد أفضيا إلى الحَكَم الحق العدل؛ فإني أقول اللهم إن كان طه حسين قد سطا أو أخفى علمًا انتفع به من محمود شاكر أو كان محمود شاكر قد بالغ في الانتصاف من طه؛ فإنهما بين يديك فأسألك اللهم لهما مغفرةً ورضوانا .

وقلم الشيخ حَمْلٌ وديع ما لم يُنل جناب الدين أو التراث أو تهمز قناة العربية ، فإذا وقع هذا استحال ذاك القلم نابًا في فك أسد ، ولعل الناب قدا ستحدَّ وعرض بدايةً من ص ٧٩ من كتاب» أباطيل وأسمار « : (والآن وقد فرغتُ من طرح عبءٍ ثقيل جدًا كنت أحمله وأنا أكتب قبل لويس عوض لفظ « دكتور» . . . أعود إلى لويس عوض مجردًا عاريًا من طيلسان الأساتذية

المتَّخذِ أداةً للخداع . . . لأنه استمرأ اللعب بآداب العرب وكلامهم . . . وقد استجاب الله سبحانه دعاء الضارعين إليه في يوم الجمعةِ المباركِ الساعات ، فنشر لويس عوض مقاله التاسع وكتب في ذيله « انتهى البحث » . . . فقد جعلت مكافأة لويس عوض على مسارعته إلى إعفاء الناس من غثاثة ما يقول وما ينشر ، أن أدع له حديث راهب دير الفاروس . . . وآخذ في طريقٍ آخر)

قلت: لبس أبو فهر لأمَته « وهي عدة المحارب من درع وسلاح « ووضع رجله في الركاب استعداداً للاستواء على الصهوة ؛ وقوله: « فقد جعلت مكافأة لويس عوض » والمكافأة مما يعد للمحسن، وهذا من باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ والنُزُل هو ما يعد للضيف ؛وهذا من التهكم بهم والتحقير لهم؛ وبعد هذا بدأنا نسمع صليل الحروف يُضرب بعضُها ببعض، فبعد أن اقتبس كلامًا للويس عوض قال في ص ٨٢ وما بعدها : (وحسبي حسبي فقد مللت من هذا الشرلتان الدعي المجترئ أي خبلٍ داخل هذا الرجل . . . فمن أي أديمٍ شُق وجه هذا الرجل ؟)

ومن خلال قراءة الأسلوب الذي سار عليه محمود شاكر في تعقُب طه حسين فإني أقول لا غرابة إن رأيت أن بعض ألفاظ شاكر في ردوده على طه حسين مستوحى مما كان ما بين الرافعي وطه رحمهما الله ؛ فشاكر كان من تلاميذ الرافعي، وجرى بين الرافعي وبين طه حسين رحمهما الله منا فرات وردود وتعقُّبات ثم ارتفع رأيي في شاكر من أنه يأخذ برأي الرافعي حين قال في المقالة الثانية : (رغب إلينا بعض بلغاء العربية ومن همُّه أن يحق الحق ويبطل الباطل . . .) وقال في المقالة العاشرة :

(. . . حتى هجم علينا بعض كُبار أصحابنا باللوم والتعنيف)

فقلت في نفسي :يا ترى من هم «بعض بلغاء العربية» ومن المعنيون بـ « بعض كُبار أصحابنا » ؟

قال هذا مشيرًا إلى استحثاثهم له في أن ينشر ما طواه من قول طه حسين في قرمطية المتنبي فيزيد في التفصيل؛ فوقع في نفسي أنَّ المعنيَّ بكبار الأصاحب هو الرافعي ؛ثم زاد الوثوق بالرأي حين قرأت قوله: في كتابه» المتنبي « ص ١٠٧ : (لم أكد أفرغ من كتابة

المقالة الثانية عشرة حتى جاءني نعيُّ استاذي وصديقي مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ، فانهدم في نفسي كل ما كان قائمًا) وبعدها توقف عن الكتابة عما كان بينه وبين طه وهذه يعزز الذهاب هذا المذهب .

كذلك مما يعزز هذا المذهب ليونة رده على عبد الوهاب عزام رحمه الله صاحب كتاب «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام « مع أنه تكلم عن كتاب عزام في مبحث عنوانه [كتابان في علم السطو] ليونته موازنةً له مع رده على طه حسين ؛ ومما قال عن كتاب عزام ص ٨١ في كتابه « المتنبي «: (. . . فهو يقف عند ما وقفت عنده ويخالفني معرضًا غير مصرح . . . وأثر ألفاظي في ألفاظه واضح كُلَّ الوضوح . . . وظل يسلخ من كتابي مرة بعد مرة مقتفيًا آثاري) ثم يذكر لقاءه بعزام في مكتب أحمد حسن الزيات بمجلة « الرسالة « وأنه ناقشه بما كان يريد كتابته وختم هذا بنقله لهذا اللقاء بقوله ص ٨٢ـ ٨٣ : (. . . وطال الكلام ، ولم أدع شيئًا مما كنت أحبُّ أن اقوله كتابةً إلا قلته بلساني . . . ولم أذكره بسوءٍ

حين تعرضت لنقد الكتاب الآخر ، كتاب كبيرهم الذي علمهم « السطو ») وهو هنا يعني طه حسين رحم الله الجميع ، ثم ختم كلامه في ص ٩٨ : (. . . أما سائر ما أخذه الأستاذ عزام اجتزاءً مجردًا ، أو سطوًا عريانًا فلم أتعرض له) وكثيرٌ من المعاني التي قالها شاكر عن طه حسين تجدها عند الرافعي في كتابه « تحت راية القرآن » في كلامه عن طه حسين ؛ وفي هذا الكتاب طبعة ٨ بتصحيح محمد سعيد العريان؛ هناك جمل تكاد تكون بنصها مما كتبه شاكر فيما بينه وبين طه من مثل ص ٨ من كتاب الرافعي: (أستاذ الآداب العربية في الجامعة المصرية) ومنه وصف طه بالمكابرة واللجاجة؛ ومنها : (أراد أن يسلب أهل العلم ما يعلمونه كما يسلك اللص) وهذه الجملة؛ بمعناها قالها شاكر عن سلب طه لأفكاره ؛وقد قال شاكر في ص٤١٣ من كتابه المتنبي : (ولكننا تعودنا من كتب الدكتور طه نقلَه معاني الناس إلى معانيه، وأنفته من نسبة الأشياء إلى أصحابها) ومن هذا ما وصف به الرافعي طه في ص٩ : (فالرجل متخلف الذهن تستعجم عليه الأساليب

الرفيعة ومعانيها وأكبر ما معه أنه يتحذلق ويتداهى) وهذه الجملة تكاد تكون بنصها فضلاً عن معناها مما يرد عن شاكر؛ فقد قال في ص ٤٢٢: (فقد رأيت كيف كان كتاب الدكتور طه يتقمم الآراء)وفي ص ٤٣٧: (إنَّ الدكتور طه رجل لا يستقيم على رأي، ولا يلم به إلمام العارف الذي لا يغفل عن موضع التناقض . . . ولو كان لهذا الدكتور طريقة في الفكر يتعقب بها المعاني، ويستقصي الأغراض ويستوعب الأسباب . . . ولكن هذا الرجل، كما قلنا لك مرارًا يرى الرأي بادئ الرأي فلا يتبصر فيه ولا يقلبه ولا يروزه) وفي ص ٤٥٣: (اسمع يا سيدي الدكتور إنك لرجل كثير المغالطة شديد اللدد غير مستقيم الرأي مضطرب الفكر متخلف النظر)

ومما يعزز هذا ـ أعني أخذ شاكر عن الرافعي لفظًا ورأيًا ـ أنَّ الألفاظ التي كتبها شاكر في نقده لطه لم أر مثلها قسوةً في رده على محمد مندور، ولا على محيي الدين محمد، مع أنَّ الأول رمى شاكرًا بالغباء والتخبط، والثاني قال عن شاكر: إن هجومه مشحون بالحقد والبغضاء، وإنه من صغار الكتبة، وإنه من النصابين

. . . الهجوم الموتور، المشحون بالحقد والبغضاء . . . مع ما في ذلك من تجنٍ وصغار لا يجيدها سوى فئةٍ من الكتاب التافهين . . . وقامت قيامةً بعض صغار الكتبة الذي اهتدوا إلى التفسير الصحيح للنص المختلف عليه . . . ثم أصبحت الأقلام الرجعية في مجلة الرسالة . . . ممثلةً لنوع من أنواع الرقابة الداخلية . . . وهكذا وقعنا في يد النصابين الذين يتكلمون باسم الفكر والثقافة) فختم كلامه عن مندور : (ولقد قطعني الزميل القديم مندور عما كنت فيه . . .) وختم كلامه عن محيي الدين : (فبالذي أنشأك فسوَّاك فعدلك ، يا سيد محيي الدين هل يدخل في نطاق تصورك أنَّ إنسانًا . . .) وستجد تفصيلاً لهذا في الفصل الخامس .

ولا غرابة أن يتأثر التلميذ بشيخه ؛ فهذا من طبائع البشر ؛ أقول ليُعلم أني حين أذكر هذا لا أذكره ثلبتًا لشاكر أو تنقصًا منه .

وهذا الكلام ـ أعني إثباتي أنَّ نَفَس الرافعي كان حاضرًا في كتابات شاكر ـ أعُده مثالاً على خطوات الشك العلمي؛ حيث قدح أول الأمر شكًا في ذهني حتى استبان بالتتبع دليله .

ثم هذه مجموعة لطائف جمعتها أثناء قراءتي له، أحببت جمعها لأحفظ شيئًا من علم الشيخ، ولأنتفع بها، ولأتحف بها القارئ؛ وأرى أنها من حواشي البحث وأطرافه.

ومن أولى لطائفه سخاؤه العلمي، ومن الدلالات المنيرة التي رأيتها عند الشيخ شاكر ومن حرصِه على نشر العلم؛ وكذلك مما يدل على الاستقصاء في تتبع معاني الألفاظ؛ أنه يشير إلى معنى اللفظ الذي أخلَّتْ به المعاجم أو لم يرد له معنى فيها؛ وهذا يغري ذوي العناية بالمعاجم بجمع وحصر ما فات أصحابَها من ألفاظٍ سهوا عن تدوينها أوجهلوا وجودها في لغة العرب؛ ومن هذا ما ورد في كتاب» طبقات فحول الشعراء» حيث وضع فهرسًا بعنوان» ألفاظٌ من اللغة أخلَّت المعاجِم أوقصَّرت في بيانها» حوى هذا الفهرس أكثرَ من سبعين لفظًا ومنه ما ورد في كتابه « نمطٌ صعب ونمطٌ مخيف» ص ١٩١: (... وهذا البناء بهذا المعنى لم تذكره كتب اللغة ولكنه ينبغي أن يقيد ويزاد عليها) وتكرر عنده هذا المعنى ص١٩٤ـ ٢٢٤ـ ٢٥٦ـ ٢٦٨؛ فلعل هذا يكون نواةَ بحثٍ ينهض به طالبُ علمٍ جاد.

ومن دلالاته على العلم وحرصه على نشره؛ ما ورد في كتابه «نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف» ص٢٢٦ـ ٢٢٧: (أما الفاءات التي بدأت منذ البيت السادس عشر، وتتابعت حتى آخر المقطع. . . ومن تأمل «الفاءات» في كتاب الله سبحانه رأى عجبا)

وقال في ص ١٤ من الأباطيل: (ولا تكن مثقفًا يعيب علي أني لم أكن «موضوعيًا» فهذا اعتراض غثٌّ، اعتراض مثقف) قلت: في هذه الجملة يرى أنَّ المثقف لا يرقى فهمه أو علمه إلى نزع الخصومة والبت بها فهو قاريء وكاتب لا يحسن الدخول في مضايق العلم و القول فيها، وهذه حقيقة يجب الوقوف عندها لنعرف الفرق بين العالم والمثقف، فالعلم هو استنباط مجهولٍ من معلوم وإثبات معلومة جديدة نتيجة البحث والموازنة بين حقائقَ ذات خصائص متشابهة؛ فالعالم يحك فكرةً بفكرة فيُخرج فكرةً جديدة، ويقدح رأيا برأي فيخرج برأي ثالث، والصفة الحقة التي أراها في تأليف العالم هي أن تكون مؤلفاته باحثةً عن حقيقة، فيكون مبعثُ التأليف عنده أنه يجيب على أمرٍ مشكلٍ ورد عليه؛ أو يصوّب خطأً درج عليه غيره،

وقراءة كتاب « المتنبي « للشيخ من خير الأدلة على مطاردة الدليل لإثبات حقيقةٍ أو نفيها .

فالعالم حين تقرأ له فإنك من مقدمة كتابه يتبين لك أن مبعثَ التأليف هو تصحيح أو نفي أو إثبات أو إضافة، وحين تدخل مثاني بحثه تجد أنك أمام مسألة علميةٍ جادة يراوح المؤلف بين الأدلة الناقضة أو المثبتة، فتخرج بثَراء يُريك مع الحقيقة مسالك الوصول إليها بدليل، ومن شروط الدليل أن يكون مأخذه من مصادر تعتبر أصلاً لما اختُلِف فيه ، وليس من لوازم قبول الرأي أن يكون مأخذه واستنباطه مرضيًا لدى الطرف المخالف لكن المصدر يجب أن يكون مما رضيه أهل الفن الذي وقع الخلاف فيه .

وحين نرى كاتبًا يؤلف في موضوعات شتى ومتباينة فهذا يبعده عن صفة العالم لأن العالم له علمٌ يعرف به؛ فلا يوصف بأنه عالم وإن أحسن الجمع والرواية في كل ما يكتب ؛ وهذا لا يجري على من يخدم علمًا بأن يتوسع العالم بعلوم الآلة؛ وقراءتك للعالم تمنحك الحقيقة وتهديك إلى كيفية الوصول إليها ، فانتبه حال قراءتك لتعرف مع الحقيقة طريق الوصول إليها .

المثقفون ليس لهم عمقٌ علمي و ليس لهم علمٌ يعرفون به فهم يكتبون عن اللغة تارة، وعن الدين أخرى، وعن الفلك ثالثة، وعن الشعر رابعة، وعن الأخلاق. وعن الصحة، وهكذا .

وهؤلاء كتاب لا يملكون الملكة العلمية القادرة على فحص الأدلة والموازنة بينها التي يملكها العلماء، ولكنهم يحملون همًا ولديهم رغبة تدفعهم للكتابة، وغالب مصادر أقلامهم من الصحف السيارة والكُنَّاشات أي في الكتب التي لم تُبنَ على المسائل ذات الدقائق العلمية ومن أمثلة هذا الصنف من كتب القدماء «المستطرف في كل فن مستظرف « للأبشيهي، ومن المحدثين كتاب « بين الكتب والنَّاس » للعقاد عليهما رحمة الله .

ومن المصطلحات المُبهِمة أن يقول الناس عن رجل ما إنه « موسوعي « يعنون أنَّه متعددُ المعارف؛ ووجه إبهامها أنَّ بعضهم يعدها صفة كمال بالعلم وأن الموصوف بها من العلماء ؛ وبعضهم لا يرى أنها تبلّغه منزلة العلماء ؛ لأنه لم يَهب نفسه لعلم معين ؛ وليس له علمٌ يعرف به؛ إلا أن تكون تلك العلوم مما يعين بعضًها على فهم

بعض؛ كأن يكون من علماء التفسير وله باعه في النحو والبلاغة والشعر.

ومن اللطائف ما أورده ص ٣٨ من حرص ياقوت الحموي رحمه الله على تتبع مصادر الأخبار، وذلك أنه قرأ خبرًا عن شيخ المعرة وقع في نفسه ما شاب التصديق؛ قال ياقوت: (فلما وقفت على القصة، اشتهيت أن أقف على صورة ما دار بينهما على وجهه، حتى ظفرت بمجلدٍ لطيف، وفيه عدة رسائل من أبي نصر إلى المعري، انقطع الخطاب بينهما إلى المساكتة) ومأخذ اللطيفة قوله: «اشتهيت« حيث هاجت عنده شهوة البحث عن الحقيقة فلم تهدأ حتى ظفرت بها.

ومن لطائفه ما ورد في ص ٢٥٥ يصف فيه أصناف الخاملين والتنابلة الذي لا غاية لهم أو لهم غاية لا ثمر لها فعزم على الاعتزال وترك الخلطة: (... ولكنهم إذا حصَّلتَ ما في صدورهم وقلوبهم وعقولهم أصحابُ ثرثرة وترترة وبربرة» وهي ثلاثة ألفاظ متقاربة في معاني اللغط والإكثار والهذر... وهم أيضا في حقيقة أمرهم

مزامير مزعجة مختلطة الأصوات في المجالس، أو شجر مزروع على قوارع الطرق، أو أحلاسٍ مرذولةٌ لكهوف المقاهي المظلمة أو المضيئة، ولكنها على ذلك كله أحلاسٌ ذات فحيح أو ذات جعجعة ثم لا شيء وراء ذلك)

ومن هذا ما تعود لطافته إلى جمال التعبير عما في النفس؛ فقد قال في ص١٣٣٤ من كتابه: «برنامج طبقات فحول الشعراء» حين أراد التعبير عن الفرق بين معنى «جعل» و «غيَّر»: (وبين المعنيين مسيرة شهر للراكب المُغِذّ)

توشية

يعتلج في ذهني معانٍ أرى أنَّ الحروف قاصرةٌ عن أداء ما في النفس، فكم قلت ـ والقلمُ يحاول جاهدًا أن يعبر ـ : كم هي المعاني التي وددت لو أني أفضي بها متكلمًا لا كاتبًا ؛ فمدُّ الصوت فيه إبانة عن مقصود لا يدركه الحرف المكتوب ، رفع الصوت وخفضه هما كذلك، الإشارة باليد تُفهِم المزيد من المعنى ، قبض الأسارير له دلالة، بسطها له دلالةٌ كذلك؛ الكتابةُ لا تستطيع أن تريَك إياي باسمًا أو عابسًا ، كل هذا وغير هذا لا تستطيعٍ نقله الكلمة المكتوبة؛ فلِمَا أجده من قصور الحرف عن الإبانة عما أُكنّه قلت ما قلت؛ وهذا مما قضاه الله ـ بحكمته ـ من قصورٍ على ولد آدم .

الفصل الثاني
حديثٌ عن مناهج تحليل النصوص

كان اللسان الذي تحمله هذه العقول ويجري به ما تكنه نفوسهم من المعاني مهيئًا للمزيد من الكمال لو وجد ما يحركه، فقد كان اللسان الذي يعبر به هذا العقل على مدارج الانطلاق للأكمل لولقيَ ما يهديه ويغذّيه، كما أنه طُبع على قدرٍ من المرونة والطواعية جعلته قادرًا على استساغة ما يجِدُّ من دواعي كماله البياني.

فأنزل الله القرآنَ بهذا اللسان، وتشربته العرب فبلغ لسانها الكمال المربي على الغاية التي كانت تتسابق إليها، فلما شاء الله لأهله أن ينساحوا في هذا البسيطة ناشرين دينهم ولغتهم وجدوا من تراث الأقوامِ المفتوحةِ بلادُها ما زاد من اللقاح فأثمر هذا حضارةً صهرت قديم القوم بجديد الفاتحين وقديمهم، فبلغت الغاية في البيان والإبانة، وأصبح لسان الفاتحين هو اللسان الصاهر لأنه لسان الدين؛ فكان لزامًا على كل داخلٍ في هذا الدين أن يتعلم شيئًا من لسان الفاتحين؛ وزاد من إمامته دخولُ أفواجٍ من هذه

الأمم في الإسلام كان لهم سابقةُ علم بلسانهم؛ فتمكنوا من هذه اللغة وتأصلت لديهم فوجدوا فيها منَ الكمال ما لم يكن موجودًا في لسانهم الأول وقاموا باستصفاء ما با للسانين فاستخلصوا علمًا لم يُسبقوا إليه، وكذلك فعل أهل اللسان العربي أو زادوا، وهكذا هو العلم تركةٌ مطروحة يستحلها من هو أهلٌ لها.

قراءة النصوص قراءة تحليلية غايةٌ تستحق إدماء الأعقاب وظمأ الهواجر؛ لما فيها من النفع في فتح مغاليقَ أُغلق عليها النص؛ وكذلك تمهيد الدربة لمن حُبِبَ له النقد والتحليل؛ لهذا ولما ستجده في الحديث عن هذه المناهج أحببتُ جمع وتدوين ما - سيكون بإذن الله - عونًا لمن أراد النظر في الإنتاج الأدبي وغيره من العلم؛ فقدمت الحديث عن الجمال البياني.

فقلت: والجمال البياني؛ وأعني به تمكُّن الكاتب أو المتحدث من الإبانة عما يحسه مع جمال العبارة؛ الكاتب أو المتحدث لا بد أن يكون مطبوعًا على الإحساس بتذوق الجمال وأن يهتز ويطرب ويأخذه العجب ليعيش اللحظة التي وُلد بها النص؛

فإن لم يكن مطبوعًا كان كما قال عبد القاهر الجرجاني رحمه الله : [إذا خاطبت بموضوع الإعجاز من ليس له طبعٌ في فهم كلام العرب كنت كمن يلتمس الشم من أخشم] ؛ وبلوغ الطبع يخضع لأمورٍ منها . الموهبة التي وهبها الله لإنسان ما ؛ فالموهبة هي المفتاح وهي المولج الذي به يدخل الناقد إلى مكوِّنات النص وأجزائه، وبدون هذا المفتاح فلن يلج بل لن تحدَثه نفسه لأنها عُدمت المثير ؛ ومنها الذوق الشخصي ؛ والذوق الشخصي المعتدُ به هو ما صدر من شخص سليم النظر مالكٍ آلته من دِربةٍ وعلم، وكثرة القراءة لأفذاذ البلغاءٍ، والمران على التحليل والنظر إلى ما خلف اللفظة من المعاني، والقدرة على التمييز للألفاظ وإبداء المفاضلة بين الجيد والرديء منها ، ومن ثمار دراسة النصوص استكشاف خواطر النفوس التي أفرزت النص؛فالإبصار الصحيح لدقائق العلاقات بين ألفاظ النص تثمر بالفهم معرفة ما يتخاطر من المعاني الخفية؛ ومنها التعرف على ما لم يقل بالفهم العميق لما قيل ؛ وبقدر لطافة عقل الدارس وحسه وسرعة لمحه يستطيع أن يصل إلى خفي النص الذي

بين يديه، وإبراز أوجه التواد أو التنافر بين المعاني وبين الألفاظ التي أدتها ، ومحلل النص بقدر ما لديه من لمح وفهم للخفي من مقصود الكاتب ، وذلك بواسطة التدقيق بالألفاظ لمعرفة ما توحي إليه من المعاني والمقصودات فإنه يستطيع أن ينقل للقارئ ومَضَاتٍ من فهمه لم تخطر على منشئ النص، وعليه وهو يقوم بهذا أن يكون دليله مستقيمًا وفهمه واستنباطه مما تسعه اللغة، فإن لم يكن فهمه كذلك فقد عاد الاحتجاج عليه، كذلك فإن معرفة الكاتب الدقائق اللغوية ومعارج الاستعمالات يعينه على الإشادة بالنص أو الزراية به .

التبرمُ وضيقُ العطن واستطالة الطريق موانعُ من الوصول إلى الغاية؛ فطول النفَس مطلبٌ لا غنى عنه في دراسة النص ، ومن المعين أن يطرح الدارس ـ أثناء دراسته ـ سؤالا مثل هل الكاتب صاحب النص استطاع تأدية المعنى أو قصُر عنه ؟ مما لا غنى عنه في إصابة الرأي أنك إذا كنت تدرس نصًا لشاعر أو ناثر أن تطيل القراءة بإنتاجه من غير هذا النص فإنك ستصل إلى علاماتٍ خفيةٍ مميزةٍ له عن غيره تهتدي بها إلى حقائق قد لا تخطر على قائل النص

نفسه، ولهذا نجد أنَّ من العبارات التي يرَدُ بها علماء الحديث ــ عليهم رحمة الله ورضوانه ــ حديثا معينا أن يقولوا:

هذا لم يخرج من مشكاة النبوة، يقولون هذا لأنهم عاشوا كثيرًا مع أحاديثه صلى الله عليه وسلَّم حتى تمكنوا بطول المدارسة وإنعام الأنظار من الإبصار والقدرة على تمييز اللفظة النبوية وتذوقها؛ وحين تكون الدراسة لنصوص وآراء متباينة فلا بد من الموازنة بين الأدلة من حيث إصابتُها في الاستدلال أو خطؤها، ومن حيث صحةٍ الاستدلال بها؛ فقد يكون الدليل صحيحًا والاستدلال خطأً؛ لأنَّ من غايات الدراسات في هذه الحال إحقاقَ قضيةٍ أو إبطالها، وذلك بالوقوف على الأدلة النافية والأدلة المثبتة؛ فمثلاً إذا كنت تدرس قطعة شعرية دراسةً تاريخية وفنية؛ فدراستها التاريخية توجب عليك التأكد من نسبتها إلى قائلها؛ والدراسة الفنية تدعوك إلى النظر بجوها البلاغي، ولا علاقة لك حينئذٍ بثبوت نسبتها فأنت تدرس نصًا من غير اعتبار لمن هو؛ إلا أن يكون من أغراض الدراسة الموازنة بين قائلٍ وقائل.

ولا بد أن يكون الدارس ذا علم ودراية بعلم النص المدروس؛ وحين يقتصر الدارس للنص على إبرازٍ المعنى للكلمة فهذا أبردُ مراتب التحليل وأدناها ، وهذا لا يعطي قارئ النص حصيلةً تميز صاحب الدراسة ولا تبرز تمكنه من التحليل ، ولا هي تبين معالم صاحب النص ؛ لأنَّ المعاني المجردة يستطيع القارئ الوصول إليها من المعاجم ، أما غاية الدراسة فهي الإبانة عن مواطن الحسن والقبح والخطأ والصواب، ونافذ البصيرة يستطيع بقراءته ونفاذ إبصاره وسعة علمه أن يميز بين رأي أو تركيب بلاغي سبَق إليه قائل النص وبين ما سُبِق إليه، كذلكً الاقتصار على معاني المفردات لا يتبين نصيب المشاعر المصاحبة للنص فهذا لا يكون إلا بإبراز المكنون الداعي للقول .

وتقليب التربة لكلام العلماء ، ونقل البذور من عقل كبير إلى عقل كبير آخر يثمر ثمرة جديدة ليست بحسبان العالم الأول ؛ والفهم له مسالك تعين الدارس، فمنها تفكيك الجملة لنصل بمعرفة الروابط بين الكلمات إلى معاني مستنبطة ، ومن لوازم هذا أن يكون

العلم الذي تدرسه مما تنبسط إليه نفسك ولا يمكن للدارسة أن ترقى إلى الإبداع إذا كانت بفنٍ لا تميل إليه النفس، وبقدر ميلها وتمليها تكون النتائج أقربَ وأكثرَ دقة وتكون الأحكام أكثرَ صوابا، ومنها أن يكون الدارس قادرًا بذوقه وعلمه على أن يعيش التجربة الشعورية التي أدت إلى ولادة النص الأدبي الذي بين يديه، ومنها إبراز العلاقة اللغوية بين ما اُستُنبِط وبين ما قيل، وهنا لا بد أن تكون تلك العلاقة مما تتسع له اللغة؛ فالاعتساف يفسد النتيجة ويذهب بالدارس مذاهب بعيدة، ومنها صفاء الذهن أثناء التحليل وخلوه من الشواغل.

ومما يفيد أن يستصحب محلل النص سؤالا يعينه على حضور الذهن كأن يقول: لماذا استخدم صاحب النص الفعل المضارع وترك الماضي، أو لماذا عبر بالاسم وترك الفعل أو العكس، مع التنبه إلى أن الإفراط في هذا يفضي إلى التكلف .

ومن أول خطوات التحليل إبانة المعنى العام للنص ثم المعنى الخاص لكل فقرة، وشرح غوامض الألفاظ، ومن مناهج التحليل

إظهار العلاقة بين أطراف النص ، وحسن انتقال منتج النص من فكرة إلى فكرة وبراعة الاستهلال وجودة الختام ؛ فبراعة الاستهلال هي القطرة الأولى وهي فاتحة الذهن أو مغلقةٌ له ؛ وبقدر أثرها يكون القبول أو الرفض ؛ والختام هو الطابع الذي يُبقي أو يمحو، فإذا وُفق الكاتب فيهما فقد أطبق في التأثير .

ومما يتعلق بالمحلل أن يعلم أنه لا بد من قراءة النص المراد تحليله قراءة أولى متأنية مع تدوين ما يظهر لك من هذه القراءة، ولا يصح الركون إليها واعتبارها النتيجة الأخيرة؛ تكون آراء الناظر بالنص أقربَ إلى الحقيقة وأبلغَ بالتأثير بقدر قدرته على مقاومة هوى النفس أو السير بطريق تقادح الأقران وداء المعاصرة، الموهبة ركن ركين في هذا الباب ، فلو حفظ قواعد الموازنات من لم يوهب مقدرة الكشف فلن يصل إلى المرادات الخفية، فحاله كحال من أتقن بحور العروض بزحافاتها وعللها لكنه لم يوهب قول الشعر فلن يستطيع قول بيتٍ واحد .

ومن خطوات التدريب الأولى أن تختار من فنون الأدب مثلاً فن الشعر فتفتح كتاب المعلقات كيفما اتفق ثم تقوم بتطبيق هذه القواعد على ما يظهر لك من نص، لأن تحليل نص مختار بما يتوافق مع النفس لا يعطي القارئ الصورة المثلى لخفايا النصٍ ولاً مقدار علم الدارس؛ فالمحلل يدخل على النص بصورة راغبة فكأنه يحقق بغيةً خاصة، وكذلك لا ينبغي أن يدخل على نص وهو كارهٌ لصاحبه لأنَّ هذا سيجعله يتحرك من خلال منظور سابق قد يعميه عن جوانب مؤثرة في النص الذي أمامه .

من الفروق التي تكون في مجال تحليل النصوص أن ندرك الفرق بين تحليل نص أدبي لا علاقة لنا بمنتجه سوى العلاقة العلمية، وبين نص نقرأه لنرد على صاحبه معارضين أو مؤيدين ؛ فغاية الدراسة لأجل التأييد أو المعارضة تكون واضحة المعالم من حين أن يبدأ الكاتب كتابته .

مُصدر النص الشخصي أعني به منتج النص، أو المصدر البيئي أي البيئة التي وُلد بها النص، لابد من اعتبار هذا العنصر

عند التحليل، ففرقٌ بين أن يكون مبدع النص فقيرًا وبين أن يكون غنيًا وبين أن تكون البيئة ريفية أو حضرية أو بدوية، وكذلك نوع المبدع أهو ذكرٌ أم أنثى .

محلل النص قد يجد ذوقه مستوحشا من غثاثة لفظة لا تناسب موضوع النص، فإن جاءك هذا الخاطر عفوًا من غير اجتلاب فالغالب فيه أن يكون ذوقك على حق ، ومن علامات هذا أنك تجد من نفسك نشاطًا وأنسًا وأنت تقرأ النص فيصيبك فجأة فتورٌ في هذا النشاط بسبب ضعفٍ طرأ على منشئ النص فساءت به عبارته فأصاب قواك .

محلل النص ساعة تحليله هو أديبٌ ينشئ نصًا ؛ لذا عليه أن يعتنيَ بعبارته حين التحليل، وينظر في محاسن ومساوئ تعبيرات النص الذي أمامه فيأخذ ويدع ما يصوغ به دراسته .

اللفظة في النص الأدبي لها روح تكون عابسة وتكون ضاحكة بحسب الغاية من حضورها في ذهن القائل وبحسب الحالة الشعورية له ؛ لهذا لا ينبغي أن تقرأ هذه اللفظة قراءة

معجمية صامتة لا روح فيها تبحث عن معناها فقط ؛ ومما يعينك على الصواب أن تتزي بما تراه من زي الكاتب النفسي وأن تحاول أن تعيش حالته الشعورية في كل معنى تقرأه ؛ فقد تجد أنك حينا تهزُّ يدكَ ومرةً تكون عابسًا وثالثةً تكون طربًا مرسلاً أساريرك وقد تحس أنَّ الأمر يحتاج إلى الوقوف أو رفع الصوت ؛ وقد يأخذك الإصغاء للمعنى أن تطيل التحديق بكلمةٍ في النص .

مما يعين الدراس على قراءة النص قراءة فنية وجدانية أن يقرأه كاملاً ولا يقطّعه قطعًا لأن هذا يذهب الرباط الفني للنص ويقلل من شعورِ الدارس وقربَه من الصلات بين أجزائه، وقد رأيت هذا في شرح أبي علي المرزوقي لحماسة أبي تمام رحمهما الله؛ فهو يقطّع النص فيعيش مع البيت عيشة نحوية لغوية فينفصل بهذا ويغيبِ عن مأخذ فني ومغزى بلاغي .

والقطعة الأدبية تشبه البستان المليء بأنواع الأشجار والزهور وجداول المياه وصدح الطيور، فمن أراد وصف هذا فلا يتجه بقلمه وفكره فيصف أحد مكوناته معزولاً عن غيره،

ولكن عليه أن يبين بأن شجر التين مثلا الموجود في هذا البستان له جانب من الجمال زاد مع وجود الزهور وهذه زادت مع تدفق الماء حتى يأتي إلى جميع ما فيه فيجعل القارئ يعيش أجواء البستان كاملة؛ كذلك قد تكون مليئةً بالأشواك ذابلةَ الغصون آسنةَ الماء فالقطعة الأدبية التي أمامك لا يمكن أن يكون الرأي صوابًا في تحليله إذا أعطى ميزة الإبداع لخيطٍ واحد من خيوط النص ، كأن يقول إن اختيار اللفظة هو الذي جعل النص ثريًا وما عداه إن هو إلا هوامش يُستغنى عنها ؛ فاللفظة على أهميتها لا تبين الفكرة ما لم تكن حسنة الارتباط بما قبلها وبما بعدها ، وأعني باللفظة المفردة التي من أخواتها يتكون النص .

يصبح رأي الدارس أكثر تأثيرًا حين يستحضر أثناء دراسته نصوصًا مشابهةً أو متنافرة مع ما بين يديه؛ ليستطيع أن يطلع القارئ بطريق الموازنة بأن صاحب هذا النص أجاد أو أخفق ، وهذا يكون بذكر نصوص طرق أصحابها الموضوع ذاته .

ومن الموازنات بين الحقائق العلمية والنظرات الأدبية أقول إنه، لو جاء شخص وقال لنا : إنَّ الريح إذا أُرسلت فإنها تؤثر

بالأشجار ذات السوق العالية لكنها لا تؤثر بما لا سوق له، فهاذ كلام علمي مجرد يقع في النفس موقع الحقائق التي لا تثير الوجدان، لكن ابن زيدون رحمه الله نقل لنا هذه الحقيقة بصور أدبية جمالية حين قال:

هل الرياح بنجمِ الأرض عاصفةٌ   أم الكسوفُ لغيرِ الشمسِ والقمرِ

فهو لا يقصد نقلَ حقيقةٍ مجردة وإنما أراد أن يسليَ أفذاذَ الرجال حين وقوع المصائب عليهم من أنها لا تصيب إلا النابه الشامخ، فكما أنَّ الرياح لا تُمِيلُ النجمَ من النبات وهو النبات الذي لا ساق له فكذلك الحال مع الشريف النابه فإنه هو المعرض للحسد والنيل منه لشرفه وارتفاع منزلته.

قد يقرأ محلل النص قدرًا كبيرًا من الكلام لا يجد فيه ما يثير، ثم يعثر على لفظةٍ ثرية تفجر فيه القول فعليه أولاً بعدم استطالة الطريق، وعليه ثانيا أن يبالغَ بالحفاوة بهذه الكلمة.

حضور النَفَس الوجداني لمن يقوم بالتحليل ومقدار حظه منه يفتح له مغاليقَ العلاقة بين أجزاء النص ويمكنه من الإبصار

لخفايا الكاتب أو الشاعر، وأقصد بالنَفَس الوجداني قدرةَ المحلل على أن يتمثلَ التجربةَ الشعورية ليعيشها سواءً كانت تلك التجربة ـ في نظره ـ مثيرةً أم مثبطة.

ومن النصوص التي أسوقها نماذجَ للتحليل أن نعيش مع قوله تعالى: ﴿ وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ ﴿ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ النحل ٥٨ ـ ٥٩

من هذه الآية الكريمة سأتناول شيئاً من جانبها التصويري، فالصورة الفنية المرسومة لهذه الحال تتوزع بين اللون، والحركة، ومخاطبة النفس ؛ هذا جزءٌ من نسيجها الفني ، فنحن أمام إنسانٍ دهمه خبرٌ مفزع حسب أعراف الجاهلية ! حوّل حاله إلى اضطرابٍ وحيرة . فهو عندما سمع البشارة بالأنثى ارتسمت آثارُها على وجهه؛ والبشارة جاءت على المجاز؛ لأنها في أصلها اللغوي إخبارٌ بما يسُرّ؛ ولكنّ بعض أهلِ الجاهلية كان يسوؤهم أن

تولدَ لهم أنثى فجاءت البشارة مجازًا كما تأتي مع العذاب الأليم في مثل قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ آل عمران ٢١ ؛ فبدا على المُبَشَّر السواد ، وجللته الكآبةً؛ وهذه صورة خارجية وقوله تعالى: ﴿ وهو كظيم ﴾ هذه الجملة الحالية. من حيث موقعُها الإعرابي . تصور حالَه من الداخل ، فالسواد صورة خارجية تشاهد بالعين أمّا الحزن والغم والكآبة فتستطيع أن ترى آثارها ؛ فهي مما يعتلج داخل النفس، ثم تأتي الصورة الثالثة . وهي تعبير حركي ﴿ يتوارى ﴾ يقوم به هذا الإنسان فمن شدة الفزع والمذلة التي يحياهما ؛فإنّه أخذ يختفي من الناس ؛حتى لا يراه أحد فيرميه بمنقصة الأنثى ! كذلك هو يريد أن يختفيَ عن الأنظار ليصل إلى الخط الرابع من خطوط الصورة . وهي مرحلة الصراع مع النفس التي تسبق استقراره على الأمر ، فهذا الإنسان بين أمرين أحلاهما مر؛ الإمساك على هوان ومذلة أو الدس في التراب والانضمام إلى ركب طائفةٍ من أهل الجاهلية .

البليغ المطبوع هو من يجري البيان على قلمه عفوًا حتى إنه حين يكتب وهو في حالة تجلٍ وصفاء فإنه إذا فرغ من كتابة خاطرته وعاد إليها بعد زمن عجب كيف جرى على لسانه هذا البيان وكيف جرى به قلمه.

وساعة المواتاة ليس لها زمنٌ تُعرف به فتُنتظر وإنما هي توهبُ بوقتٍ لا تستطيع استجلابها إليه؛ وساعة البركة تختلف عن ساعة المواتاة والتوفيق، فإذا فتح الله عليك بساعة بركة كأول النهار فهذا نورٌ على نور، وقد تولد الفكرة أو الخاطرة في قيلولة قائلة وقد تتدفق تحت لهيب الشمس وقد تمنع وتستعصي بين خرير الماء وتغريد الأطيار.

وهل الشأن في جمال الأسلوب أو القدرة على التحليل فطري أم مكتسب؟ أقول إنّه من واقع قراءاتي لأساليب منوعة فإن الجمال الذي تكاد تتفق عليه الأذواق لا يكون إلا فطريا وينمى عن طريق المران والتجربة؛ فصاحبه لديه هبة إلهية أقدرته على الإبانة بأسلوبٍ راق؛ أما ما دون هذا من الأساليب فإنّه من الممكن

أن يكون مكتسبًا ، وهذا ما عليه عامة الكُتَّاب والشعراء ، وفي كلا المستويين لا غناء عن المران والدربة .

هناك ارتباط ٌخفي بين اللفظة المختارة وخفايا النفس؛ فهذا الصوت الذي نقل المعنى يمثل الحالة الشعورية للقائل، فلا بد من اقتناص مثل هذه اللطائف الخفية ومن ثم الاستدلال بها على حالة معينة للقائل، جاء في الكلام عن الشعر الجاهلي في موسوعة الشعر العربي ص١٩ : « . . . اللغة العربية لغة عضوية ، وليست تركيبية، بمعنى أنَّ جذور ألفاظها إنما هي رموز موسيقية عن الحالة الداخلية للناطق أي أنَّ اللفظة في حروفها المكونة لها تكون لها دلالة على الحالة الشعورية التي أفضى بها القائل؛ فالحالة الداخلية المقصودة الحالة الشعورية التي بعثت على القول »

إذا كانت سلامة الذوق شرطًا بإصابة الناقد من الناحية الفنية، فإن استيعاب مصادر النص والقدرة على استحضار ما فيها مما يخص شخصية القائل أو ما قيل عن النص يعين المحلل على الفهم والرد بدليل مع إثبات حجته .

وحين يريد محلل النص الاستشهاد بنص آخر فمن المعيب أن ينقل النص بمعناه مفتتحًا هذا بقوله: قال فلان، فيوهم القارئ أنَّ هذا نص ولكنه في الحقيقة نقل بالمعنى.

إنّ الأديب ليخفق إخفاقًا ذريعًا عندما يكون من همه في العمل الأدبي أن يشَبّه كذا بكذا فيكون قد أعد المشبه والمشبه به ووجه الشبه قبل ولادة النص الأدبي؛ فهذا أسميه نجارًا أو خياطًا أو نحوهما؛ لأنّهما هما اللذان يرسمان الهيئة ثم يقومان بإعداد ما يناسبها.

فالأديب المطبوع الفذ هو الذي تنثال عليه المعاني ثم تتزاحم لديه ألفاظها عند نضج التجربة الشعورية وبداية تدفقها، والتجربة الشعورية هي الحالة التي تسبق ولادة النص وتبشر به، وهي لدى الأديب المطبوع تدفعه دفعًا ولا يستطيع ردها، وكذلك ليست هي مما يستجلب وإنما هي تولد فجأة من غير أن يحسب لها الأديب أو الشاعر حسابًا.

قال عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في (الرسالة الشافية في الإعجاز) الملحقة بكتاب (دلائل الإعجاز) قرأه وعلق عليه/ أبو فهر محمود محمد شاكر/ رحمه الله، قال في الفقرة ٢٩ ص٦٠٤ :

(وكذلك السبيل في المنثور من الكلام فإنك تجد فيه متى شئت فصولاً تعلم أن لن يُستطاع في معانيها مثلُها) ثم مثَّل لهذا فقال: (فمما لا يخفى أنه كذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كل امرئٍ ما يحسنه « وقول الحسن البصري رحمه الله: « ما رأيت يقينا لا شكَّ فيه أشبهَ بشكٍ لا يقين فيه من الموت » أهـ

وإليك شذَراتٍ مما يجانس ما أنا بصدده، وهما بيتان غصبهما الفرزدق من قائليهما عليهم رحمة الله، لا لأنه لا يستطيع أن يقول في معناهما فهو من هو وما أكثر ما قال في هذا المعنى ، ولكنه رأى أنَّ هذا المعنى الذي رمى إليه الشاعران لا يستطيع قوله هو بمثل هذا اللفظ ، فالأول قول الشمردل:

وما بين من لم يُعطِ سمعًا وطاعةً ... وبين تميم غير حز الغلاصمِ

والغلاصم جمع غَلْصَمة وهي اللحم الذي بين الرأس والعُنق، والحز القطع أو الجذب بقوة.

فقال الفرزدق: والله يا شمردل، لتتركنَّ هذا البيت أو لتتركنَّ عرضك (يتوعده بالهجاء) فقال الشمردل خذه على كرهٍ مني يا أبا فراس، فهو اليوم في قصيدته:

تحن بزوراءِ المدينة ناقتي ... حنينَ عجولٍ تبتغ البو رائم

« البو « هو جسمٌ حوار الناقة يحشى بالتبن يوضع أمامها لتدر بالحليب يصنعون هذا حين يموت وليدها فتتوهم أنه هو.

والثاني قول ذي الرُّمة:

أحين أعاذت بي تميمٌ نساءَها ... وجُرِّدتُ تجريد اليماني من الغمد

فانتحلهما الفرزدق في قصيدته وهي أربعة أبيات»

ومن هذا أي مما لا يستطاع معناه إلا بهذا اللفظ قول امرئ القيس:

كأنَّ قلوب الطير رطبًا ويابسا لدى وكرها العنابُ والحشفُ البالي

يصف وكر العقاب وما يوجد في هذه الأوكار من بقايا أطعمةٍ أطعمتْ بها فراخَها، فهو يشبه قلوب الطير المصيدة بعد أكلها بأنَّ منها ما هو قريبُ العهد بافتراسه ومنها ما هو بعيد، والمعنى الذي عبر عنه هو حال هذه القلوب حيث رأى أنَّ ما كان قريبَ العهد يشبهُ العناب، وهو تشبيه عجيبٌ وصول الشاعر إليه وعجيب حضوره في ذهنه، فإنك إذا نظرت إلى واحدة العناب رأيتها تشبه حقيقةً قلبَ ذلك الطير بهيئتها، ثم إنَّ هذه القلوب في حال يبسها وتقادم عهدها تشبه الحشف وهو التمر الذي تقادم عهده فيبس فلا ماء فيه ولا نُضْرة، فالمعنى المراد لا يدرك إلا بمثل هذا اللفظ ولا يستطاع بغيره والعناب ليس العنب؛ وإنما هو النبق ومنهم من يسميه السدر.

وهذا بابٌ عزيز نفيس ولا يحاط به لأنه موقوف على القول والقول لا ينقضي، فأنت حين تقرأ هذا الكلام ستجد في نفسك أمثلةً غير ما ذكرتُ لك.

ومـن المعانـي الـتي لا تصـل معانيهـا إلى درجـة البلاغـة إلا بألفاظهـا الـتي صيغـت بهـا ، قولهـم: [لـودا مـتُ لغـيرك ما وصلـت إليـك] ففـي هـذه الجملـة مـن معانـي التذكير بسـرعة زوال وتبـدل الأحـوال ما يقـرع القلـب ويقلـل تعلقـه بمـا هـو فيـه ، فكمـا أنَّ الأمـر وصل إليك بزواله عن غيرك فسيصل إلى غيرك بزواله عنك، فكن على حذر من أن يزول عنك اضطرارًا لا اختيارا ، أوأن يزول عنك وقد شـابتك منه شـائبة مشينة، وكثيرًا ممن تشبثوا بمسببات الجاه وقاوموا بالمكر والحيلة كل من يرون أنه ينافسهم ما هم عليه ، أقول كثيرٌ منهم سـاءت خاتمته حين حان تركه لهذا الموقع، فتركه كسيرًا ذليـلا ، ومـن ثـم تنغصـت حالـه وعـاش في ضيـق وهـم .

ومما لا يوصل إلى معناه إلا بما لفَظَـه البليغ المتحدث به، من هـذا قول عمران بن حطان حين أسره الحجاج وأمر بضرب عنقه فقـال عمـران : «أبعـد المـوت منزلـةٌ أصانعُك عليهـا ! ؟» ومعنـى قولـه: أنك إن قتلني فسـتفتقد كريمًا يستطيع مداراتك ويكف عن معاداتـك: وحـين سمعهـا الحجـاج خلّـى سـبيله .

فلو قال عمران غير هذا وهو يريد هذا المعنى لقصَّر ، ومن العجب الآخر أنَّ البلاغة كانت تجري منهم مجرى الدم فكيف فطن إلى هذا مع ما هو فيه من هول الموقف ، كما تدل على أثر هذه الكلمة في نفس الحجاج. رحم الله الجميع؛ وعندما اطلقه الحجاج طلب منه قومه أن يعاودَ القتال ، فقال قولاً يدخل في هذا الباب أيضًا ، فقال: [هيهات ! غلَّ يداً مطلقُها ، واسترقَّ رقبةً معتقُها] أي بعيدٌ أن أعاودَ القتالَ فقد قيَّد الحجاج يدي بالمعروف حين أطلقها ، واسترق رقبتي حين أعتقها .

ومن هذا قول عنترة من معلقته واصفًا ديار عبلة وخلوها من الأنيس:

فخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ غرِداً كفعلِ الشاربِ المترنمِ

هَزِجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِه قدحَ المكبِّ على الزنادِ الأجذمِ

هنا غوصٌ و قدرة تصويرية عجيبة فائقة للشاعر وهو يصف طربَ الذباب في تفردِها في ديارِ عبلة فهي في حالٍ من

الهزج والمرح ، وتكمنُ قدرةُ الشاعر في غوصِه على تشبيهه حركة ذراعي الذباب بحركة ذراعي رجلٍ أجذم(قصير اليدين) وهذا الرجل يحاول أن يوريَ نارًا من زناده ؛ ولتستجمعَ الصورة بذهنك وتمثلَها انظر بهدوء وتأمَّل إلى ذبابٍ يطنُّ ويطن وقد أمِنَ المنفّرين فستجده يحك ذراعًا بذراع ، وقد حنى رأسه قريبًا من ذراعِيه، هذه الصورة تشبه تمامًا صورة رجل قصير اليدين يحاول أن يوريَ زنادًا ، قد وضع رأسه بين ركبتيه حتى لا تعبث الريح بشرارته ، وهو يحاولُ قدح زناده هذه هي الصورة المرسومة لطرب الذباب حين يحك ذراعًا بذراع وهذا هو ما غاص عليه الشاعر وأمدته به هذه اللغة العظيمة، وكم تمنيتُ لو أنَّ عنترة مات على الإسلام لأترحمَ عليه .

ومن عجائب صيد اللفظ ودقته وأنه لا يُستطاع الوصول إلى المعنى المراد إلا بهذا اللفظ وبهذا التركيب ، أقول إنَّ من هذا قولَ قيس بن ذريح رحمه الله:

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيلَ يُغدى ... بليلى العامريةِ أو يراحُ

قطاةٌ عزَّها شركٌ فباتتْ ... تجاذبُه وقد علِقَ الجناحُ

فالمعنى الذي أراد الإخبار عنه ، هو حال قلبه حين علم بدنو رحيل ليلى مع أهلها ، فهو يضطرب اضطراب قطاةٍ وقعت في شَرَك وتعالج الخلاصَ منه فهي دائمةُ الحركة باضطراب ، أقول لك: استحضرْ حال قلبٍ قلق بسبب وقع خبرٍ محزنٍ أو مخيف ، فهذه الصورة تعبّر بصدقٍ عن هذه الحالَ ، ويضعُف ظني بأنك ستجد خيرًا من هذه الألفاظ معبرةً عن هذا المعنى، ثم التفتْ إلى قوله : «عزها « فهي بمعنى شق عليها ولكنها أنفسُ منها وأثرى في التعبير عن المراد، ولعل الصورة عند قيس تكون أبينَ حين نزنُها بصورة قلب عروة بن حزام :

تحمّلتُ منْ عفراءَ ما ليسَ لي بهِ ... ولا للجبالِ الرّاسياتِ يدانِ

كأَنَّ قَطاةً عُلِّقَتْ بِجَناحِهَا ... على كبدي منْ شدّةِ الخفقانِ

ولا مداناة عندي بين الصورتين وما حملهما من ألفاظ أدتْ المعنى؛ فالمعنى المراد واحد ولكنَّ ألفاظ عروة لا تداني ألفاظ قيس، فقيس مباشرةً يعطيك مراده: كأنَّ القلب قطاة «بخلاف عروة: كأن قطاةً عُلقت، كما أنَّ قطاة عروة على الكبد، بينما قلب قيس كأنه قطاة؛ والكبد لا يصار إليها بوصفٍ مثل هذا؛ فليس من المعهود أن يكون لها خفقان.

ومما يجري هذا المجرى، ما قاله خالد بن صفوان يصف شبيب بن شبة رحمهما الله: (ليس له صديقٌ في السّرِّ، ولا عدوٌّ في العلانية) قال هذا يريد أن يبين حقيقة علاقة الناس بشبيب، وأنها تقوم على المداراة والمصانعة لا على حقيقة ما في نفوسهم له، فهم أصدقاؤه حين حضرته بينما هم على خلافه حين غيابه.

ومما أرى أنَّ معناه لا يستطاع بغير اللفظ الذي قيل فيه، ما يروى أنَّ الحسين رضي الله عنه سأل الفرزدق رحمه الله عن أهل العراق فقال: (قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية) فهو أوجز وأبان

في حكمه على أهل العراق، بأنهم يقدّمونك ويرون أنك أحقُّ في الأمر وهواهم معك، لكنك لاتملك منَ القوة والمال ما تستطيع به استمالتهم.

ومن عجائب صيد اللفظ ودقته وأنه لا يُستطاع الوصول إلى المعنى المراد إلا بهذا اللفظ من هذا قول عثمان حين طلب منه أبو بكر رأيه في عمر ليوليه بعده فقال عثمان: (عمر سريرته خيرٌ من علانيّته) رضي الله عنهم أجمعين، فلا أظن أنَّ هناك حروفًا تستطيع نقل المعنى الذي أراده ذو النورين رضي الله عنه أجدر مما قال.

ومن هذا أنَّ عمر رضي الله عنه حين رأى كثرة الغنائم من بعض الغزوات قال: (إنَّ قومًا أدوا هذا لأمناء) كان علي رضي الله عنه معه فقال لعُمر: (عدلت فعدلت رعيك ولو رتعت لرتعوا)

ومن صيد اللفظ ما يروى عن المهلب بن أبي صفرة حين استنجزه الحجاج رحمهما الله، في حروب الخوارج فكأنه استبطأه في القضاء عليهم، والحرب سجال بين الفريقين، ولكن لم تحن الفرصة التي يريدها المهلب، فحين وصله كتاب الحجاج قال: (البلاء كل البلاء

أن يكون الرأيُ لمن يسمعُه لا لمن يراه) فالمهلب يرى والحجاج يسمع، ولا شك أنَّ من يرى أقدرُ على تقدير المواقف ممن يسمع ، ومنه أنَّ عمر رضي اللهُ عزل زيادًا رحمه الله، فقال له زياد : (أعن عجز أم عن خيانة ؟ فقال لا عن واحدةٍ منهما لكني كرهتُ أن أحملَ العامةَ على فضلِ عقلك) فقول الفاروق رضي اللهُ عنه: (كرهت أن أحمل العامة على فضل عقلك) فيها اختيار محكم لألفاظٍ أدت المعنى المراد؛ فعقل زياد له مطلبٌ يَثقُل على عامة الناس الصبرُ عليه ؛ كما أنَّ في كلمة الفاروق بالإضافة إلى التعبير عن المعنى المراد فيها تطييب وطمأنةٌ لزياد .

ومما هو مستحقٌ للتنبيه إليه أنَّ جمال الأسلوب لا يؤخذ من الكتب التي تعلم الأفصحَ والفصيح ولا من الكتب التي تَهدي الكاتب إلى أن يقول كذا إذا أراد كذا فهذه كتب قواعد ، أما اقتباس جمال الأسلوب فيؤخذ من قراءة ما كتبه البلغاء حين يريدون وصفا أو شرحا ، حين يردون على مخالف؛فالمعول على ما يختارونه من ألفاظ يفصحون بها عن معانيهم فإدامة النظر بكتبهم تغذي البيان

حتى تجعلَك من أهل الطبع فيه ، فتؤخذ وتُحتذى فالتعبير عن المعنى هو ما يوزن به الجمال؛ وحين يقرأ الإنسان لكاتب ما فيحس إحساسًا غيرَ مستجلب أنَّ هذا الكاتب يحدّث عن نفسٍ القارئ ومشاعره وحين يتمكن الشاعر أو الكتاب من الحديث بلغة ولهجة يصدق عليها أنها نفَّست عن الجميع وتحدثت عن مكنونهم هنا يكون قد وصل إلى الفحولة والريادة ، ولا يبلغ هذه الغاية إلا خبارٌ من خيار .

وحين يوفق محللُ النص إلى نقل مشاعرَ خفية لصاحب النص هو نفسه أعني قائل النص قد لا يعلم أنه يحس بها ، حين يصل إلى هذا يكون اجتاز القنطرة في تحليل النص والتغلغل بين ألفاظه .

والمعاني كما قال أبو عمرو الجاحظ رحمه الله : (مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي،البدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ)أهـ فكل إنسان يسعى إلى أن يعبر عما في نفسه ، لكن بماذا سيكون تعبيره ، فمنهم من يعلو ومنهم من هو دون ذلك ، هذا هو الميزان، وعندما نقرأ للزمخشري رحمه الله في

كتابه أساس البلاغة فإننا نستفيد من مقدمة كتابه جمال الأسلوب خلاف ما نستفيده من متن الكتاب فهو كتاب تقعيد ، ومن هذا ما جمعه هو أيضا تحت عنوان « الكلم النوابغ « يدخل تحت ما يستفاد منه في جمال الأسلوب ، وكذلك كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة رحمه الله فإننا نجد في كلامه في المقدمة من الإثراء في جمال الأسلوب ما لم نجده في المتن ، ومن هذا كتاب « نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد « لإبراهيم اليازجي، وهذا الكتاب عرَّف المؤلف غايته بأنه: « معجم معانٍ لأداء المفاهيم التي لا تحضرك الألفاظ الدقيقة للتعبير عنها « ومن جميل ما جاء في مقدمته: (. . . والتلاعب بقوالب اللفظ لإبراز المعاني حاسرةً دون قناع) ثم قال عن منهجه : (. . . بأن أجمع لهم من مترادفات ألفاظ هذه اللغة وتراكيبها ، ما يجعل نادَّها منهم على حبل الذراع)

وقرأت في مقدمة ابن خلدون ــ رحمه الله ــ ص ٣٢ مقولة: (ونفيُ العيبِ حيثُ يستحيلُ العيبُ عيب) وهي مما يدخل في هذا الباب، أَي من باب صيد اللفظ ودقته ، ومؤداها أَنَّ الأمر

إذا تناهى عند الناس سلامته من العيب، فإنَّ الإطناب والتوسع في نفي العيب عنه يؤدي إلى العيب، فكأنَّ النافي يشكك الناس بصحة ما ثبت ، وهذه المقولة منسوبة إلى الجنيد رحمه الله عن قوم من المتكلمين ، قيل له إنه ينزهون الله بالأدلة ، والمقصود بالعيبً المنفي في كلمة الجنيد ، ما كانت تطلقه بعض الفرق في نفيها العيب عن الله سبحانه وتعالى بألفاظٍ لا تليق بجلاله، يطلقونها متوهمين أنهم ينزهون الله عن العيب، ومن هذه الإطلاقات قولهم عن الله جلَّ وعزَّ: « . . . ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا بذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة . . . » فالله سبحانه منزهٌ عن كل عيب متفردٌ بالكمال والجمال والجلال والعظمة وله العزة جميعا ؛ والجنيد المذكور هنا غير الجنيد الكاتب ، الذي له أبيات هي مما نحن منه بسبيل حيث يقول حين ضعُفت خلافة بني العباس:

خلافةٌ جائرة فاسدةٌ ما تبتغى

صاحبها محتجب يفرق من حرّ الوغى

خليفةٌ في قفص بين وصيفٍ وبَغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغاء

و» وصيف وبغا « هما من القادة الأتراك زمن الخلافة العباسية ، قتلا المتوكل ، ونصَّبا المنتصر والمعين

ومن لطائف صواب الاستشهاد، ما قاله بن الأثير رحمه الله في كتابه « كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والناثر» : « ولا يتأتى الأدب إلا لمن ألقى بصحراء الأدب بعاعَه فانقادت له أمته حين مد إليها باعَه « وهو يشير إلى بيتٍ في معلقة أمرئ القيس:

وأَلْقى بصَحْراءِ الغَبيطِ بَعاعَهُ نزولَ اليماني ذي العيابِ المخوَّلَ

والبَعَاع الثقل ، وأمرؤ القيس يصف كثرة تدفق المطر، والغَبيطِ موضع، ومقصودُ ابنِ الأثير حثّ الأديب على الإكثار من التزود بجيد الكلام . » نزول اليماني ذي العياب المخوَّلَ « أي نزول التاجر القادم من اليمن، العياب جمع عَيبة وهي الحقيبة، المخول الذي له خدمٌ يخدمونه، فكأنَّ المطر حين اجتمع بصحراء الغبيط،

وألقى ما حمله في طريقه في هذه الصحراء كأنه تاجر يماني نثر ما في حقائبه من زينة الملبوسات .

ومما أحب أن أشير إليه هنا أن أقول لك : دع عنك ألفاظًا من نحو: « تماهي « وأخواتها من مثل « تسطيح « « تناصّ « « براغماتية « « تنغيا « وهي ألفاظٌ تجري على أقلام بعض الكتبة الذين يكتبون عن النقد ؛ فإنها عندي غثةٌ ثقيلة تسد النفَس .

مدارسة تحليلية

وهذه كلمةٌ وردت في ص ٤٦٤ وما بعدها من كتاب دلائل الإعجاز قرأه وعلَّق عليه أبو فهر /محمود محمد شاكر؛ ولي معها وقفةٌ تحليلية.

(واعلمْ أَنَّ القولَ الفاسِدَ والرأيَ المدخولَ إذا كان صَدَرَهُ عن قومٍ لهم نَباهةٌ وصيتٌ وعلوٌّ منزلةٍ في نوعٍ من أنواعِ العلوم غيرِ العمل الذي قالوا ذلك القولَ فيه، ثم وقَعَ في الألْسُن، فتداولتْه ونَشَرَتْه، وفشَا وظَهَر، وكَثُرَ الناقلون له والمشيدون بذكره صار وترك النظر فيه سنة، والتقليد دينا . . . . . . ، لربما -بل كلما- ظنوا أنه لم يَشِعْ ولم يتسع ولم يروه خلفٌ عن سلف إلا لأنَّ له أصْلاً صحيحاً، وأنه أُخذَ من معْدِن صدقٍ، واشتُقَّ من نَبْعةٍ كريمةٍ، وأَنه لو كان مَدْخولاً لظَهَر الدَّخَلُ الذي فيه على تَقادُمِ الزمان وكرورِ الأيام. وكمْ من خَطإٍ ظاهرٍ ورأْيٍ فاسدٍ حظيَ بهذا السبَبِ عندَ الناس . . . ولَوْلاً سلطانُ هذا الذي وصفتُ على الناس، وأَنَّ له أُخْذَةً تَمنعُ

القلوبَ عن التدبُّر، وتقطعُ عن دواعيَ التفكُّر لَمَا كان لهذا الذي ذَهَب إليه القومُ في أمر «اللفظِ» هذا التمكُّنُ وهذه القوة وكيف لا يكونُ في إسار الأُخْذَة، ومَحُولاً بينهم وبين الفكرة، ومن يُسلِّمُ أنَّ الفصاحةَ لا تكونُ في أفرادِ الكلمات، وإنما تكونُ فيها إذا ضُمَّ بعضُها إلى بعْض، ثم لا يَعْلَم أنَّ ذلك يَقْتضي أنْ تكونَ وصْفاً لها مِن أجْلِ معانيها، لا مِنْ أجْل أنفُسِها، ومِنْ حَيثُ هي ألفاظٌ ونطق لسان؟)

قلت: وهذه كلمةٌ نفيسةٌ أحببتُ الوقوف عندها؛ وأراها زفرةً نفثها عبد القاهر رحمه الله؛ وتكاد تكون بل هي كانت من الخُلُق الذي تتقارضه وتتعاقب عليه أجيالٌ من البشر؛ فهناك أقوالٌ فاسدة لا تُعزى إلى دليل مستقيم لكنها يُسلَّم لها كثيرٌ ممن قرأها أو سمع بها وتُؤخذُ دِينًا يجب تصديقه؛ ومقطعُ الدليل عند من سلَّم لها أنها صادرةٌ من رجلٍ عُرف عنه العلم بفن من الفنون؛ وتصدَّر الناسَ وهابوا النظر فيما يقول فقطعوا بصوابٍ كل ما يقوله بفنه؛ ولكنه دخل على علمٍ قلَّتْ بضاعته فيه ولا يملك

آلتـه، فخطف منه خطفةً جعلتـه يظن أنه أصبح من أهل ذلك العلم فحين أمسك زمام الفتوى ؛ أفسد العلم وأفسد من أخذ بقوله؛ ثم هم ـ أعني الآخذين ـ لا يقفون عند الأخذ والتسليم وإنما يردون كل من قال بغير ما ذهب إليه قدوتهم ؛ وقوله : «صار وترك النظر فيه سنة، والتقليد دينا « أي أنَّ هؤلاء النَقَلة بسبب استفاضة قولهم جعلوا الناس على يقن بصواب ما قالوا ؛ وأنَّ تجافيَ السامعين عن الشك يجب أن يكون مسلَّمًا به ومذهبًا لا يعدل به غيرُه؛ وأنَّ السير على قول من قال يجب كذلك وجوب أمور الدين؛ ثم إنَّ من الدليل الذي لا يستقيم والفهم المفضي إلى العِوج أنهم رأوا أنَّ تعاقب الرواية لهذا الخطل براوية الآخر عن الأول هو مما يُؤيد رجحان هذا القول الفاسد ولزوم الأخذ به ؛ وقوله : « وأنَّ له أُخْذَةً تَمنعُ القلوبَ عن التدبُّر، وتقطعُ عن دواعيَ التفكُّر « أي له منزلةٌ أخذت قلوب من سمع حتى عَمُوا عن الحق مُخلدين إلى صدوره من فلان دليلاً قاطعًا ؛لهيبةٍ له تمنع ردّ قوله؛ وكأنهم لطول الإلف والتسليم لأقوال هذا قد غُيّبوا عن عقولهم فلم يستطيعوا النظر في صواب ما سمعوا .

ويبقى الناس على هذا الحال حتى يؤولَ الأمر إلى ما قاله عبد القاهر نفسه في أسرار البلاغة حين تحدث عن مراتب الكلام وأنَّ منه ما هو معجِبٌ لبريقه لا لمزيةٍ به: (حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها، وضامت الحادثات أربابها، وفجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب بالصنعة وجمالها المستفاد من طريق العرض، فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير، والطينة الخالية من التشكيل سقطت قيمتها، وانحطت رتبتها، وعادت . . . وصارت كمن أحظاه الجَد بغير فضل يرجع إليه بنفسه، وقدمه البخت من غير معنى يقضي بتقدمه ثم أفاق فيه الدهر من رقدته، وتنبه لغلطته فأعاده إلى دقة أصله وقلة فضله)

وإلى ما قال شاكر في مقدمة الأشموني: (حتى يأتي العصر الذي يشرق فيه عقلٌ آخَر يزيفُ ما صحَّحوا؛ فيصرفهم عمَّا كانوا فيه من عماية وضَلالٍ، وهذا مرض قديم في العقل الإنساني، لم يبرأ منه مرَّةً واحدة على مَدارج التاريخ كلها)

وشاكر ممن اكتووا بهذا الداء حيث قال عما كان بينه وبين طه : (وأغراه بذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته ، وما يعلم مما نحن فيه من الخفاء والصمت وقلة الاكتراث بالدعاية الملفقة لأنفسنا)

توشية

إذا كنت تبحث في مسألةٍ علمية وأمامك عددٌ من المراجع والمصادر ، ثم رأيتَ أنك ما تكاد تدخل في مرجع حتى تؤمِّلَكَ نفسك بالتماس المسألة في الآخر، تؤملك قبل أن تكونَ استكملتَ البحث والتقصي في المرجع الذي بين يديك، هنا اعلم أنك مضطرب ولا أظنك في حالتك تلك ستصل إلى رأي صائب ، وقد وجدت في نفسي حين كنت أبحث في مسألةٍ من مسائل كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام رحمه الله ، وما كنت أحسب أني سأجد فيها من الاضطراب وتأخر الفهم ما وجدت، فتركت البحث فيها متشاغلا بما لا علاقة له فيها ، ثم عدت إليها ففهمني الله ما استغلق علي قبل قليل فالحمد لله .

الفصل الثالث

عن منهج التذوق

وهو أخصُّ ما ينسب إلى محمود شاكر ؛ وأظنه من آثر آثاره عنده ؛ وهو منهجٌ اتخذه لإقامة دراساته ، واطمأنَّ إلى نتائجه ؛ وصار دليلاً يقطع بما يوصله إليه ؛ ووضع له مقومات يسير عليها منها أنه قائمٌ على الاستقراء الموسَّع للشأن الذي يريد دراسته؛ و الإبصار الثاقب والغوص في حنايا النصوص و الاستحضار الذهني لمجموع ما قُرئ و القدرة على الربط بين ما تؤديه النصوص فقد ينفي بعضها بعضًا أو يثبته؛ ورأيته من خلاله يجمع الشذرات المتناثرة عن الشأن الذي يبحث فيه، ثم يؤلف بينها بِعقدٍ ينظمها فتشخص دليلاً مكتملَ الأعضاء يرى القول به نفيًا أوإثباتا .

كانت ولادة هذا المنهج بالنسبة له من رحم قراءاته الموسعة للتراث يقول ص ٦ و٧ من « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا « (. . . ويومئذٍ طويت كلَّ نفسي على عزيمةٍ حذاءَ ماضية . . . بدأت بإعادة قراء الشعر العربي كله، أو ما وقع تحت يدي يومئذٍ على الأصح قراءةً متأنية طويلة الأناة عند كل لفظٍ ومعنى . . . وكأني

أقلبهما بعقلي وأروزهما « أي : أزنهما مختبرا « بقلبي وأجسهما جسًا ببصري وبصيرتي . . . ثم أتذوقهما تذوقًا بعقلي وقلبي وبصيرتي وأناملي كأني أطلب فيهما خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته ، وأتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوًا . . . سخَّرتُ كل ما فطرني الله عليه . . . وكل ما يدخل في طوقي . . . كل سليقةٍ فُطرت عليها ، وكل سجيةٍ لانت لي بالإدراك لكي أنفذ إلى حقيقة» البيان الذي كرَّم الله به آدم عليه السلام وأبناءه من بعده . . .

فأخذت أهبتي لتطبيق هذا « التذوق « على كل كلام ، ما كان هذا الكلام؛ فأقدمت إقدامَ الشباب الجريء على قراءة كل ما يقع تحت يدي من كتب أسلافنا)

قراءتنا هذه البداية تضع أيدينا على المنهج والغاية؛ فمنهجه [. . . قراءةً متأنية طويلة الأناة عند كل لفظٍ ومعنى . . . قراءة كل ما يقع تحت يدي من كتب أسلافنا] وغايته : [. . . أطلب فيهما خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته ، وأتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوًا . . . لكي أنفذَ إلى حقيقة» البيان «]

وقوله : « أخفاه الشاعر الماكر « هذه ملاطفة خطها وهو منبسط الأسارير وأُحسُّ أنه كتبها وكأنه يمازح شاعرًا أمامه .

قال في ص ١١ من كتابه « المتنبي « : (وبهذا التذوق المتابع الذي ألفته ، صار لكل شعر عندي مذاق وطعم ورائحة ، وصار مذاق الشعر الجاهلي وطعمه وشذاه ورائحته بيِّنًا عندي بل صار تميُّز بعض من بعض دالاً يدلني على أصحابه) مما يقصده بمنهج التذوق اكتشاف الخصائص المميزة لشعر عصر من العصور؛ وهذا يتطلب إطالة القراءة والاطلاع على شعر كلٍ عصر حتى يتمكن الشخص من تكوين ذوق تأصيلي في نفسه؛ فبهذه القراءة يمكنه التفريق بين الآثار الأدبية فينسبها إلى عصرها أو إلى مُنشئِها ؛ لأن إدمان النظر يغذي السليقة على التفريق بين عصور الآثار وبين التفريق بين أصحابها ؛ فتكون هي الحكم على عزو النص إلى قائله أو عزوه إلى عصره؛ ومما يرمي إليه استنباط خبايا داخل النص ، وقال في ص ١٧ من كتابه « المتنبي « (. . . صارفًا همي كله إلى موضوع « المنهج « و « الشك « وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلي

والأموي والعباسي قراءة متذوقة مستوعبة ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلي والإسلامي) .

فإدامة القراءة تفضي إلى التذوق فينبي منها ملكةٌ تستقيم ويشتد عودها ؛ وفرق ما بين التحليل والتذوق أنَّ التذوق يجعل الناظر في النصوص قادرًا على تمييز عصر هذه القصيدة ؛ ذلك لأنه يمكن من معرفة الخصائص التي تميز بها شعر فترةٍ من الفترات؛ كما أنَّ إدامة قراءة الشعر لفلان يتولد منه عند الناظر ملكةٌ تميز الخصائص المميزة لهذا الشاعر؛ فالتذوق ـ بهذا المعنى ـ حين يتمكن منه الشخص أرى أنه يخدم الرواية والتاريخ أكثر مما يخدم النقد؛ فالمتذوق يصل إلى حقائق علمية لا علاقة لها بجمال أو قبح النصوص، كما في قضية نسب المتنبي وقرمطيته فهي حقائق لا يربطها رابط بمراد النقاد من تلمس البلاغة في النص؛ والتحليل هو الذي منه وبه تُستنبط الخبايا المندسة داخل الألفاظ؛ فالمحلل لديه الجانب الجمالي والنظرة البلاغية .

وقد علقت على كتابه «المتنبي « ما يفيد أنَّ هناك تداخلاً بين منهج التذوق وبين المنهج التحليلي ؛ فكلاهما يرمي فيه الناقد إلى استخراج ما تخفيه النصوص، قلت هذا الرأي جازمًا ثم ثبتت عزيمتي عليه حين وجدت ما قاله في الجزء الثاني من كتاب «جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر» نشرة مكتبة الخانجي بعناية الدكتور عادل جمال ج٢ ص ١١٨٣ ـ ١١٨٤ قال وهو يتحدث عن أثر قراءته لكتابَيْ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله [أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز] : (. . . ولما رأيته استطاع بتحليل الألفاظ والجمل والتراكيب أن يجعلها تكشف اللثام عن أسرار المعاني القائمة في ضمير منشئها فأزال إبهام « البلاغة « ظننت أنه من المستطاع أيضا بضرب من تحليل الألفاظ والجمل والتراكيب أن أصل إلى شيْ يهديني إلى كشف اللثام عن أسرار العواطف الكامنة التي كانت في ضمير منشئها فأزيل إبهام « التذوق « ؛وإذا كان تحليله ـ يعني عبد القاهر ـ قد أفضى به إلى أن جعل « الكلام « ونظمه جميعًا دالاً على صورة قائمة في نفس صاحبها نفسه؛فعسى أن أجد أيضًا

في ضربٍ أو ضروبٍ من التحليل ما يفضي إلى أن أجعل « الكلام « ونظمه جميعًا دالاً على صورة صاحبها نفسه.) قلت: وجليٌ هنا أنَّ ما فهمه الشيخ من منهج عبد القاهر عائدٌ إلى التحليل؛ فهذا نص صريح بأنَّ التحليل يفضي إلى التذوق.

وقال وفي ص ٢٠ من كتابه « المتنبي « يُبينُ الفرق بين إحساسه بالشعر الجاهلي ومعانيه عندما كان يكتب عن التذوق بلا منهج : (وجدت يومئذٍ في الشعر الجاهلي ترجيعًا خفيا غامضًا كأنه حفيف نسيم... وكان هذا الترجيع الذي آنسته مشتركًا بين شعراء الجاهلية) وحين جعل التذوق منهجًا يسير عليه: (... فأداني طول الاختبار والامتحان والمدارسة إلى هذا المذهب الذي ذهبت إليه حتى صار عندي دليلا كافيا على صحته وثبوته فأصحابه « يعني أصحاب الشعر الجاهلي « الذين ذهبوا ودرجوا... رأيت شابهم ينزو به جهله وشيخهم تدلف به حكمته ورأيت راضيهم يستنير وجهه حتى يشرق وغاضبهم تربَدُّ سحنته حتى تظلم... ورأيت الفارس على جواده والعادي على رجليه...

حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس وبحة المستكين وزفرة الواجد) ثم يمضي معددًا ما اكتشفه من تذوقه حتى يقول واصفًا هذا المنهج : (. . . وأنه تذوق قائم على منهج مرسوم له أسلوب آخر في استبطان الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعاني، ثم استدراجها ومما سحتها وملاطفتها ومداواتها حتى تبوح بدخائل منشئيها ومخبآت صدورهم) قلت : وهذا كله يؤيد أنَّ نتائج التذوق تؤول إلى التحليل .

كما كتبت قبل سنوات تعليقًا في ص ٥١ من كتابه المتنبي قلت فيه : (التذوق الذي يعنيه الشيخ أبو فهر رحمه الله، ليس التذوق المفضي إلى تمييز جيد الكلام من رديئه ، وغثه من سمينه فليس هو المقصود عند أهل النقد والبلاغة ؛ وإنما هو يعني استنباط ما يدل عليه الأسلوب من حقائق لذلك تجده يبني على « تذوقه « أحكامًا ويجعل نتيجته برهانا يثبت بها وينفي ؛ ولا يتعرض لجمال الأسلوب أو قبحه ؛ ومما يدل على أنَّ التذوق يصير إلى الاستنباط والتحليل ما قاله في ص ١٥ : (. . . فمنهجي في « تذوق الكلام « معنيٌّ كل العناية

باستنباط هذه الدفائن، وباستدراجها من مكامنها ، ومعالجة نظم الكلام ولفظه معالجةً تتيح لي أن أنفض الظلام عن مصونها ، وأميط اللثام عن أخفى أسرارها وأغمض سرائرها) وما قاله ص ٤٨ : (إلا أنَّ عمود هذه الصورة لم ترسمه تراجم المتنبي وأخباره الكثيرة، بل رسمها وحددها تذوق شعره ، واستنباط معانيه ودلالته على شخصية أبي الطيب)وما قاله ص ٥٧وما بعدها عن تذوقه: (. . . وجعلته مهيمنًا على الأخبار . . . بل في نقد الأخبار أيضًا بإدراك دلالتها على فساد نية رواتها أو سلامة هذه النية . . . منهجي في التذوق يفضي إلى كشف الحجب عما طمره غبار السنين ؛ وما يستره تكذُّب الرواة ذوي الأهواء . . . كانت « علوية « أبي الطيب فرضًا فرضته . . . وكان التناقض ظاهرًا بين شخصيته التي يكونها تذوق شعره ، وبين شخصيته التي يدل عليها تذوق أخباره . . . وهي أحداث لا نكاد نجد في تراجمه خبرًا يدل عليها ؛ وإنما يستنبطها التذوق . . . وهذ الذي استنبطته بالتذوق كان كثيرًا جدًا . . . ترك آثاره مكظومة في ألفاظ شعره، يتبينها

المتـذوق مـن وراء الحجـب) إذن فالاسـتنباط منتـجٌ عـن التـذوق؛ وقولـه: (وجعلتـه مهيمنًـا على الأخبـار) هـذا مـا قلتـه قبـل قليـل عـن الفـرق بيـن التـذوق والتحليـل.

فهـو قـد اسـتقر عنـده أنَّ التـذوق يفضـي إلى التعـرف علـى خبايا ومكنونات داخل النص، واسـتقر عنده هـذا الرأي حين رأى أن التحليـل قـاد عبـد القاهـر إلى هـذه النتيجـة.

قـال في ج٢ ص١١٣٣ مـن جمهـرة مقالاتـه: (البـأس يحتـدم احتدامًـا حـين تعـد معنـى اللفـظ العـاري وهـو» التـذوق «عنـدي، مطابقًـا تمـام المطابقـة لمعنـى اللفـظ المتأنـق عنـدك، وهـو «التـذوق الفـني الجمـالي» ثـم ذهـب إلى تأصيـل الـذوق والتـذوق لغويـا، والفـرق بـين الـذوق والتـذوق في الحقيقـة والمجـاز، وقـال في الجمهـرة ج١ ص ١٤٥: (. . . فكـون لفـظ «التـذوق» معلقًـا بلفـظ «الشـعر» مـن حيـث هـو نغـم في أحرفـه وكلماتـه، لا أكثـر ولا أقـل . . . وهـذا بـلا ريـب، ليـس إلا جـزءًا يسـيرا جـدا ممـا نعنيـه حـين نقـول «تذوقـت الشـعر» قلـت: إنَّ الغايـة الـتي يرمـي إليهـا مـن «تذوقـت الشـعر»

أرقى وأدق من التوقف عند الاستمتاع بنغمه وحروفه؛ فهو يريد من التذوق أن يحلل ثم يستنبط خفايا داخل الألفاظ؛ وقال ص ١١٤٦: (أراه لزاماً أن نريح هذين اللفظين « تذوقت الشعر « . . . أن نرفه عنهما بتنكُّب طريق التدبر والتأمل والتحليل) قلت: فهذا هو مآل التذوق وأنا لا أعلم ولا أدري لماذا قال به وأغفل مآله؛ فإنَّ هذه المناهج أعني التأمل والتدبر والتحليل مما جرت به أقلام النقاد ومحللي حوادث التاريخ وأخباره والتدرج الذي فهمته: هو تذوق ثم فهم ثم تحليل ثم إظهار؛ فالنص الذي بين يدي الدارس مقفل المرادات خفيُها، فيدخلها الدارس بالتدرج المذكور.

قال في ج٢ ص١١٥٦ من الجمهرة: (ولكن أحدنا، إذا هو أطال تأمل ما يختلج في نفسه حين يسمع مثلا شعرًا بارعا أو يعيد ترديده في نفسه أو يقرأ على مكث مرة بعد مرة فإنه واجد وجدانًا خفيًا حركة خفية من عمل هذه القدرة نابضة في أقصى نفسه) فهو أحال على التأمل بتمثل المعنى المراد؛ فما داعي التذوق؟

ص ١١٦١: (فمنذ بدأت قديمًا في تدبر هذه الآية... لم أزل أزداد على تدبرها وتأملها دهشة متصلة...)

لاحظ أنه قال: «بتدبر.. على تدبرها وتأملها» ولم يقل بـ«تذوق» مما يؤيد أنَّ ما يؤول إليه الفهم بمنهج «التذوق» هو ما يؤول إليه بالتدبر والتأمل.

في ج٢ ص ٦٨٣ من الجمهرة قال عن كتاب «النثر الفني في القرن الرابع عشر» تأليف الدكتور زكي مبارك: (... والواقع أني قرأت الكتاب فلم أعثر فيه على حدّ أو تعريف لما سماه النثر الفني وكلما أردت أن أجمع له حدًّا أو تعريفًا من معنى كلامه وجدت في غيره من معاني كلامه ما يتفارط عنده ما جمعت له من الرأي) هذا الكلمات أراها تعبر عني حين أردت أن أعرّف ثم أضع حدًا قاطعًا لمنهج «التذوق» فكلما حاولت أن أجد فرقًا أضعه لـ«التذوق» آل الأمر إلى التداخل بين التذوق والتحليل أو التذوق والاستنباط أو التذوق والتأمل فأعياني الأمر بسبب ما أجد في كلامه بأنَّ المآل إلى الاستنباط والتحليل والتأمل والتدبر؛ وقد قرأت المقالتين التي أشار

إليهما وهما في كتاب الجمهرة من ص١١٢٨ ـ ١١٨٩ ، وقال في هامش ٢ من ص ٦ من « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا »: (وقد حسمت قضية التذوق ولم سميت منهجي منهج التذوق) ثم أشار إلى هاتين المقالتين، فإن أنا لم أضع حدًا بينًا لمقصوده بالتذوق، فإني أجزم أنَّ مآله إلى التحليل ونحوه ؛ لكني لم أجد ما دعاه إلى أن يؤثر التذوق على التحليل .

أعود إلى النثر الفني فهو رديف للنثر الجمالي، أقول هذا بتذكر مناقشة لرسالة علمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ؛ قبل ما يقرب من خمسة وأربعين عاما كان المشرف عليها الدكتور بدوي طبانة رحمه الله؛ فسأل أحد المناقشين الطالب عن المقصود بـ [الجمالي الفني] فلم يجب ؛ وعندما حان تعقيب الدكتور بدوي قال : الفني هو الجمالي أو قريبًا من هذا ما قال .

وكنت قبل سنوات وقبل أن أُعنى بدارسة منهج « التذوق »وضعت بحثًا بعنوان : « نظرات في سر العربية « ومما وقفت عنده هناك بالتحليل ـ الذي أرى أنَّ مآل التذوق إليه ـ من هذا

بيتان لطرفة بن العبد :

إِذا القَومُ قالوا مَن فَتىً خِلتُ أَنَّني عُنيتُ فَلَم أَكسَل وَلَم أَتَبَلَّدِ

أَنا الرَجُلُ الضَربُ الَّذي تَعرِفونَهُ خَشاشٌ كَرَأسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

وكان مما قلت: إنَّ المعنى الذي زحف إليه طرفة نالهِ بلفظ معبر عن حال العربي الذي اعتاد أن يُستصرَخ ويُستغاثَ به في كل ساعة؛ فقوله : [إذا القوم] يصور المفاجأة بالمكروه ؛ وقوله:[من فتى] أوحت في الإسراع في طلب النجدة ؛ وصوغ الاستصراخ بهذا الاستفهام فيه ملمحٌ يدل على اضطراب الحيلة وطيشها وشدة الكرب الذي لا يدفعه إلاذو فتوة؛ وهذا التركيب رحبٌ سخي فأنت تقرأه وكأنك تستحضر الصورة المضطربة التي أظلم بها الموقف ، فهو ناقل للصوت والحركة ، بل إنك إن استجمعت الصورة في ذهنك وأصغيت إلى مكوناتها من الحروف فسترى يديَّ المستغيث تستحثانِ من حوله وتسمع صوته أيضا .

وقوله [خِلتُ أنني عُنيت] ظنه بنفسه هذا الأمر وأنَّ الاستنجاد موجهٌ إليه خاصة، يفيد الإفصاح عما تمكن في نفسه

من حب النجدة فقد اعتاد سماع المستصرخين به ، لذلك طرح الكسل . : [ولم أتبلد] البلادة يراد بها هَوَان الحس ورقة النخوة المؤديان إلى التثاقل في إجابة المستصرخ. وهذا التحليل للبيتين يبين ما يضمره الشاعر من معانٍ يراها من نفسه من النجدة والإقدام ونحوهما؛ وإبراز الصورة والحركة جاء من استخدامي المنهج التحليلي وهو المآل الذي يؤول إليه استخدام منهج التذوق .

وقال في ج٢ ص ١١٧٠ من جمهرة المقالات : (وبعد فأنت ترى أني آثرت لفظ « التذوق « على لفظ « الا ستبانة « لكي أدل به على ما تتولاه تلك الحاسة السادسة فينا ، من تطلب الآثار العالقة في الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعاني الناشبة في حواشيها وأغوارها والتي تدل دلالة ما على ما في ضمير صاحبها . . . بل تدل أيضًا على الهيئة والسمت والحركة وسائر السمات الظاهرة والخفية ؛ ومعنى ذلك أنَّ « الكلام « محمل بدلالات مميزة تجعل صاحبه متفردًا بخصائصه عن سائر إخوانه من البشر المتكلمين) قلت : وهذا الإيثار الذي حظيَ به « التذوق

« نرى أنَّ دوافعه من الممكن أن نصل إليها بالمنهج التحليلي؛ وقد عرَّف مقصوده بالاستبانة في ص ١١٨٦: (والإبانة هي قدرتها على إنشاء الكلام . . . والاستبانة هي قدرتها على تفلية « الكلام » وجسه والتدسس في طواياه) ثم قال في ص ١١٨٧: (وأظنه صار قريبًا ممكنا أن نتخطى كلاما كثيرًا ونفضي إلى نتيجةٍ موجزة هي أن « التذوق » يقع وقوعا واحدا في زمن واحد على كل « كلام « بليغا كان أو غير بليغ ثم يفصل عن « الكلام « ومعه خليط « واحد «ممزوج متشابك غير متميز بعضه عن بعض وفي هذا الخليط أهمُّ عنصرين .

العنصر الأول ما ستخرجه التذوق من العلائق الباطنة الخفية الناشبة في أنفس الأحرف والكلمات . . . نستخلص منه ما يحدد بعض الصفات المميزة التي تدل على طبيعة منشئ الكلام . . . والعنصر الثاني ما استخرجه « التذوق « من العلائق الظاهرة بين أنفس الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعاني . . . نستخلص منه ما يحدد الصفات المميزة التي تدل على طبيعة

الكلام نفسه) قلت: مؤدى التذوق استخراج العلائق بين حروف النص؛ فالتذوق في عنصره المتعامل مع منشئ الكلام يكون أحكامًا عقلية على النص نستخرج بها دلائل على منشئ الكلام في حياته وعلاقته بمن حوله؛ والتذوق في عنصره المتعامل مع الكلام يكون بإعمال الوجدان لإظهار مواطن الحسن والقبح؛ وظاهرٌ أنَّ مؤدى النص إلى التحليل.

وقال في كتابه المتنبي ص ٤٨: (إلا أنَّ عمود هذه الصورة لم ترسمه تراجم المتنبي وأخباره الكثيرة، بل رسمها وحددها تذوق شعره واستنباط معانيه) وفي ص ٢٠٦ عند حديثه عن ردِ نبوة المتنبي: (. . . وبصَّرت القارئ بالتوائها وضعفها ووَهَنها، وبأتيه ما استنبطناه وقد وقر في نفسه رد هذه المقالة التي يُنبز بها أبو الطيب)

ثم قال عن علوية أبي الطيب: (بينا لك فيما مرَّما بين أبي الطيب وبين العلويين وأنَّ صاحبنا كان له عندهم ثأرٌ قديم هو الذي أردا أن يدركه فيهم وينال حقه منهم ورجح عندنا الاستنباط أن

يكون أبو الطيب « علويًا » فمنهج التذوق آل إلى الاستنباط في أخصّ قضيتين دار حولهما الكتاب .

وقال في ص ١٩٠ : (. . . وإنما عملُنا الاستنباط من قليل شعره الذي قيل في صباه واستخراج الأصول النفسية منه)

ومن أدلّ ما رأيت أنَّ مآل التذوق إلى التحليل قوله في ص ٣٨٩ من كتاب أباطيل وأسمار : (: أفليس من حق الناقد ، أوَ ليس من واجبه أن يحلل ألفاظ الكاتب وأسلوبه وطرائق تفكيره وترابط عباراته وجمله حتى يتمكن من إعطاء «صورة» كما يراها هو لا كما يراها الناس ؟ أليس هذا صحيحًا ؟ أُظنُّ أنْ نعم ! وإذن فتحليل «المادة» وإعادة تكوين الصورة أمر لا مفر منه)

وهناك كتاب للعقاد ــ رحمه الله ــ اسمه : «ابن الرومي حياته من شعره ، الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي قال في التمهيد : (ولكننا إذا نظرنا في ديوانه وجدنا مرآة صادقة ووجدنا في المرآة صورة ناطقة لا نظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء ، وتلك مزية

تستحق من أجلها أن يُكتب فيها كتاب. . . . إن الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءًا من حياته أيًّا كانت هذه الحياة . . . فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه، يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان، ولا يخفي فيها ذكر خالجةٍ ولا هاجسةٍ مما تتألف منه حياة الإنسان) ونحن إذا نظرنا في كلام العقاد وجدناه يمثّل المنهج الذي سماه شاكر منهج التذوق؛ فالعقاد يريد أن يستقرئ شعر ابن الرومي ليصل إلى : « . . . فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه، <u>يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان، ولا يخفي فيها ذكر خالجةٍ ولا هاجسةٍ مما تتألف منه حياة الإنسان «</u>

ومن استنباطات العقاد التي تتوافق مع منهج شاكر : (ليس من الصدق للتاريخ أن يقال: إن ابن الرومي كان خاملاً في زمانه أو بعد زمانه) فالعقاد يذهب هذا المذهب بعد قراءته طائفةً من شعر ابن الرومي؛ ثم يذهب مذهبًا فنيًا جماليا بقراءةٍ أخرى (وابن الرومي شاعر كثير التوليد، غواص على المعاني، مستغرق لمعانيه)

وقال في مفتتح الفصل الثالث: (الفصل الثالث حياة ابن الرومي كما تؤخذ من معارضة أخباره على شعره . . . ولم يعرف عنه أنه كان يشتهي طعامًا أو فاكهة إلا وذلك معروف من شعره . . . . وما خاطر طويته خلق محمود أو مذموم إلا شهد به على نفسه كأنه في حرج من أمر كتمانه . . . فعلى ما جاء في ديوانه نعتمد في تصحيح الأخبار المسطورة وتكميلها على وجهٍ نستوفي به الترجمة جهد المستطاع) وهذا صريح بأنه يستنبط من شعره سيرة حياته وطريقة عيشه ؛ ومؤدى هذا هو مؤدى منهج التذوق عند شاكر.

ومن أخصّ مواطن التشابه بين منهجي شاكر والعقاد استدلال كل منهما على أصل الشاعر من خلال شعره؛ فقد جرى رأي شاكرٍ بعلوية المتنبي من خلال « تذوقه شعره « وجرى رأي العقاد بأصل ابن الرومي من خلال شعره أيضا قال في ص ٦٦ : (ولا يدع ابن الرومي مجالًا للشك في أصله الرومي، فإنه يذكره ويؤكد في مواضع شتى من ديوانه كقوله:

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حِجى   ومجدٌ وعيدانٌ صلاب المعاجم

(. . . وقد علمنا أن أمه كانت فارسية من قوله:

كيف أغضي على الدنية والفر   س خئولي والروم أعمامي

من هنا لا أجد ما يمنع من القول بأنَّ منهج التذوق مآله إلى منهج التحليل والاستنباط؛ وهنا ينتهي بي القول من غير قطعٍ بسبب اختيار الشيخ شاكر تسمية منهجه بمنهج التذوق.

يلحُّ على كلمة: (تذوق) حتى في المواطن التي لا أثرٍ فيها لبيان جمال أو قبح ففي ص ٥٣: (. . . ومضيت استقصي وأُفلِّي وأتذوق الأخبار وأتذوق الشعر مرةً بعد مرة لعلي أجد شيئًا يهديني إلى علاقة هذا الكوفي الشاعر بالعلويين . . . وبعد ترددٍ طويل وحيرة بين دلالة تذوق الأخبار . . . بلغتُ حد القطع أنَّ ابا الطيب علوي النسب فرضًا يشبه الحقيقة)

فما علاقة التذوق بهذا المؤدى التاريخي إن لم يكن المقصود به التحليل ثم الاستنباط؟! وهل تذوق الأخبار إلا إمعان النظر

فيها ومن ثمَّ الوصول إلى غاية؟ وقال في ص ٥٩ في حديثه عن علوية أبي الطيب: (وهذه كلها أدلةٌ متظاهرة جاءت من وراء الغيب، لكي تدلني على أنَّ منهجي في التذوق يفضي إلى كشف الحُجُب عما طمره غبار السنين)

ورأيته يعطي التذوق معنى الدرس الأدبي والنظر البلاغي؛ حيث قال ص ٧٤: (. . . القضية في صياغة شعره في حقبتين متباينتين . . . . ومن لم يعطِ هذه القضية حقها من الأناة والتأمل عند تذوق شعر أبي الطيب في هذه السنوات التسع الأخيرة من حياته لم يظفر بطائل ووقع في غثاثة الدراسات التي لا تفرق بين تذوق الشعر وبين التلمظ بالكلام ومضغه)

في كتابه « نمطٌ صعب ونمطٌ مخيف « قال في ص ١٣٤: (فإنَّ التذوق أمرٌ عام يستوي فيه، أو ينبغي أن يستوي فيه، الشاعر والناقد، وقارئ الشعر وسامعه، من أي طبقات الناس كان مادام يملك الأداة التي تتيح له أن يفهم وأن يتأثر، وبين عمل الناقد وعمل سواه من متذوقة الشعر، بونٌ سحيق لا يستهان به) فيبدو هنا

أنه يعني بـ«التذوق» «التذوق المفضي إلى الإبانة عن جيد الشعر ورديئه؛ خاصةً حين نقرأ: [من أي طبقات الناس ونقرأ: وأن يتأثر] فإنَّ التذوق الذي أدار دراساتِه عليه لا يُبلَغُ إلا من طبقةٍ معينة من الناس وهم القادرون على التحليل والاستنباط، كذلك قوله: «وأن يتأثر» فمما يظهر أنه أراد الأثر الوجداني الذي تحدثه قراءة النص، لا الأثر العقلي الذي يحلل ويستنتج؛ وتفريقه بين عمل الناقد وعمل سواه من متذوقة الشعر يوحي إلى أنه أيضًا يعني هنا التذوق الوجداني الذي تنبسط له الأحاسيس .

وورد في كتابه: «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاَّم «وأصل الكتاب محاضرةٌ أُلقيت في جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م؛ ثم نُشرت في مجلة العرب، وحين بين حاله مع ما يعتاده من شكٍ أو يقين فيما أراد أن يذهب إليه قال في ص ٢٢: (. . . أن ألجأ إلى تحليل الألفاظ ثم الجُمل تحليلاً دقيقًا، في خلال النص كلّه طال أو قصر) وقال في ص ٥٩: (. . . وأن يكون التذوق عنهم بالفحص الناقد، وأن ننفض غيبَ كلماتهم بالتذوق وتوسم

بالتفرس في معاطفها ، ثم نستجليها ونسألها ونستخبرها عن هذه السرائر المغيبة المحجوبة في طواياها . . . واستنباط الخفي من أسرارها وتذوُق أساليبها وتسمُّع الركز الخفي في جرسها ونبرها . . . وحتى يتردد في السمع صدى متميز يُعرف به صوت أحدهم من صوت صاحبه ، وإذا بلغ التذوُق هذا المبلغ لم يكد المرء يخطئ الصورة البيِّنة الملامح)

بقي في نفسي أمران معلقان من غير بيان شاف: الأول أن أضع حدًا مبينًا شافيًا كافيا لتعريف منهج «التذوق» أفرّق بينه وبين التحليل والاستنباط، والثاني أن أعرف السبب الذي جعل الشيخ يغالي بهذه التسمية أكتب هذا لعله يجد قارئا لكلام الشيخ فهم غير ما فهمت واستبان له ما استغلق علي، ولا مناص عندي من أقول كلمة أرجو أن لا أكون فيها وضعت نفسي عرضةً للسهام؛ وهي أنه اختار «التذوق» استحسانًا وحلاوةً لهذا اللفظ، كما اختار الحريري رحمه الله تسمية أحد الواوات بواو الثمانية لغلبة الذوق البلاغي عليه ولغلبة المنهج التاريخي على شاكر؛ وقد أقول

إنَّه سماه «التذوق» لما وجده مما تخلل وجدانه وهو يقرأ نصًا يريد أن يكتشف سره؛ فالتذوق أمرٌ نفسي يجده الإنسان بداخله؛ فلعله اختار هذا الاسم لما عاشه من جوٍ وجدانيٍ ذهني وهو يقرأ النصوص ، كذلك ورد عنده في « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا » ص٦: (ثم أتذوقهما تذوقًا بعقلي وقلبي وبصيرتي) وهذا النوع من القراءة أساسه وثمرته ما يفرزه الوجدان؛ وحين أطال القراءة للشعر الجاهلي ووجد في نفسه الفرق لكنه عزَّ عليه التعبير عنه قال ص ١١: (. . . وكان بلوغي، يومئذٍ، إلى إدراك هذه الفروق أو تبينها تبينًا يتيح لي التعبير عنه، أمرًا متعذرًا فما هو إلا التذوق المحض والإحساس المجرد) فالتذوق أثرٌ وجداني تحدثه قراءة النص؛ ثم يثمر هذا التذوق الحكم على النص واستنباط ما بداخله من رموز تقود إلى معرفة خفايا داخل النص؛ فمنهج «التذوق» في بدايته إحساسٌ وجداني وجده في نفسه ولمَّا يقطع بتسميته أو اختيار اسم لما يحسه؛ فلما رأى أنَّ التذوق هو الذي أوصله وكشف له سمَّىً منهجه « التذوق »

قال في ص ١٣ من كتابه « المتنبي « مزريًا بطائفةٍ من المستشرقين: (. . . أنَّ جمهرتهم غيرُ قادرة أصلاً على تذوق الآداب تذوقًا يجعلها حيةً في نفوسهم) فالتذوق هنا مرادٌ به الإحساس بجمال النص إحساسًا يجعل القارئ يعيش الحالة الشعورية للقائل .

وقال في ص ٥٣ : (ومضيتُ استقصي وأُفلّي ، وأتذوق الأخبار عن العلويين وأتذوق الشعر مرةً بعد مرة، لعلي أجدُ ما يهديني إلى علاقة هذا الكوفي الشاعر بالعلويين . . .) التذوق هنا ليس له معنى إلا فحص الأخبار للوصول إلى دلائل لا تنطق بها النصوص نطقًا ؛ وإنما هو استنباطٌ من فهمٍ مؤيدٍ بدليل؛ فآل التذوق إلى التحليل .

وفي كتاب « المدخل إلى منهج التذوق عند محمود شاكر» تأليف عبد الحميد محمد العمري /تقديم الدكتور عبد الجليل هنوش في ص١٣ـ١٤ من المقدمة : (التذوق يلزم المشتغل به بالتعمق في قراءة علوم كثيرة قديمة وحديثه ؛ قديمة كالنحو والبلاغة والتفسير . . . وحديثة كاللسانيات العامة واللسانيات النفسية والاجتماعية

والتداوليات . . . وهذا يعني أن وفاءنا لشيخنا محمود محمد شاكر يقتضي منا تأصيلا جديدا لمنهج التذوق وتوسيعًا لآفاقه المنهجية وتطوير لإمكاناته التحليلية بما يجعله واحدا من أهم المناهج القرائية والتحليلية التي تفتق عنها الذهن العربي) فقد بيَّن «هنوش «أداة منهج التذوق ثم آل به تعريفه إلى أنه منهجٌ ينتهي إلى المنهج التحليلي؛ وكذلك العمري؛حيث وازن بين البلاغة والتذوق ؛ثم قال ص ١٠٥ : (. . . فإنَّ التذوق يبحث في كل كلام عن السمات الخفية التي تنشب في الألفاظ، وتسكن خلف المعاني، وتزداد إيغالاً في الخفاء إذ ترتبط بنفس الشاعر وأخلاقه وأهوائه وملامحه ونظراته) إنَّ معرفة السمات الخفية التي تنشب في الألفاظ، وتسكن خلف المعاني من ثمار التحليل .

وأختم حروفي عن التذوق بما ختم هو به حيث قال : (فإن أنا قد وفقت فيه إلى بعض الصواب، فبفضل الله وتسديده وإن أكن قد أخطأت الطريق وأسأت، فأسأل المغفرة واسع المغفرة سبحانه)

توشية

في أيام الفتن هناك أناسٌ انقطعوا للبحث والدرس لا يجرون مع القيل والقال؛ فهم يقضون كل وقتهم بين المحبرة والقلم؛ جردوا أنفسهم للعلم والمدارسة وتعليم الناس الدين ونشر الفضل، حين تقرأ في سير هؤلاء تسأل نفسك سؤالَ تعجُب أعاشوا ذلك الزمان الذي تقول عنه الكتب إنه حدث فيه من الحوادث المزلزلة ما تشيب له الولدان. ؟! تعجب لأنَّك تعرف عجيب شهوة القول الذي استحكم لدى بعض الخَلْق أيام الفتن من تتبع الأخبار والجري في قيلها، تعجب كيف كفَّ هؤلاء ألسنَتَهم عن الخوض وحفظ أوقاتهم؟؛ ولكن اسمع منهجهم من قول مطرّف بن عبد الله بن الشخّير رحمه الله: (لبثت في فتنة ابن الزبير تسعًا أو سبعًا ما أخبرت فيها بخبر ولا استخبرت فيها عن خبر) هذا في الفتن العامة ؛ وأما ما يصيبهم في خاصتهم فإنَّما يدفعون به عوارض النقص التي تأتيهم من الفتن؛ أنَّ من دعائهم أنهم يقولون عند نزول المصاب:

(اللهم إني أسألك التسليم والرضى بقضائك وقدرك وأعوذ بك من التسخط أو الاعتراض) فيجدون من السلوى وطيب النفس ما يهون عليهم ويدفع عنهم كدر البال.

الفصل الرابع

دراسة الأساليب

الشيخ يدارسك الدليلَ ومأخذَه

وهذا لونٌ عزيز شحيح في الكتب

فأَوْلِه عنايتك وأَصغِ إليه .

الأسلوب الأول أسلوب النقض

ومن أخص خصائص منهجه في النقض وأكثرها وضوحًا وأوسعها انتشارًا حرصه على التوثيق في نقض الرأي المخالف وهذا المنهج من أوجب شروطه الإخلاص وسلامة النية وسعة العلم وهي درجاتٌ أحسب أنَّ الشيخ - رحمه الله - قد بلغها؛ وإنك لتعجب أشد العجب من تشدده على نفسه في توثيق الخبر، ومن نهمه في بيان الحقيقة بيانًا يتضاءل معه علمُ الطرف الآخر، بل وتشفق على مخالفه حتى تظن أنَّ المخالف يقول في نفسه: ليتني سكت؛ لذلك فإنَّ مما تخرج به من قراءة نقائضه خطواتِه في تحقيق النقض، وأحسب أبا فهر قد هُديَ إلى ثغرٍ فأحسن سده؛ وإذا شئتَ مثالاً شاخصًا أمامك على حرصه علًى التوثيق فستقرأ في الفصل الثامن ما جرى به قلمه عن قصيدة: «إنَّ بالشِعب الذي دون سلع».

ومن أشهر كتب الشيخ كتاب: «أباطيل وأسمار» وأعدُّه ميدانًا ومجالاً صالحًا للبدء في دراسة نقائضه؛ وهو من أوفى كتبه

وأغزرها مادةً لهذ الأسلوب أعني أسلوب النقض « والطبعة التي اعتمدتها هي الطبعة الثالثة الصادرة ١٤١٦ هـ ـ ٢٠٠٥م الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة وسيكون منه محور الحديث ثم انتقل إلى أسلوب آخر بإذن الله ، ثم أطوف ما شاء الله بما تيسر من كتبه .

وهذا الكتاب بُني على خمس وعشرين مقالة ، دارت جمهرتها ردًا على لويس عوض وما في محيطه من التبشير والدعوة إلى العامية؛ وإذا كان كتاب المتنبي قد أخذ حظًا من الشهرة والذيوع بين الناس أكثر مما أخذه كتاب أباطيل وأسمار؛ فإنَّ هذا عائدٌ إلى أنه كتابٌ متخصصٌ في الأدب فهو له فن ينسبُ إليه؛ ولكني أرى أنَّ ثراء كتابه أباطيل وأسمار أجلُّ أثرًا وأعظمُ نفعًا من كتاب المتنبي لأنه يبحث في موضوع يعني الأمة بكاملها ولا يخصُّ فئةَ الأدباء ومؤرخي الأدب .

وعنوان الفصل مستوحى من كتاب « نقائضِ جرير والفرزدق» والنقائض جمع نقيضه وهي أن يقول أحدٌ قولاً فينبريَ له من ينقضه؛ وتسميتي من باب التجوز إذ النقائض تكون بدءًا يليه

نقض ثم يتبعه نقض من البادئ وهكذا؛ ولم أجد هذا إلا من أناس خارج ساحة شاكر وعوض؛ كمحيي الدين محمد ومحمد مندور ومحمد عودة ؛ ومنهم من يسمي هذا اللون سجالا أو مساجلة؛ ولكنَّ الشيخ لا يرغب في هذه التسمية فقد ذكر في ص ٣٩٧ـ ٣٩٨ من كتاب أباطيل وأسمار يخاطب محمد عودة رحمهما الله : (. . . » فأصل المساجلة «أن يستقي ساقيان من بئر فيخرج كلٌّ واحدٍ منهما في سَجْله «أي دلوه «مثل ما أخرج الآخر، فأيُّهما نَكل فقد غُلِب . فإذا قيل في مجال مجاز اللغة « فلانٌ يساجل فلانًا فمعناه أنه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه الآخر . . . فهل ترى شيئًا من ذلك بيني وبين هذا الآدمي ؟) قلت : هو يرى هنا أنَّ المساجلة تكون بين ندين متقاربين في المنهج والغاية ؛ وهو يستنكف من أن يكون لويس عوض مساجلًا له ؛ لتباين ما بينهما منهجًا وغاية ؛ومنهم من يسميه ردودًا ومنهم من يسميه تعقبًا أو تعقيبا ، ولكني اخترت تسميتها نقائض استظرافًا لهذا الاسم، ولعلي افتح بابًا لا يقتصر في النقض على ما جرى بين الشعراء؛ ففي النثر ثراءٌ لمن أراد البحث

في هذا الفن «النقض»؛ كذلك فإن فن النقائض نُسي بعد جرير والفرزدق حتى أصبح علمًا لما جرى بينهما ولا ينطلق الذهن عند الإطلاق إلى غيرهما فلعل هذا مما يعيد للمصطلح جريانًا على غير ما دار بين فحلي الشعر الأموي .

وتنوعت أساليب نقائضه من التصريح المباشر إلى السخرية الجادة ونحوهما ، ولم تخلُ كتاباته من الأساليب الوجدانية التي وضعت لها فصلاً خاصًا بها؛ فمن التصريح المباشر عن المخالف قوله في كتاب «أباطيل وأسمار ص ٨ عن أحد الإنجليز الذين أهداهم لويس عوض أحد كتبه : (. . . وأهداه إلى:» كريستوفر سكيف « . . .وأنه كان جاسوسًا محترفا . . . شديد الصفاقة سيئ الأدب وأنه كان ماكرًا خبيثا خسيس الطباع . . .) وقال عن لويس عوض ص ١٢: (. . . وعزمت على أن أميط اللثام عن هذه الدمية التي تتخفى في طيلسان أستاذ جامعي) وقال في ص ١٤٥ـ ١٤٦ (حتى يتبين لكل أحد أنه دعيٌ ثرثار . . . ولكني كنت أعلم علمًا لا يخالطه ارتياب أنه شيءٌ تحركه قوى شريرة)

يُحلّي نقائضه بالاستعارات والتشبيهات وجمال السرد ؛ فينقلك من معنى إلى معنى وأنت راغبٌ في القراءة ؛ يصور حاله وهويقرأ اللويس عوض عن رسالة الغفران (. . . وانفجر صدري بالضحك وأنا وحدي، وألقيت الصحيفة وتركت نفسي على سجيتها غير محتشم . . .) ثم يفاجئك بانقلاب الحال فيقول : (وبدأت أقرأ سطرًا بعد سطر . . . حتى فوجئت بشيءٍ أمسك علي ضحكي وكظمه في بلعومي . . . فجعلت أستشمه فإذا هو :

كشيش أفعى أجمعت لعض

فهي تحك بعضها ببعض

وإذا أسود سالخ (وهو أقتل ما يكون من الحيات) يمشي بين الألفاظ فيُسمع لجلده حفيف ولأنيابه جرش) قلت: وقوله : [ولأنيابه جرش] يشير إلى الحقد الآكل الذي ملأ لويس عوض فكاد يتميز من الغيظ .

وفي ص ٣٥ قال يصف قلم لويس عوض : « فمنذ بدأ مقالته

عن رسالة الغفران لم نزل نسمع للمعاول في الأحجار الصم صليلاً ورَجَلاً أي طنينا وجَلَبَة)

ومن مناهج نقائضه أنْ بيَّن فساد منهج المخالف ص ١١١ ـ ١١٢: (. . . فبينت للناس ولصحيفة الأهرام، أنَّ هذا الرجل الذي طلع علينا في طيلسان وجلاجل قد ادعى منهجًا كمناهج الأساتذة الجامعيين . . . فكشفت عن أكبر خطيئةٍ لا تغتفر لطالب صغير مبتدئ، وهي العجلة في قراءة النصوص . . . إنما قرأ أسطرًا كالملهوف وترك ما بعده من الأسطر وهي التي فيها نقد الدكتور طه حسين لهذا النص نفسه . . . فأبرأت ذمتي أيضًا . . . قد ادعى في كلامه أنه قرأ كتبا بأعيانها وهو في الحقيقة خطاف جريء . . . على أنَّ هذا الذي كتب عن شيخ المعرة لم يقرأ شيئًا قط من آثار شيخ المعرة وبخاصة سقط الزند الذي يتعلق بالخبر الذي ادعى منتفخا أنه قرأه . . . فذكر أكاذيب وأوهامًا لا أصل لها . . . فكشفت بلا ريبة عن أنَّ هذا الدعي لم يقرأ قط كتابًا واحدًا عن ترجمة شيخ المعرة . . . لا يملك أي إحساس أدبي بأي

نص يقرأه . . . فبينت جهل هذا الرجل وادعاءه ببرهان فاصلٍ من نصٍ من نص كلامه هو في صفة نفسه إذ قال: [إنَّ إحساس لويس عوض باللغة ضعيفٌ جدًا وأجنبيٌ جدًا]

ومن أساليبه مع الطرف الآخر أن يصفه وصفًا مباشرًا بما يرى أنه فيه ففي ص٨ وصف صبره على ما وجده في كتابات لويس عوض: (. . . ولم أبالِ بما وجدت فيه من بغض شديدٍ للعرب، ومن حقدٍ آكل على دينهم وكتابهم ومن غرور فاجرٍ وسوء أدب، ولم أعبأ بالرائحة الخبيثة التي تفوح من تحت ألفاظه)

ومن أسلوبه في النقض أنه يستخدم السخرية الجادة، أي أنه يصف الطرف الآخر بأوصافٍ حسنة يراد بها السخرية منه والتندر به ، وهذا من أوجع الذم لمن لم تهن عليه نفسه أو كان له قلب، قال في ص ٩ يصف لويس عوض : (فرغت من المقدمة وأنا أعدها تحفةً من التحف لاستخراجها الضحك من قبضة التقطيب والعبوس . . . وجدتني ظفرت بما فوق المنى بترياق للهم

عجيب ! فمن يومئذٍ خف «أجاكس عوض على قلبي جدًا ورأيته ذخيرةً تصان وطرفة عزيزة لا تمتهن) ص١٣ـ ١٤ : (فللأغبياء الذين لم يحسنوا اختيار الدمى من الناس الشكر، وللدمى التي ذكرتها في كلماتي ولمثلها في هذه الكلمات «أجاكس عوض « فضلٌ يذكر ولا ينكر . . . فكان من رحمة الله بنا وبالناس أن سخر لنا « أجاكس عوض « حتى يُحدِث لنا وجود اسمه وتكراره طرفًا من الانبساط و»الفرفشة « يتخلل ما نعاني من جد الحياة وما ينبغي أن نحمل من أثقالها)

في ص ٣٩١ من كتابه « نمطٌ صعب ونمطٌ مخيف « قال يعلّم السخرية الجادة بإسلوب ساخر : (. . . فإنَّ هذا الكاتب ذا الأربعة عشر كتاًبا ، اشتهى أن يجرب قلمه الذي كتب به هذا العدد من الكتب ، في السخرية بي وكان يسرني أن يجيد التجربة ولكنه أخفق ؛ لأنَّ السخرية من أشقّ ضروب الكتابة ، وليس يغني فيها أن يشتريَ المشتهي قلمًا بقرش وورقًا بقرشين فإذا هو كاتب ساخر)

وهذا الأسلوب من أساليب شاكر يفضي بي إلى أن أحدثك عن السخرية الجادة وعن أمثلةٍ لها وعن المقصود بها ، فأقول : السخرية الجادة في الأدب هي مما يدار به طرفٌ من أدب الاختلاف وأرى أنه مما يسير عليه النبلاء في ردودهم ؛ فيتجهون إلى إضعاف حجة الخصم مبتعدين عن سوقية اللفظ أو انحطاط المعنى، وهو نوع موجع للطرف الآخر ؛ لأنه كوخز النحل بإبرها .

ومن مجاري السخرية في هذا الفن أن يتباله الكاتب فيما يقول أثناء رده ، فيثير فكرة يرى صوابها في قرارة نفسه ، فيجرّد بعد الإثارة سؤالا فيه تغافلٌ وتبالُه ، يوحي ببراءته وتغليطه مما قد يكون اختلط في ذهن الطرف المقابل، ومن هذا ما وقع في أحد الردود حين وقع المردود عليه بإدخال حرف جر على فعل، وحروف الجر لا تدخل على الأفعال فبعد أن يبين له خطأه يختم فقرته: لعلك ترى أنَّ حروف الجر تدخل على الأفعال فهذا سبق علمي فُتح به عليك ؛ ومن أمثلة التباله ووخز السخرية الجادة أن يذكر الكاتب حقائق يوقن بصحتها ، يذكرها بسخرية على أن الطرف الآخر

هو الذي يملك الحق والصواب ، من هذا ما ورد له رحمه الله في رده على توفيق الحكيم عن الاحتفاء بالعامية: (. . . وليس أحدٌ بالطبع، أيضا أعلم بأخبار قدامى العرب من أستاذنا الجليل . . . وإن كان أمثالنا لم يعرفوا لِمَ قيل « سكن تسلم » فأتنا بالأمر من فصه . . . وكنا نظن أنها قيلت في رجل قرأ كتابا فظل يلحن . . . فلما ضاق سامعه قال له: « سكن تسلَمْ » . . . ولكن هذا ظن؛ والعلم عين العلم هو الذي جاءنا به الأستاذ) ومثار السخرية في قوله: « وكنا نظن أنها . . . » ولا شك بأنَّ شاكرًا يدرك حقيقة الأمر الذي وردت فيه هذه الجملة « سكن تسلم» ولكنها السخرية الجادة التي كثيرًا ما يجري بها قلمه ، وليس من السخرية الجادة فلانٌ طيبٌ ولكنه ـ غفر الله له ـ ثم يبدأ بفريه تشفيًا وغيبة .

وليس من هذا الفن السخرية المباشرة كما ورد في رسالة التربيع والتدوير التي كتبها الجاحظ في أحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله ؛ ومن هذه الرسالة التي جمعت بين السخرية الجادة والسخرية المباشرة ؛ (بسم الله الرحمن الرحيم : أطال الله بقاءك وأتم

نعمته عليك وكرامته لك قد علمت ـ حفظك الله ـ أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة وعلى حور العين وجودة القد . . .) ومما قال من السخرية المباشرة: (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعًا وتحسبهِ لسعَة جُفرته واستفاضة خاصرته مدورًا ، وكان جعدَ الأطراف قصير الأصابع . . .) كما ورد في ص٤٢٩ من كتاب رسائل الجاحظ ، قدم لها الدكتور علي أبو ملحم .

« لسعة جُفرته « لسعة جنبيه « جعدَ الأطراف « مستديرها قليل اللحم .

كذلك ليس من السخرية الجادة ما ورد في رسالة ابن زيدون الهزلية التي كتبها ساخرًا إلى أحمد بن عبدوس على لسان ولادة بنت المستكفي رحمهم الله ؛ وقد ورد شرحها في كتاب : « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون « لابن نباتة المصري بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم رحمهم الله؛ ومما جاء فيها : (أما بعد أيها المصاب بعقله المورط بجهله البين سَقَطُه الفاحش غلطه العاثر في

ذيل اغتراره . . . حتى خلت أن يوسف ـ عليه السلام ـ حاسنك فغضضت منه ، وأنَّ امرأة العزيز رأتك فسلت عنه وأنَّ قارون أصاب بعض ما كنزت والنَّطِف عثر على فضل ما ركزت . . .) والنطِف : رجل من العرب أصاب مالاً فضُرب به المثل ، « ما ركزت « الرِكاز المال المدفون .

وليس من السخرية الجادة أسلوبُ المغالطة فهي قائمةٌ على التدليس وتعمد الكذب والتغرير وإيقاع القارئ بسوء ، ومن غاياتها جرُّ الناس إلى تزيين الباطل ، وكل هذا منافٍ للشيمة العلمية، أما السخرية الجادة فلا تنطوي على خبث وتدجيل لأن الساخر يدرك أنَّ خصمه يفهم ما يريد ، والمغالِطة فيها مكرٌ وتلبيس، ليسا بالساخر، المغالطة قائمةٌ على التضليل والمخادعة ، ولا تدخل بهذا الباب، لأنَّ الطرف الآخر أي الذي أُريد به التغليط يدخل فيما زُين له معتقدًا الصواب، أما في السخرية الأدبية فإنَّ الخصم يعلم أنه يُسخرُ منه ، والمغالطة لا تدخل في أبواب الردود النزيهة؛ لأن المغالَط أنشأ مغالطتَه بهدف الطعن وجرِ غيرِه فيعمد إلى قلب

الحقيقة وتزيين الباطل والتشكيك بالمسلمات ، ومنها ما جرى به قلم لويس عوض .

ومن أساليب عرض هذا الفن أن يعمد الكاتب ـ حين تفنيد رأي رآه من يخالفه ـ إلى صوغ رده بألفاظٍ وجمل جادة في ظاهرها ولكن باطنها السخرية بمن خالفه ، أو يوشي رده بإدراج جمل ذكرت في سياقات أخرى تمكن الكاتب بقدرته البيانية وحضوره الذهني من اجتلابها ومن ثم وضعها في ثنايا رده على أن تساعده قدرته الكتابية على إدراجها إدراجا غير متكلف، فتحس وأنت تقرأ بإنه جزء عضوي أصيل في فكرة الكاتب وكتابته، ومن هذا ما أُدرج في بعض الردود اعتراضًا على فكرة دعا إليها بعض الكتاب وأفاض في تسويغها فقال الساخر عنها : « وحشر لها فنادى » وهذا استدعاءٌ وتضمينٌ لموقف فرعون مع موسى، وهي نوع من الأدب الراقي الذي يملكه خواص الكتاب ممن تتسم ثقافتهم بالعمق والسعة والقدرة على استحضار المخزون المعرفي، فيعمدون إلى أن يكون عمودُ كتابتهم مثلاً تشبيهَ حال من خالفهم بمألوف الناس، أو

يسخرون بالكاتب بأنه بلغ المنزلة وجاز القنطرة فأصبحت آراؤه فوق طبقة ممن يؤخذ من كلامه ويرد فكلامه صوابٌ كله عظيمٌ كله هبةٌ كله، وقد وجدت كثيرًا من هذا في ردود محمود شاكر، ومن رحم قراءاتي لكتاباته رحمه الله وُلدتْ فكرة هذا المصطلح؛ وذاك أني كنت أقرأ في كتابه «أباطيل وأسمار»؛ فمن هذا رده على توفيق الحكيم حين دعا إلى العامية بأنها لغة لا فرق بينها وبين الفصحى إلا اليسير، فمما قال شاكر حول هذا في كتابه أباطيل وأسمار ص ٢٨٣ : (. . . كما أنّ النعام طائر والعقاب طائر هذا له جناحان، ولها هي أيضا جناحان ، وإذن فهما شيء واحدٌ أيضا . . . وليس همي الآن أن أناقش في بيان فضيلة هذا المشروع الجليل . . . ولكن الأستاذ الحكيم غير مكلف بالاطلاع على شيء من ذلك لأنه كاتب عظيم القدر رفيع الذكر) وقال: (. . . ولا على الترتيب المنطقي البديع المتقن، الذي هو أحسن بِدْعًا وأشد إتقانا من «حوار الحكيم «الذي اشتهر به عند الناس) وهذه لسعة ووخزة يشير بها شاكر إلى رواية توفيق الحكيم «حمار الحكيم»

وهي رواية دار طرف منها إلى حوار مع حمار؛ وممن سار بكثيرٍ من كتاباته على السخرية الجادة مارون عبُّود .

ومن سخريته الجادة قوله في معرض دفاعه عن المعري ص ٤٠ : (. . . ولكن لعل الشيخ القفطي قد غلبه الحياء أن يحدّث به شاميا خبيرا بأخبار الشام ـ يقصد ياقوت الحموي ـ لعلمه هو نفسه أنه خبرٌ تلقفه ليتباهى به في كتبه طلبًا للإتيان بالغرائب على عادة بعض أهل العلم في كل زمان ومكان، والدكتور لويس عوض جدُّ عليم بذلك عن خبرةٍ وتجربة) ويعني بغناه بالخبرة أنه يجيد الإتيان بالغرائب .

ومن هذا ص ٤٦ : (. . . إلا أن يكون الفتى المعري قد لقنه راهب دير الفاروس أيضا « فن التمثيل « نقلاً عن يونان الدكتور لويس عوض ، فوقف على مسرح يعرض أعاجيبه دفعةً واحدة . . . وحضرته يومًا وهو يملي . . . ويدل تنكيره « يومًا « على تكرر ذلك في أيام متعددة [وهذا صعبٌ على الدكتور فهمه ، فاعتذر . . . وكأنَّ هذا الأعمى الشاعر ، الظريف الذي يلعب

بالشطرنج وبالنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل [آه ! ! كأنه يعني بذلك التراجيديا والكوميديا وتلقاها أبوالعلاء أيضًا من الراهب بلا شك) قلت: إن قول الشيخ : «آه« هي تعني بالعامية [نسيت وتذكرت الآن المعذرة] وهي سخرية لاذعة؛ ومن هذا (والحق أنه لا يُعرف شيءٌ عن تعليمه الرسمي «أبي العلاء « ياسلام ما أفصحك ! ! الرسمي مرة واحدة)إلا أنه تعلم في حلب ثم في أنطاكية ثم في اللاذقية يقول شاكر: بالطبع بالطبع) حين فسَّر بعض الكلمات قال» (واستغفر الله كيف أفسر هذا لأستاذ جامعي قُدموس)[أي قديم ! !]

ومن السخرية الجادة وصفه لحاله وحال لويس عوض في قوله ص ١١٠ ـ ١١١ : (وإن كان هذا الطيلسان عندي في الحقيقة كلباس الفرزدق حين جاء للقاء جرير، في الديباج والخز، وجاءه جرير في لباس المحارب متقلدًا سيفه وفي كفه الرمح فوصف ذلك جرير فقال:

لبستُ سلاحي، والفرزدقُ لعبةٌ عليه وشاحا كُرَّجٍ وجلاجله

[الكُرَّج] بضم الكاف وفتح الراء المشددة ، دميةٌ يلهو بها الصبيان تُزين بالوشي وتعلق عليه الجلاجل والأجراس] ومؤدى البيت أنَّ لويس جاء بزي المتباهي بزينة لباسه وهو خلوٌ من عدة ما يناسب ما أتى إليه ؛ من سلاح العلم والقدرةِ على الحِجَاج ؛ أمَّا أنا فقد اعددت أهبةَ الأمر .

ومن وخزه في النقض ص١٨ في حديثه عن لويس عوض:

(. . . ومعنى ذلك أنه بلا شك يحسنُ أن يقيم الدراسة على المنهج، ولأنه ثانيا ولا بد كان فيما أظن أيضًا معيدًا بالجامعة . . . ولأنه ثالثا خرج على الناس كاتبًا ، فمارس الكتابة زمنًا ، فهو خليقٌ أن يعالج دراسة « رسالة الغفران « على منهج محكم الأصول . . .)

ومن أساليب نقائضه اللسع الموجع الذي يدركه الخصم وقد يخفى المراد على غير الخصم ؛ فلويس على دين النصارى الذين هم من أهل الذمة أيام الفتوحات الإسلامية ؛ لهذا لسعه لسعةً تذكره بانتصاراتنا وحفظنا لحقوق أهل الذمة في ص ٩٢ في معرض كلامه

عن معنى اجتاز: (. . . وهذا صريح استعمالها كالذي يجيء في العهود بيننا وبين أهل الذمة ففي كتاب حبيب بن مسلمة الفِهْريِّ في فتح أرمينية، على عهد عثمان رضي الله عنه يقول: [الأموال: ٢٠٩ فتوح البلدان ٢٠٩]: (ولنا نصيحتكم وضَلْعكم « أي الميل والمعونة « على عدو الله ورسوله والذين آمنوا فيما استطعتم، وقِرَى المسلم المجتاز ليلةً بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم) قلت: « وقِرَى المسلم « أي القيام بحق الضيافة.

بعد أن فرغ من الحديث عن المقصود بـ « اجتاز « ختمه أيضا بسخرية جادة: (. . . إلا إذا فهمنا اللغة على أسلوب « وردة كالدهان « أنها « روزا مستيكا « وسائر العجائب التي لا تنقضي) وأسلوب وردة كالدهان هو تخطئةٌ للمعنى الذي قاله لِويس عوض في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ الرحمن ٣٧

وروزا مستيكا معناها الوردة السرية؛ وهو رمزٌ يزعمه النصارى لظهور مريم عليها السلام وتَبدِّيها أمام الناس؛ لحثهم على التكفير من أجل الخطيئة.

ومما يدخل بالسخرية الجادة قوله وفي ص ١٧٤ عندما فنَّد مغالطة قال بها لويس عوض حول الاستعانة بالرمز عند الحركة الشعرية، فقال في نهاية رد المغالطة: (وقد ذكرت هذه المغالط، لأنها هي الطريقة المستعملة حديثًا في التفكير... مضافًا إليها توابل من ذكر «التطور» وسائر الألفاظ التي تباع الآن في الصحف منظومة في الأعمدة، كما تباع عقود الفل والياسمين على الأرصفة!!)

ومن مناهج نقائضه حين يريد نقض الرأي المخالف، فإنه يورد الخبر المنقوض ثم يوثق نقضه، وكأنما هو من شدة عنايته قد بنى رده على هذا الملحظ فقط حتى إذ أشبعها توثيقا انتقل إلى غيرها، ومن هذا توثيقه لنفي أخذ أبي العلاء رحمه الله من راهبٍ معه شيءٍ من فلسفة اليونان، وأنَّ هذا الأخذ أصابه بلوثة في دينه.

ومن هذا تفنيده لخبرٍ جاء بكتاب» الإسلام في أثيوبيا في العصور الوسطى، مع الاهتمام بوجهٍ خاص بعلاقة المسلمين

والمسيحيين « للدكتور زاهر رياض ، ومما جاء فيه ص٢٣١ : (وفي سنة ست أرسل النبي عليه الصلاة والسلام « هذه الصلاة من المؤلف « كتابًا يدعوه ـ يدعو ملك الحبشة ـ إلى الإسلام فاستقبله النجاشي استقبالاً حسنًا ووضعه على رأسه وأسلم على ما تقول المصادر الإسلامية ، وإن كنا لا نجد سندًا في المصادر الأثيوبية . . . كما أنَّ الرواية توحي بالتكذيب أكثر مما توحي بالتصديق . . . هاجت عليها ـ على السفينة ـ فأغرقتها ومن فيها ، ويظهر أنَّ المؤرخين المسلمين عُنُوا بإنقاذ الكتاب، فأتونا بنصه أكثر مما عُنُوا بإنقاذ أصحابه) ثم علق الشيخ : « انتهى الأستاذ الفاضل من سخريته بالمؤرخين المسلمين « ثم قال في تفنيده ص٢٣٩ : (. . . فإنَّ المؤرخين المسلمين . . . يعلمون أنَّ عمرو بن أمية الضمري رسول رسول الله إلى أصحمة عاد إلى المدينة ومعه جعفر بن أبي طالب وأصحابه، كما قال الطبري وسائر المؤرخين وأنه بقي حيًا إلى أن مات في زمن معاوية رضي الله عنه سنة ستين من الهجرة . . . ومن طريقه روى الرواة الكتابين المذكورين، فإنقاذ كتاب النجاشي

جاء عن هذا الطريق لا عن طريق ما خلَّط فيه الأستاذ الجامعي أيضا)

قلت: الأصحم الذي في سواده صُفْرة، قال الشنفرى في لاميته:

ترود الأراوي الصَّحم حولي كأنها عذارى عليهن الملاءُ المذيَّلُ

ترود تذهب وتجيئ، والأراوي هي الأناثي من الوعول، الملاء الثوب، المذيل الطويل؛ ولا تنسَ العجب من عذوبة هذا البيت منسوبًا إلى خشونة كثيرٍ من أبيات اللامية؛ وما هذا إلا من عظمة هذه اللغة العظيمة ومن تمكن الشنفرى منها .

وقراءة هذه النقيضة تبين أنَّ من أساليب نقضه حرصَه على توثيق ما يذهب إليه؛ فقد رجع إلى صحيحي البخاري ومسلم وإلى تاريخ الطبري وطبقات ابن سعد رحمهم الله جميعا؛ وفي تنويه شاكر: [هذه الصلاة من المؤلف] ما يشير إلى أنه يحفظ حق الطرف المخالف .

وفي نقيضته هذه نجد أن المردود عليه يتغافل عن ذكر» الحبشة « فيقول: « أثيوبيا « ولكن الشيخ يتعقبه فأنى قال زاهر

رياض أثيوبيا قال بعدها الشيخ :الحبشة؛ وفي تعاميه عن ذكر الحبشة نَفَسٌ لا يخفى على القارئ، بل لعله يخفى ذلك أنَّ لفظة «الحبشة »هي ما تعارف على إيراده رواة السيرة من المسلمين ؛ والكاتب نصراني فترك الحبشة إلى أثيوبيا .

ومن سخريته الجادة في نقضه كلام « زاهر رياض « ص٢٤٢ـ ٢٤٣ : (. . . ما هذه المسلمات البديهية ! !من أين يأتي بها هذا الظريف الجديد ؟ . . . هذه بلا ريب ، بديهيات ينبغي أن يقرأها شباب المسلمين وشيوخهم ويستفيدوا ها من القس « زويمر « ومن الأستاذ زاهر رياض بلا اعتراض ولا ارتياب ؛ فهي مسلمات لا يستطيع العقل أن ينقضها ! !)

والمسلمات التي أشار إليها شاكر هو قول زاهر ص ٢٤٢: (كان النبي عليه السلام في شبابه عازفًا عن معاشرة لداته من العرب، ومشاركتهم فيما هم فيه من لهو ومتعة هذه الأولى والثانية: « بل كان يعاشر أهل الكتاب ويسمع منهم ويتعلم»)

و من مناهج توثيقه حثه على مقارنة أقوال المتعاصرين ومصادر أخبارهم ص٣٧ «لأنه أساس تهدي إليه بديهة العقل» ؛ في أثناء مدارسته لخبر دير الفاروس ص٢٩ ذكر فائدةً جليلة يجب الاحتياط من الوقوع بمثلها ، وهي الضرر العلمي والتاريخي الذي يحدثه اختصار أقوال المتقدم بما يرى الناقل عنه وبما فهم هو لا كما قال المنقول عنه: (. . . فإن « القفطي « يقول :وكان به راهبٌ يشدو شيئًا من علوم الأوائل، فسمع منه أبو العلاء كلامًا من أوائل أقوال الفلاسفة) ثم قال شاكر: (وفي هذا بيانٌ واضحٌ على أنه راهبٌ مبتدئ قليل البضاعة، قد تخطَّف كلمات من أوائل [أي من مبادئ] أقوال الفلاسفة؛ فجاء « الذهبي « فقال في صفة هذا الراهب : « كان به راهب له علمٌ بأقوال الفلاسفة « ثم قال شاكر: (فرفع باختصاره شأن الراهب المبتدئ الشادي، بما يوهم أنَّ له علمًا بأقوال الفلاسفة ؛ وهذا عملٌ غيرُ مرضي وإساءة من الذهبي . . .فحذف الذهبي السن ، وأنه فاه به في أوَل عمره ، فأوهم أنَّ ذلك كان في وقتٍ متأخر وهذه إساءةٌ أخرى من جراء الاختصار سيظهر أثرها فيما بعد »

قلت : وقول الذهبي : « له علمٌ « وإن كان أعلى درجةً في إثبات العلم من قول القفطي : « يشدو شيئًا من علوم الأوائل « إلا أنه لا يعتمد على مثل هذا اللفظ في إثبات الخبر ؛ لما في اللفظة من التمريض، وهو تعبير يؤول معناه حال ثبوته إلى قلة علم ذلك الراهب؛ فالاختصار لأقوالِ من تنقلُ عنهم له مغبةٌ على الأخبار قد تفسد ما أراده المصدر الأول؛ فإن كان الناقل لابد فاعلاً فلينقل الخبر بنصه ثم يورد عليه ما يراه من تأييدٍ أو معارضة .

ومن مناهجه انه يحسن التأتي ويأخذ بمنهج الرفق مع طه حسين وهذا أظنه مما يراه من حق التلمذ وفارق السن وحرمة الدين وهذه الثلاث لا يراها لـ « لويس عوض» فقد قال عن كتاب طه حسن عن أبي العلاء ص٢٥ : (. . . وكتاب الدكتور طه حسين أُلِّف منذ أكثر من خمسين سنة . . . هذا فضلاً عن أنه كتب كتابِه وهو دون الخامسة والعشرين من عمره أطال الله بقاءه وعسى أن يكون الدكتور اليوم لا يرضى عن كثيرٍ مما كتب يومئذٍ ، ويرى وهذا ، العهد به أن لو أطاق لأعاد كتابة ما مضى على الوجه

الذي يرتضيه) وقال عن عنه أيضًا في ص ٣١ حين غَـيَّر في الخبر: (وهذا أمرٌ غير حسن لا أظن الدكتور طه يرضى عنه اليوم، لعلمي بما هو عليه من حب الأوبة إلى مقالة الحق)

لكن هذا التأتي ليس على إطلاقه فحين يؤول إلى الأمر إلى مساس في التاريخ، فإنَّ مجاري الحرف تختلف ويمليها حق العلم : (فوالله إننا لنفسح للدكتور الجليل في مجالسنا حتى يبلغ الغاية التي هو لها أهلٌ وعلى ودنا أن نفسح له في التاريخ أيضًا . . . لولا أن التاريخ يحتج بشدة) فحفظًا لحق التاريخ رأينا تعريضًا بطه مثل: [الدكتور الجليل طه حسين بك] ومثل [عميد الأدب العربي] ومثل: [يا مولانا الدكتور الجليل] وهذه الجمل وردت في سياق التهكم والتعريض، ثم انعطف هذا التعريض إلى تصريح، وجرى هذا في أكثر من موضع في مقالاته التي بعنوان « بيني وبين طه»؛فمن هذا ما قاله عن طه حين غيَّر نصًا في خزانة البغدادي فقال عن سوء تصرف طه: (. . . وتجنب ذكره لما يعلم من فساد رأيه ، وفُسُولة مذهبه ، ولما هو عليه من قبح التهجم وسوء الاستنباط. . .

فحرَّف وبدل وأفسد) وبعد أن أفضى الدكتور طه إلى نتيجته قال شاكر ساخرًا به : (ولست تشك أيها القارئ أنَّ هذه فائدة جليلة، وعلمٌ ضخم استخرجه الدكتور واستنبطه واحتفره من صخرةٍ جافيةٍ نابية . . . فأنت تعلم كما علمك الدكتور الأمين الوثيق الرواية المتثبت . . . وكيف تحب أيها القارئ أن تصف الدكتور . . . أما أنا فأحبُّ إلي أن أقول إنَّ الدكتور رجلٌ طيب القلب ، سليم الصدر ، ظريف مسكين . . .)

ومن أساليبه في النقض الاستفاضة في الشرح مع التأصيل، كما جرى في شرح وتأصيل مصطلحات خاصة بالنصرانية: «الخطيئة، الفداء، الصلب ، الخلاص « وهذا في ص ١٦٩ وما بعدها من المقالة التاسعة من كتاب « أباطيل وأسمار »

ومن جمال أسلوبه في النقض ما يفيضه على ما أراد التنبيه إليه من روعة الاستشهاد ودقته وجماله ص ٢٠٠ : (. . . ومع ذلك ما يضير القارئ أن يسير معي في الدروب المتشابكة . . . أمن العبث أن أدلك متمهلاً ، أدلك على مواطئ أقدام الفُتاك والخُبثاء ،

وعلى مسارب كالتي وصفها المتنخل الهذلي إذ يقول:

كأنَّ مزاحفَ الحياتِ فيه قُبيلَ الصبحِ آثارُ السياط

وإنها لحياتُ ليلٍ مظلمٍ لا يشفى لها لديغ)

قلت : والشاعر هنا يصف مورد ماءٍ ورد عليه ، ويقال إنَّ هذا القصيدة أجودُ قصيدةٍ في قافية الطاء قال ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء» روايةً عن الأصمعي رحمهما الله : « لم تُقل كلمةٌ على الطاء أجود من قصيدته يعني المتنخل) ثم أورد هذا البيت قلت: ومن عرف آثار الحيات في الرمال عجب من دقة إصابة المتنخل واستحضاره لهذه الصورة .

بعد أن أنقذه الله من سموم هذه الحيات التي كان ممن ابتلي بلدغها يذكر أنَّما يراه فريضة أن يبين شرورها : قال في ص ١٤٤ : (. . . وكيف أغفل عنه وقد كدت يومًا أكاد أكون أحد صرعى هذا الزحف ، ورأيت إخوانًا لي قد صُرعوا وأنا أراهم بعيني ، منهم من نجَّاه الله كما نجَّاني ، ومنهم من هلك فيمن هلك) وفي

ص٢٠١: (. . . ثم وقفت أرصدها وأرصد مزاحفها ، وأطأ منها ما أطأ بقدم ثابتة. . . فإني وجدته فريضةً محكمة أن أبصّر أهلي وعشيرتي وأوقظهم إلى ما يكمن لهم في الطريق من هلاكٍ موبق)

استطرادًا قلت : وهذا مسلك جدير ومنهج قويم أن يبين الإنسان خطر ما كان عليه ليكون مَنبَهةً لغيره وهذا كما فعل عبدالعزيز حمودة في كتاب « المرايا المحدبة من البنوية إلى التفكيك» فإذا روى إنسان فشل فكرٍ ما من داخل ذاك الفكر فإنه يبين من الأدلة ما لم يستطع غيره قال حمودة ص ١٤ : (وطوال تلك السنوات كنت أنحي باللائمة على جهلي وتخلفي عن اللحاق بركب الدراسات الأدبية والدراسات النقدية الحداثية ، وهو تخلف كنت أقبله عن طيب خاطر، بسبب أعباء الوظائف الإدارية التي أثقلت كاهلي لسنوات، وفي أحيان كثيرة كنت أنحي باللائمة على تدني معدل ذكائي الفطري منه والمكتسب) ثم بعد هذا سلك مسلكا آخر، وأنا أذكر هذا الاقتباس لعله يجد من يجمع أمثاله ــ وهو كثير في القديم والحديث ــ فيخرجه مدروسًا مؤصلاً فيسهم في إيقاظ

من غفل أو استُدرج؛ ومن المتولد هنا أن أقول لك : إنك إذا قرأت كتاًبا يبحث في علم أنت من أهله فلم تفهم ما يريد المؤلف أن يقول وتزداد التعمية عليكَ كلما مضيت في القراءة؛ ثم تقيس استجابة فهمك حين تقرأ كُتُبًا أخرى من هذا الفن فلا تستعصي عليك، بل تجد أنك تضيف عليه لأن ما قرأت فتق علمك، إذا حدث معك هذا فإنَّ من الظلم لنفسك أن ترميَها بضعف الفهم أو القصور في الإدراك .

ومن سخريته الجادة، أنه حين أنهى حديثه عن لطفي السيد عن الدعوة إلى العامية قال : (هذه أفكارٌ عجب، مجرد استعمال لفظ عامي وكتابته يلبسه لباس الفصاحة ! ! ما أنذل الحكمة ! !) وقوله : « ما أنذل الحكمة « لسعٌ للطفي السيد حيث قال عنه قبل هذا : (. . . لرجل ذاعت القالة بين الناس بأنه فيلسوف) وحين ذكر لطفي : (. . . وأقرب الطرق إلى هذا الصلح « يعني بين العامية والفصحى « أن تذرع إلى إحياء العربية باستعمال العامية ومتى استعملناها في الكتابة، اضطررنا إلى تخليصها من الضعف)

يعاود السخرية منه : [وهذه النتيجة المذهلة التي انتهى إليها حضرة الفاضل المنطيق تتفق تمامًا مع آرائه التي أذاعها مرارًا .]

ويقول ساخرًا ص ٢١٧ عن لويس عوض: (. . . ليقول لمن اصطنعوه: انظروا كيف أتحدى ؟ ويهز رأسه متلفتًا يمنةً ويسرةً إعجابًا بنفسه وعلى ثغره المحترم أيضًا ابتسامةٌ عاقلة في غلالة من حياءٍ وخفر ! ! مسكينٌ هذا المتفلت من القيود والأسوار)

ومن أساليبه في النقض أنه يحتاط لما قد يورد على نقضه ، قال ص ٢٢٣ : (وعسى أن يتمحّل متمحّل فيزعم أنّ هذا الكاتب المخلط بين معنى « الدين «عند أهل الكتَاب ، و» الكاهن « عند العرب لم يرد بالكاهن النبي ، ولكن هذا باطلٌ لا يخفى ؛ لأنه قال : إنّ الابن البكر من حقوقه حسب التقاليد : أن يكون المسئول الأول عن الأسرة بعد وفاة الوالد ، وأن يرث بركة السماء [وهذا اعجب العجب ! ! هل سمع بمثلها مسلم قط ؟] . . . فأي وراثةٍ ورثها فيما يزعم هذا الكاتب إسحاقُ نبي الله عن إبراهيم خليل الله ، سوى النبوة)

وهذا احتياط في ص ٢٤٥ بعد أن نقض ادعاء » زاهر رياض « بأنه صلى الله عليه وسلم تعلَّم من أم أيمن أومن الموالي الإثيوبيين ومن التجار ومن القساوسة : (وقد يظن الأستاذ الظنون أنه بهذا الأسلوب المتداخل الموحي بلا تصريح، يستطيع أن يقول مبتسمًا : ولكني لم أرد أن أذهب هذا المذهب في تعلم رسول الله صلى عليه وسلم الدين من تجار الأحباش وقساوسة الأحباش، بل أردت هذه الأخبار العامة عن أحوال الناس والدنيا = فيقال له: فما الذي حملك إذن على أن تكتب : « كان يعاشر أهل الكتاب ويسمع منهم ويتعلم « . . . فهل نستبعد أن يكون عليه السلام قد اختلط بمن اختلط بهم من الكتابيين أثيوبيين « ؟ فهذا كلامٌ واضح جدًا في أصناف الكتابيين الذين كان يختلط بهم كانوا أحباشًا وغير أحباش وهم الأكثر)

ومن أساليب نقضه أنه يسلسل الخبر المزعوم سَلْسَلةً تاريخية موثقة حتى ينقضه ، فقد ادعى زاهر رياض في ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ أنَّ أم أيمن رضي الله عنها كانت ممن تعلم منهم رسول الله صلى عليه

وسلم ، وأنَّ المؤرخين المسلمين لم يُعنوا بهذا الخبر ؛ فمضى الشيخ ناقضًا هذا الادعاء بحسابات تاريخية موثقة، فقال في ص٢٤٨ ـ ٢٤٩ : (. . . ولكني سأعلمك ما لم تكن تعلم لتعلم أنَّ المؤرخين لم يقولوا شيئًا مما قلت إلا لأنه باطل) ثم مضى مع أحداث السيرة حتى وصل إلى أنَّ أمَّ أيمن على ادعاء زاهر تكون أنجبت ابنها أسامة بن زيد رضي الله عنهم حِبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرها تسعٌ وخمسون سنة، ثم قال: (. . . فإذا كان هذا أمرًا مرغوبًا عنه لغرابته وبعده عن المعهود من الولادات أليس من الأوفق أ يقال إنَّ « أم أيمن » كانت في نحو الخامسة من عمرها يوم ولد صلى الله علي وسلم . . . أعلمت الآن لماذا لم يُعن المؤرخون بهذا الأمر عنايتك به ؟) وفي السياق ومما يتعلق بأم أيمن رضي الله عنها ص ٢٤٧ : (. . . فهذا الأستاذ المتكذب المدعي يزعم « أنَّ المصادر تجهل كل شيءٍ عن أم أيمن قبل أن تكون جارية لعبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ! « وكَذبَ الأستاذ الفاضل لأنَّ رجلاً مثلاً كمحمد بن سلام الجمحي صاحب «

طبقات فحول الشعراء «حين ذكر الزبير بن عبد المطلب الشاعر، ذكر أنَّ مما صح من شعره قصيدته التي يقول فيها:

ولولا الحُبْشُ لم تلبس رجالٌ ثياب أعزةٍ حتى يموتوا

ثم قال: وقال قومٌ لولا الحُمُس «وليس بشيء إنما هي» الحُبُش «يعني أنهم أخذوا ثيابهم ومتاعهم، وذلك حين جاؤوا يريدون هدم البيت فردهم الله وكانت «أم أيمن» منهم غنمتها قريش وهي أم أسامة بن زيد)

قلت: الحُمُس لقبٌ لقريش لأنهم كانا يتشددون في دينهم.

وقول شاكر: (الأستاذ الفاضل) فيه لسعٌ موجع لهذا الكذَّاب، قلت: والأمر الممجوج هو التظاهر بالإنصاف والصدق عند زاهر رياض وذلك بكثرة صلاته وسلامه على الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا تودد مغسولٌ غشٌّ بّينٌ للقارئ المسلم الذي يريد زاهر التعمية عليه متظاهرًا بالإنصافَ؛ وهو يكتب بكفٍ مرتعش لا يكاد يُمسك القلم؛ إذ كيف يصلي ويسلم على نبيٍ يكذب ما أُنزل عليه؟ !.

ومن سخريته الجادة قوله ص٢٣١: (. . . ولولا أنَّ هذا الكاتب يتحلى بالرزانة، ويحاول أن يراه الرائي متئدًا خفي الخطو، بلا عجلة ولا تهوُّر، لظننت أن هناك عجيبةً وقعت، فغيرت اسم « الدكتور لويس عوض » إلى اسم « الدكتور زاهر رياض « ! !

ومن سخريته أنه عتب على صحيفة الأهرام بسبب بعض ما ينشر فيها ثم قال ٢٧١ : (. . . ولكن مالنا ولهذا فالله الذي أنبت في الأرض العشب خلق له من الخلق ما شاء !)

قلت فيما سبق إنَّ من مجاري السخرية الجادة أن يتباله الكاتب فيما يقول ، وقد وقع مثل هذا ، وذلك وحين عيب عليه أن مسلكه سيؤدي إلى فتنة دينية وقومية ، قال في ص ٢٦٥ عن كتاب تحدث عن الأقباط : (. . . ويدينون بالمسيحية، ويؤدون شعائرهم الدينية باللغة القبطية . . . ورغم وقوعها تحت الحكم الإسلامي مدة ١٣ قرناً) ثم ميز آخر كلامه بتكبير الخط كما تشاهد ، ثم قال : (وبالطبع ليس هذا تعصبًا أو بعث فتنة قومية ، ولكن نقلي إياه هو « التعصب « وهو » الفتنة « أليس كذلك ؟)

ومن التبالـهِ لأجل السخرية ، ما ورد في ص٣٣٥ بشأن صحيفة الأهرام: (. . . فكأنها نظرت إلينا بعين الرحمة والإشفاق، وحبًا في إطالة آجالنا على الأرض ! فإن كان ذلك كذلك فليس لها منا إلا الشكر، وأن نسأل الله لها مضاعفة الأجر .)

تندَّرَ من بعض كلمات لويس عوض فجاء هذا بتعبير ساخر ص٣٤٥: (. . . وأنا مستعدٌ كل الاستعداد لأن أقدم بعض بدني لطبيب جراح لينفذ فيه مبضعه ، وأنا أسمع هذا البَرَد المتساقط على نفسي من كلمات « أجاكس عوض « وأرجو ألا أقول: « حَسْ « ولا « بَسْ « حتى تتم الجراحة بالنجاح المرموق إن شاء الله .

في المقالة الثانية والعشرين ص ٣٨٧ تبين لي فيها أمران: نَفَسٌ وأسلوب أما النَفَس فيظهر بطريقة الإفصاح التي التزم فيها الشيخ إظهار الصحبة والمودة بينه وبين القارئ؛ فهو يثير جانبَ العاطفة معه؛ وأما الأسلوب ففيه دفءُ الحرف الذي ينقل هذه المشاعر؛ فهو يريد أن يأخذ قارئه مأخذ نجاة وهذا من لوازمه أن يسلك ألينَ

الطرق وأرفقَها؛ وهو في أولها يتحدث كأنما فُتِح له حجابٌ خفيفٌ من الغيب: (. . . وكم من كاتب في هذه الأرض، على اختلاف ألسنةِ أهلها، قضى عمره يستصفي للناس عصارة تجاربه في كلمات، ثم يخرج من الدنيا وكأنه لم يقل شيئًا ولم يكتب شيئًا، ثم يأتي على الناس زمانٌ فيجدونه قد أبرأ ذمته، وأدى للناس أقضى حقهم عليه ولكنهم ذهلوا عنه . . . فلم يأخذوا عنه إلا أهون ما يقول وأقرب ما يريد .فمن أجل ذلك، ومن أجل الأمانة التي أجدني أحملها ومن أجل أهلي وعشيرتي وجدته حقًا علي أن أفسّر شيئًا أخشى أن يؤدي ترك تفسيره إلى الإخلال بحق الأمانة) ولَا تسمعُ في هذه المقالة «صليل «القلم أو» قرع المحابر «فهو يريد أن يأخذ القارئ إلى صورةٍ عُمّيتْ عليه، ويكشفَ له مستورًا دُلِّس .

ثم يبيّن السبيل التي من خلالها أبان ما أبان ما حلَّله من كلام الكاتب الذي يريد أن يُحدِث عنه ص٣٨٩ : (أفليس من حق الناقد، أو ليس من واجبه أن يحلل ألفاظ الكاتب وأسلوبه وطرائق تفكيره وترابط عبارته وجمله حتى يتمكن من إعطاء «صورة «

كما يراها هو لا كما يراها الناس ؟ أليس هذا صحيحًا ؟ أظنُّ أنْ نعم !) وقد طبق هذا المنهج خير تطبيق .

ومن ثمار هذه المقالة للقارئ أنَّ الإنسان الناصح عليه أن يبين ما يرى، ويكلُ أمر الانتفاع ووقته إلى الله ، وهذا يأخذني إلى الاستشهاد بالمناظرة التي وقعت في مجلس المأمون بين عبد العزيز الكناني من أهل السنة رحمهما الله وبين بشر المريسي من القائلين بخلق القرآن ؛ فقد وقعت بين سنتي ٢١٢ــ ٢١٨ هـ، ولم يكتب لها الانتشار إلا العلني إلا سنة ٤٢٠هـ؛ ومن طبائع مسارب الأقلام أن تكون في بعض حالاتها تراوح بين الملاينة وضرَتِها بحسب ما يقتضيه المقام .

ورأيته طبق هذا المنهج في كلامه عن لطفي السيد حيث قال ص ٢٠٨ : (والمس وراء ألفاظه ادعاءَ زكانةٍ ليست في الطبع . . . وكلماته توحي لي دائمًا بصوتٍ له همهمة غامضة تخفي أكثر مما تعلن) حيث أبدى ما يراه خفيًا مستورًا في نفس الكاتب من خلال ما استوحاه من دلالةٍ في ألفاظه .

وحين أطبق هذا المنهج عليه هو من خلال كلامه عن لويس عوض وطه حسين، فأحاول ان أتبين شيئًا خفيا في نفسه من خلال التذوق لكلامه فإني لا أجد حرمة الدين التي لطه حسين وأجد كذلك أنه مع طه حسين يراعي حرمة التلمذ وإن لم تطُل وهذا مستنبط من عبارته معهما .

ومن مواقع سخريته الجادة ص١٤: (. . . فكان من رحمة الله بنا وبالناس أن سخر لنا «أجاكس عوض« حتى يُحدِث لنا وجود اسمه وتكراره طرفًا من الانبساط و» الفرفشة « يتخلل ما نعاني من جد الحياة وما ينبغي أن نحمل من أثقالها)

ومن أساليبه التندر على الطرف الآخر، والإضحاك منه:

وذلك أنه في أثناء إبانته لهُزال وضعف التوثيق عند لويس عوض فيما يخص نقض الخبر عن راهب دير الفاروس ، قال متندرًا ص ٥٨: (. . . [تحفة] هذا ما أوقفنا عليه ابن العديم ، ثم أخذ يتندر بأسلوب إثبات المعلومة حيث قال لويس عوض عن أبي العلاء: (. . . والحق أنه لا يُعرف شيءٌ عن تعليمه الرسمي [

يا سلام ما أفصحك ! ! الرسمي مرة وحدة] حتى سن العشرين وهي سن التكوين [خذ بالك من فضلك] إلا أنه تعلم في حلب، ثم في أنطاكية ثم في اللاذقية [بالطبع بالطبع] ثم طرابلس ، ومثل هذا الغموض الذي أحاط بتكوينه العقلي [يا أستاذ !] حتى سن العشرين، يحيط أيضًا بحياته كلها فيما بين العشرين والخامسة والثلاثين [مهلاً يا موسيقى القِرَب، وحنانيك يا ريكاردوس قلب الأسد] انتهت التحفة)

ثم نقض بأسلوبه الجاد ما ذهب إليه لويس عوض من رخاوة التعلم والطلب عند أبي العلاء، فاستفاض بذكر أصناف العلوم التي أحاط بها أبو العلاء من قراءة القرآن إلى علم القراءات إلى اللغة . . . إلخ.

ثم تؤوب إليه السخرية الجادة فيقول بعد ذكر بيتين لأبي العلاء : (ومن عرف معاني الشعر = [لا أعني شعر بلوتولند ، ولا شعر حوار فهذا شيءٍ خارج عن طاقة ذوي العقول . . . أستغفر الله ، كيف أفسّر هذا لأستاذ جامعي قُدموس» قديم «)

ومن التندر ما ورد في ص ٨١ ـ ٨٢ قال لويس عوض: (. . . غير أنَّ التفاصيل الواردة في فردوس دانتي توحي بأنه اقتبس أيضًا من القرآن الكريم ومن رسالة الغفران . . . فتصويره للوردة السماوية « وهي مريم العذراء روزا مستيكا « يوحي بأنَّ له صلةً بما جاء في سورة الرحمن ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ وقد اتخذ دانتي من وردة الفردوس رمزًا لمريم العذراء . . .) بُمّ بُمّ انتهت الفرقعة، وسأتولى ترجمة كلامه (. . . أنا لويس عوض أستاذ محنك جدًا، أنا مفرط الذكاء « الوردة السماوية مريم العذراء من سورة الرحمن « وردة كالدهان « إنها روزا مستيكا . . . أنا ذكي نعم أنا لويس عوض ترجمات عن إسبانيا وصقلية لِمَ لا؟ رموز المعري عنده وردة أيضا . . . الوردة السماوية في القرآن، وجدتها أنا وحدي أنا لويس عوض) (. . . أيُّ مجنون يطيق أن يتكلم بهذا في كتاب يقرأه ملايين البشر، فيأتي هذا التالف فيلعب بألفاظ لغته . . .)

ومن عجائب أساليب نقضه للأخبار التي يرى أنها موضوعة، خضخضةُ الخبر حتى تتساقطَ منه القوادح ليريَها القارئ ويُسمعَ السامعَ صوتَ وقعها؛ فهو يعزو تكذيبه الخبر إلى ما يفهمه من أساليب العربية وتمكنه منها وقدرته على المواءمة بين ألفاظ الكاتب حتى إذا رأى لفظةً قلقة لا تشبه ما قبلها ولا ما بعدها ولا هي مما عُرف من أسلوب المؤلف عد هذا قادحًا في صدق الخبر، وكذلك إلى ما يعرفه من سِيَر الرجال، وأنَّ محدث القِفطي أراد أن يطرفه [بعد أن سمع وقيعته في دين شيخ المعرة]؛ ومن هذا ما استنبطه في ردِ رحلة أبي العلاء إلى طرابلس ص٦٦ـ٦٧ (. . . ففي هذا الخبر جملةٌ تدل على واضع الخبر من أي الطبل هو؟ [أي، أي الناس هو مرةً أخرى] . . . فأبو العلاء لم يرحل قط إلى طرابلس . . . فنحن نقرأ كتاب القِفطي جميعه، ولا نكاد نجد لها مثيلاً في الركاكةِ والسقم في كتابه كله . . . قال محدث القِفطي: . . . وحصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به فعَلَق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال فقوله: [وحصل له به شكوك ثم

حصل به بعض الانحلال] كلامٌ لا عربية له إنما هو من لهجة علوج الشام وزواقيل الجزيرة ولا شيء غير ذلك) قلت : وهذا غوصٌ أثمر استنباطًا لا يدركه إلا من جرت العربية منه وأساليبها مجرى الدم ، وكان رحمه الله كذلك وهذا من أبين الأمثلة على تطبيقه منهجه في «التذوق»

وقد أفاض في ص ١٩ ـ ٤٩ في تحليل جملة (فاجتاز باللاذقية ونزل دير الفاروس) تحليلا لغويا أبطل دلالة الخبر على إطالة الإقامة لأبي العلاء في دير الفاروس: (. . . خرجت من داري فاجتزت بدار فلان؛ فمعنى ذلك أنك مررت بها وخلفتها وراءك غير متوقف؛ ولا يكون معناها أنك نزلت داره وأقمت بها) ؛ وقوله: [فنحن نقرأ كتاب القِفطي جميعه ، ولا نكاد نجد لها مثيلاً في الركاكةِ]

قلت : هذا التزكية بعلو لغة القفطي ألا توحي بأنَّ الخبر بحروفه هذه مدسوسٌ على القفطي ؟ أي أنه لم يروه بكتابه ولم يخطه بيده؛ وإنما كُتب بعد وفاة القِفطي رحمه الله وسيكون أوقعَ في القبول

وأخفى في الدس حين عرفنا حيف القفطي على أبي العلاء؛ فهذا مما يغري الداس بدس الخبر .

ومن أساليبه أنه يدفع قلمه إلى السخرية وإلى إظهار هوان من يستحق الهوان ، فيرخيه في التنقص والاستهزاء ، قال في ص ٨٩ـ ٩٠ (. . . فإن له « يعني لويس عوض « فضيلةً وفضلاً . أما فضيلته فإنه مريحٌ جدًا لمن يُحسنُ أن يستخدمه . أرأيت الدمية التي تدير مفتاحها لتملأها ، فإذا هي تحرك يديها وتمشي برجليها وتترنح أحيانًا وتعتدل . . . فإنه جمع . . . ضروبًا من الخطَل والنزق واللكاعة والهوج والخُباط) . . .

ومن السخرية الجادة قوله حين شكك زاهر رياض ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [إنَّ ملك الحبشة ملكٌ لا يظلم عنده أحد . . . ولكن من أين عرف النبي ذلك ؟] قال بعدها شاكر: « سؤال مهم جدًا لا يستغني عنه كتابه الفريد في نوعه ! «

ومن نقضه بأسلوب التندر، قال في ص ٢٨٠ : (. . . وقرأت فيها «الأهرام« كلمةً عليها توقيع الأستاذ الكبير توفيق الحكيم. . . فإنَّ الأمر قد اختلط علي اختلاطا شديدًا . . . وراودتني نفسي أن أقوم فأذهب إلى لويس عوض، وأسأله أن يرفدني ويعينني ببعض هذا «السائل« الذي أُغلقتْ عليه جمجمته فإني رأيته نافعًا للفهم ميسرًا للطبيعة، صالحًا معينًا على إدراك الخوافي والغوامض)

وفي نقضه يسلك أحيانًا مسلك التذييل فبعد أن وثَّق إبطال خبر دير الفاروس المتعلق بأخذ أبي العلاء ـ رحمه الله ـ من راهب دير الفاروس وأنَّ هذا الأخذ أصابه بشكوك في دينه لم يستطع دفعها، قال ص١٠١ : (. . . فمثل هذا الخبر إذا جاء وعُرف بطلانه . . . وجب على الدارس أن يلتمس العلة التي من أجلها وضع الخبر واضعه . . . أنه خبر زيفه علجٌ من علوج الشأم، أوزاقول من زواقيل الجزيرة ثم ألقى به إلى القفطي « ٥٦٨ـ ٦٤٦ هـ «بعد وفاة أبي العلاء بقرنين تقريبًا ليطرفه به «على سبيل الفكاهة» لما رأى من حيف القفطي على شيخ المعرة وحرصه

على مذمته فلفَّق له هذا الخبر مريدًا تحقير أبي العلاء ووصفه بالضلالة وسخف العقل، إذ تمكن من إضلاله، ـ وهو طالب علم صغير ـ راهبٌ يشدو شيئًا من علوم الأوائل، وكأنه أراد أن ينقض به ما كان يقال ويذكر من ذكاء هذا الفتى الأعمى في صغير، مما رواه القفطي نفسه في ترجمته لشيخ المعرة.)

وهذا التذييل ثمرةُ من اطمأنَّ بالدليل القاطع إلى صحة ما ذهب إليه، وهو منهج شاقٍّ وقليل من يُهدى إليه؛ فهو يحتاج إلى إنعام نظر لما أحاط بالخبر وتحسس جوانبه والتدسس والتشمم للألفاظ وهو مسلك ينبغي أن تذاع وتشاع طريقة الوصول إليه لحاجة بعض النصوص إلى الوقوف على حقيقتها، وهو من دلائل نباهة الباحث واحتفائه بالقارئ وحرصه على الحقيقة.

ثم ذكر حالةً لأبي الطيب مشابهة لما رُمي به أبو العلاء رحمهما الله، من أنَّ أبا القاسم الأصفهاني، ألف كتابًا لبهاء الدين البويهي ليرضيه ويشفي غليله في أبي الطيب فكتب فيه ما يلي ويعني المتنبي: (وهو في الجملة خبيث الاعتقاد، وكان في صغره

وقع إلى واحدٍ يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة ، فهوَّسه وأضله كما ضل)

والسخرية الجادة؛ ركنٌ ركين في أساليب نقضه ، ومن أراد الاستزادة بغير ما ذكرتُ له فعليه بكتاب « أباطيل وأسمار « ففيه بغيةُ المبتغي لهذا الأسلوب، وقد رأيت أنَّ المقالة السادسة عشرة بُنيت كلها على السخرية الجادة .

ومن أساليبه في النقض أسلوبٌ سميته « أسلوب المدارسة «

وقد استشففته من مدارسته لكتاب « العالم والغرب « لـ «أرنولد توينبي « فقد وقف وقفَاتٍ تحليلية ، وأخرى ناقش فيه معترضًا وأخرى وقف مؤَيدا إلا أنَّ أسلوبه مختلف حتى فيما عارض فيه توينبي فلا تكاد تجد في عبارته حين يعارض توينبي أو يرد عليه ما كنت تجده في عبارته مع لويس عوض ؛ لاختلاف الباعث فيهما ؛ فهو مع لويس عوض أمام آدمي له مآرب خبيثة يسعى إلى تزيينها وبثها والركون إليها ؛ ويسعى الشَّيخ إلى هتكها وإبصار الناس بها ؛ لهذا نجد أنه يأنف ويستنكف من أن تسمى ردوده على لويس

عوض مساجلة كما مر سابقًا؛ أما مع تونبي فهو يدارسه بمنهج: [من يؤخذ من كلامه ويُرد] ؛قال عن توينبي وكتابه في ص ١٨١ وما بعدها: (. . . فإنه نظر إلى المسألة نظرة مجردة ، وإن كانت لا تخلو- بلا تثريب عليه - من الفكر الذي يعد نفسه سيدًا في هذه الأرض . . . . سأنقل عنه ما يدلك على هذه الصورة التي رسمتها وعلى أنَّ اللغة الفصحى التي يراد هدمها وإزالتها ليست من الهوان . . . ومن البيّن أن مؤرخًا مثل « توينبي « لا يلقي القول جزافًا في أمر هو من صلَب مادته. . . كان ينظر كعادته من خلال عقيدته في الحضارة الغربية المسيحية، كما فعل معذورًا أو غيرَ معذور كل مفكرٍ أوربي ، وهي أنَّ السيادة التي بلغتها الحضارة الأوربية في كل شيءٍ ، خاضعةٌ لطريقة العيش الغربية ؛ وأن النهضة والإحياء لا تتم إلا باعتناق مبادئ الحضارة الغربية ومهما بلغ عقل « توينبي « وذكاؤه فإنَّ هذا لا يمنع من أن يكون رأيه فاسدًا في مثل هذه الأمور . . . وينبغي أن يكون واضحًا أننا لا نسلب الناس فضائلهم من أيِّ أهل لسانٍ كانوا ، ومن أي أهل ملة نعرفها ؛ فهو بعد أن حلل

موقف تركيا من الحضارة الغربية قال: وهناك بدون شك أفكار ومؤسسات غربية أخرى هي أبعد بكثير من أن تكون حسنات، سنكتفي بذكر واحدة منها فقط، هي الفكرة القومية؛ والأتراك كسائر الشعوب الإسلامية انتقلت إليهم عدوى القومية مع غيرها من المفاهيم الغربية الصالحة منها والطالحة. . . وتونبي أحد أكبر أذكياء المؤرخين، وعلمٌ من أعلامهم . . . ولكنه حين درس المسألة التركية وحللها، كان خاضعًا خضوعًا تامًا لوراثة قومه عداوة الترك ومع كل ذلك فقد كان الرجل صادقًا في نظره وإن أساء في تصويره المسألة التركية؛ ولذلك لم تحجبه هذه العلة القادحة في بعض نظره من أن يُفضي إلى نتيجةٍ صحيحة . . . ولكن لو كان « تونبي «أعاد النظر وهو بريءٌ من داء قومه في التفرقة العنصرية، لعلم أن الأمر كان على غير ما يتصور، وعلى غير ما يراه اليوم في ظاهر أمر هذا العالم الإسلامي بعد البلاء الذي نزل به من مكايد أهل جلدته وملته . . . ومصطفى كمال أتاتورك الذي يزعم تونبي أنه قدم بالشعب التركي خدمةً كبرى « بالشعب « هكذا في

الكتاب ولعلها «للشعب» . . . قد أساء إلى الشعب التركي غاية الإساءة؛ لأنه عاق سير التاريخ ودمر بنيان الماضي . . . وتوينبي نفسه يعرف هذا ، وكلامه دالٌّ عليه) .

وهو ألين جانبًا وأخفُّ عبارةً حين يخالف توينبي : (وإن كان مما يكبر عليه أن يقوله صراحة) (. . . وقد تنبه توينبي إلى اللغة الفصحى، وأنها هي الرباط الوثيق الذي يمنع البلاد العربية من التفكك . . . وكلامه دالٌّ أيضا على معرفته تمام المعرفة أنَّ أية محاولة لاتخاذ « لغة التخاطب « في كل منطقة من هذه المناطق واستبدالها بالفصحى ، مؤدٍ بلا ريب إلى أن يتفكك العالم العربي . . . فإذا صح ذلك ، وهو صحيح، فاللغة الفصحى التي ذكرها» توينبي « وبيَّن أنها الرباط الوثيق الذي يمنع العالم العربي من التفكك . . . كما تنبه إليه « توينبي « أيضًا فإنَّ هذه المعركة لا يمكن أن تُعدَّ معركة أدبية مجردة من العوامل السياسية والدينية . . . وكل الذين يغفلون عن هذه المعارك ويعدونها معارك أدبية ! ! أي معارك ألفاظٍ ، كالدكتور مندور وأشباهه، إنما يخاطرون بمستقبل أمم قد أتمنوا عليها)

أطلت بنقل هذا الاستشهاد لتعدد ما جاء فيه من جوانب المخالفة والموافقة ؛وهذا الأسلوب من أساليب نقضه جدير بالوقفة والتحليل ؛ إذ هو أحد الأساليب التي يبسط فيها رأيه ، وفيه ما نفرق به بين أسلوب المدارسة وأسلوب الرد؛ فقد حفظ حق « توبني « فيما رآه صادقًا فيه لكنه لم يشأ أن يدع هذا على إطلاقه؛ لأنه كما قال عنه قبل هذا : [كان خاضعًا خضوعًا تامًا لوراثة قومه عداوة الترك] ، وهو في مدارسته هنا لا يردُّ الرأي كله بل هو يوافق عليه في الجملة بل قد يشيد بصاحبه، ولكنه يختلف معه في الأطراف ؛وقوله : [ومع كل ذلك فقد كان الرجل صادقًا في نظره وإن أساء في تصويره المسألة التركية] فوله : [فإنه نظر إلى المسألة نظرة مجردة] فيه إشارةٌ إلى أنَّ سلامة النظر هي التي ينبغي أن يكون عليها الباحث ، وقوله : [وإن كانت لا تخلو- بلا تثريب عليه ــ من الفكر الذي يعد نفسه سيدًا في هذه الأرض] تنبهٌ منه وتنبيهٌ للقارئ بأنَّ الحيطة وعدم التسليم مما يجب أن يأخذ به الباحث والقارئ ، ويُضم إلى هذا الاحتراس قوله : [. . . كان ينظر كعادته من خلال

عقيدته في الحضارة الغربية المسيحية] كذلك يُضم هنا قوله : [ومهما بلغ عقل « توينبي « وذكاؤه فإنَّ هذا لا يمنع من أن يكون رأيه فاسدًا في مثل هذه الأمور] ومن إنصافه لـ « توينبي « وغيره قوله : [. . . وينبغي أن يكون واضحًا أننا لا نسلب الناس فضائلهم من أيِّ أهل لسان كانوا ، ومن أي أهل ملة نعرفها] ثم خالفه مبينًا سبب المخالفة : [ولكنه حين درس المسألة التركية وحللها ، كان خاضعًا خضوعًا تامًا لوراثة قومه عداوة الترك] كذلك عارض توينبي في رأيه أن أتا تورك قدم للشعب التركي خدمة؛ فقال عن أتا تورك : [قد أساء إلى الشعب التركي غاية الإساءة؛ لأنه عاق سير التاريخ ودمر بنيان الماضي] أثنى على موقف تو نبي من أهمية اللغة الفصحى، ثم ختم هذه المدارسة ببيان أنَّ معركة الفصحى والعامية ليست معركة أدبية بل هي سياسية دينية؛ وحين عزا تونبي أخوة المسلمين إلى تقاليد مورثة علّق الشيخ قائلاً : (إنه ليس تقليدًا بل هو دينٌ نحن مسؤولون عنه يوم القيامة بين يدي رب العالمين)

قلت : والفرق بين الدين والتقاليد ؛ أنَّ الدين ثابتٌ من يوم أنزله الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ أما التقاليد فتتبدل من

قوم إلى قوم ؛وفي القوم أنفسهم من جيل إلى جيل ؛ وهذا أمرٌ تصدقه المشَاهدة والتجربة ؛ فلو أخذنا الزواجَ مثلاً لهذا فإننا نجد أركان عقده ثابتة عند جميع المجتمعات المسلمة لأنها دين لا تقاليد ؛ بينما مراسيمه تختلف وتتباين لأنها تقاليد تجري بها أعراف الناس .

ومن مواضع إنصافه ما ورد في كتابه : « نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف « وهو كتاب دار حول قصيدة [إنَّ بالشّعب الذي دون سلْع « ص٣٠٦ وما بعدها ؛ حين قال جوته : (أَروع ما في هذه القصيدة» في رأينا أنَّ النثر الخالص الذي يصور الفعل يصير شعريًا بواسطة نقل الحوادث من موضعها) قال شاكر : (لله درُّ جوته ما أبصره بالشعر . . . هذا كلامٌ جليل وفوق الجليل ! كأنه سنانٌ نافذ ، استطاع هذا الأعجمي العبقري أن ينفذ إلى هذا العمق من خلال ترجمة لا تبينية لهذا الغناء العربي الفخم ، وبأي بصيرةٍ لماحةٍ استطاع أن يغوص فيلمح ما أضاعته الترجمة من الأسرار المعقدة الكامنة في الأنغام)

توشية

من الإخلال بالأمانة العلمية والتعمية على القارئ في مباحث الردود أن يقول الراد: هذا فحوى كلامه؛ فالإنصاف يوجب عليك أن تنقل نص العبارة ثم تتبعها برأيك؛ ليكون القارئ على بينةٍ ويأخذ حظه من المدارسة ومن ثَّم الموازنة بين الآراء؛ فيذهب إلى الرأي بعد استبانة.

من قواعد تصيُّد العلم وحسن الطلب عند عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابه دلائل الإعجاز» أخص شيءٍ يطلب ذلك فيه الكتب المُبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة» يقصد عليه رحمة الله كتبَ الأصول الأولى لأي علمٍ من العلوم التي استقرأ فيها العلماء كلامًا وقعَّدوا قواعد علمٍ جديد من العلوم.

الفصل الخامس
موازنة بين أسلوبه في النقائض وبين أسلوبه في غيرها

قلت فيما سبق : « فقلم الشيخ حَمْلٌ وديع ما لم يُنل جناب الدين أو التراث أو تهمز قناة العربية ، فإذا وقع هذا استحال ذاك القلم نابًا في فك أسد ، فيبدو أنَّ قلمه يستحصد أكثر عند الإثارة، وأنه إنما يعلو بيانه حين يُدفع إلى مضايق القول دفعًا « فما حال قلمه عندما يكتب ابتداءً ، أو حين تكون كتابته لا نقض فيها في هذا المبحث ــ بإذن الله ــ سأبين الفرق في هذا .

في كتاب « أباطيل وأسمار « ص ١٠٧ كتب حروفًا يعتب بها على صحيفة الأهرام كيف تتيح للويس عوض وفي تسعة أسابيع متواليات أن ينشر شيئًا سماه بحثًا عن رسالة الغفران وشيخ المعرة؟، وأنه كان ينتظر أن تعلن الصحيفة براءتها من هذا، ومما جاء في كتابته : (كنت أتوقع أن تبادر صحيفة الأهرام إلى البراءة مما نُشر في صفحاتها الأدبية تسعة أسابيع متواليات، بتوقيع لويس عوض ، وهو الشيء الذي سماه [بحثًا] يتناول رسالة الغفران لشيخ المعرة وأُحبُّ أن أجعل الأمر واضحًا من جميع نواحيه، وقبل كل

شيء فمنزلة صحيف الأهرام في حياة الأمة العربية ثم الإسلامية وهم ثمانمئة مليو منزلةٌ عظيمة جدًا وعظيمة الأثر في حياتنا منذ الطفولة . . . وسيزداد على مر السنين يوم تنهار الحواجز التي فرضت علينا في القرون الأخيرة ففصلت بين شعوب العرب وشعوب الإسلام، وحصرت لغة العرب في دائرةٍ ضيقة . . . وكان هو اللسان الأول فيها . . . ولا شك أنَّ ذلك كائنٌ إن شاء الله كما كان وعلى العرب اليوم أن يحملوا العبء كله لإعادة ما كان كما كان)

وحين نقرأ هذه الحروف نجد البون شاسعًا بينها وبين ما كتبه في الصفحات السابقة من حيث قوة العبارة وعمقها، وحرارة العاطفة، وعنفوان القلم؛ فقد افتتح كلمته هذه بالتماس ابتداءه ببيان منزلة صحيفة الأهرام في حياة الأمة العربية والإسلامية كما يراها هو أو كما صورها لهم أعني القائمين على الصحيفة، ودعك من هذه المنزلة التي أنزلها صحيفة الأهرام؛ فلم نسمع بهذا ولا أظن أنَّ لها هذا الأثر، وقد يكون كتب هذا ليستعين به على قبول رأيه وتبنيه أو كما يريدها أن تكون، ثم يأخذ بكلام يبين فيه المآل

الذي يرجوه لأمته ، ولو تقرأ مثل هذا بكتاب لم ينسب إلى محمود شاكر فلا أظنك قادرًا على نسبته إليه لما يظهر من فرق الأسلوب الجاري عليه في نقضه ورده من قوة العبارة وعنفوانها ، يمضي بهذا الأسلوب الفارق الذي تقرأه وأنت باردُ المشاعر قارٌّ العاطفة ، لكنه لا يلبث أن يعلو أسلوبه حين يعلو نَفَسه فيقول في ص ١١٠ : (ولقد بينت . . . أنَّ هذا الرجل أرد أن يوهمَ الناس بأنه أستاذ جامعي . . . استطاع أن يدخل هذه الدراسة وعليه طيلسان أستاذ جامعي وإن كان هذه الطيلسان عندي في الحقيقة كلباس الفرزدق حين جاء للقاء جرير ، في الديباج والخز ، وجاءه جرير في لباس المحارب متقلدًا سيفه وفي كفه الرمح فوصف ذلك جرير فقال:

لبستُ سلاحي ، والفرزدق لُعبةٌ   عليه وشاحا كُرَّجٍ وجلاجله

[الكُرَّج] بضم الكاف وفتح الراء المشددة ، دميةٌ يلهو بها الصبيان تُزين بالوشي وتعلق عليه الجلاجل والأجراس] .

وتاريخ المقالة التي عاتب فيها صحيفة الأهرام [الخميس ٢٧ شعبان ١٣٨٤هـ] ثم كتب في هامش ص ١٢١ : (لم تفعل جريدة الأهرام شيئًا إلى هذه الساعة سنة ١٩٧١م ، بل لعلها فعلت عكسه وكيف نرجو شيئًا إذا كانت أمور الأمة العربية متروكة للأهواء !) وقال في هامش ١٢٧ عن استمرار الدعوة في هذه الجريدة إلى العامية: (مضت بضع سنوات ولا يزال هذا حادثًا إلى اليوم أغسطس ١٩٧١م)

قلت: لا ننسَ أنَّ مؤسس الجريدة هو « بشارة تقلا « وهو من نصارى لبنان فالأمر من منشئه كان على غير هدى؛ وقد ذكر في ص ٢٦٩ : (يقول أحمد عرابي عما لقي في سجنه بعد هزيمته « وبعد ساعة جاء ليزورَني بشارة تقلا محرر الأهرام وظننت أنه قدم ليعزيني ويبدي عواطفه نحوي . . . ولكنه لما دخل علي توقَّح أشد التوقُّح . . . ورأيت أنَّ الرجلَ خائنٌ ولا شرف له) وبعد أن نقل شاكر ما قال عرابي قال : (ولكن يقول بعض الناس من الثقات إنَّ بشارة تقلا بصق في وجهه شامتًا وطالبًا لشفاء ما في صدره !)

فما أجد بعد هذا سببًا يدعو إلى استنهاض الصحيفة فهي بنيت لغاية وتسعى إلى تحقيقها؛ وليس من غايتها حفظُ اللسان أو الذب عن تاريخ المسلمين.

ومن مواضع الفروق في أسلوب نقائضه أنَّه يختلف إن كان المردود عليه من أهل الملة، حتى وإن كانت القضيةُ واحدة؛ فمن هذا ما كتبه رادًا على رفاعة الطهطاوي رحمه الله حول الدعوة إلى العامية والكتابة بها؛ وعن رده على «ولهلم سبيتا »ص ١٣٠ ـ ١٣٣ فكان مع الطهطاوي أبردَ حرفًا وأحفظ للود والمكانة؛ حيث قال: (ثم أرسلت البعثات إلى فرنسا سنة ١٢٤٢هـ [١٧٢٦م] فكان ممن رافق هذه البعثات، شابٌّ في الخامسة والعشرين من عمره كان ممن تلقى علومه في الأزهر... وكان الرجل ذكيًا سليم الطوية، وفيه غفلةٌ يسيرة أو شديدة جعلته أحيانًا يقف كالحائر فاغرًا فاه... فلما عاد إلى مصر ألف وترجم، فكان مما ألفه كتابٌ سماه [توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل... فعقد فصلاً ذكر فيه فضل العربية ووجوب إحيائها، ولكنه ضمنه دعوةً إلى

استعمال العامية . . . ولكني لا أكاد أشك أنَّ هذا الرأي الذي وقع فيه رفاعة الطهطاوي ، لم يكن رأيًا استحدثه هو، بل جاءه أيام كان مقيمًا مع البعثة بفرنسا ، غرَّه به داهيةٌ من دهاة القوم، عرف ما يكن رفاعة لبلاده من حب التقدم، فلم يزل به حتى أراه الباطل حقًا) وقوله عن رأي الطهطاوي : « وقع فيه « أرى أنَّ اختيار هذا التعبير الدقيق فيه مع تخطئة الرأي وخزٍ بأنَّ الرأي أتاه على حين غرة وغفلة وأنه قال به من غير تدبر لمغبته فكأن الرجل كان يمشي على هدى فعثر على حين غرة؛ أقول هذا لما أرى عنده من العناية في اختيار الألفاظ الناقلة للمعاني التي يريدها ؛ وسيأتي بعد قليل قوله عن محمد مندور : « إذا كان الدكتور مندور مستهينًا بالألفاظ التي تجري على لسانه ، أفيظن أنَّ الناس يستهينون بعقولهم التي بها يفكرون « وكذلك حديثه عن ألفاظ : « الخطيئة ، الصلب، الفداء، الخلاص «

وقال عن « ولهلم سبيتا «: (كان يقبع بين جدران دار الكتب المصرية ماكرٌ خبيث يقال له « ولهلم سبيتا «نزل مصر ،

وعاش في الأحياء المصرية ودرس اللغة العامية، ووجد أنها تختلف من بلدٍ إلى بلد فلما رأى هو ومَن يهدف إلى تحطيم حركة الإحياء من أهل الاستعمار الأوربي . . . سارع إلى تأليف كتاب سماه « قواعد اللغة العامية في مصر» . . . وبيّنٍ جدًّا أن ولهلم هذا مخادع عظيم . . . وظاهرٍ أنَّ جميع التالفينَ قديمهم وحديثهم كسلامة موسى ولويس عوض يكررون هذه المقالة بلا تغيير ولا تبديل)

قلت: فتمعن عبارته مع الطهطاوي ــ رحمه الله ــ يتضح لك الفرق .

ومن الاستطراد الذي دعا إليه هذا الرأي، أنَّ هناك نهجًا قام به بعض الباحثين من تأصيل الألفاظ العامية ومحاولة إعادتها إلى جذور فصيحة ؛فمن هذا كتابٍ بعنوان « الألفاظ العامية المصرية ذات الأصول العربية « وضعه الدكتور عبد المنعم سيد عبد العال ؛ ومن هذا ما قام به الشيخ محمد بن ناصر العبودي بتأليف كتاب وقع في ثلاثة عشر مجلدًا بعنوان (الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة: أو ما فعلته القرون بالعربية في مهدها) ومن هذا مشروع يعمل عليه « مجمع اللغة الافتراضي» بعنوان « الفوائت القطعية

والظنية» يقوم عليه الدكتور عبد الرزاق بن فراج الصاعدي ، ويهدف إلى جمع فوائت المعاجم من خلال تأصيل بعض الألفاظ العامية بالتعرف على جذورها الصحيحة ، ومن هذا كتاب « العاميات الفصاح في لهجاتنا العربية المعاصرة «للدكتور محمد بن يعقوب التركستاني»

ومن الموازنة بين أساليبه أنَّ هناك مستوى ثالثًا ، وهذا ظهر لي حين قرأت عزمه على ترك العزلة، فأراد أن يبين أسباب عودته للكتابة بعد انقطاع فقال: ص ١٤٤ـ ١٤٥ : (فلما جاء ما لا يسكت عنه لشدة خطره، ظللت أؤامر نفسي طويلاً أيَّ السبيلين أسلك ؟ فلما تبين لي الرشد ، حملت القلم وأنا على بينةٍ من طريقي طريقٍ لن يخدعني عنه أحدٌ بثناءٍ أو ذم، فكلاهما لا يغرني لا يرهبني ، وقلت لنفسي هذا إنسانٌ تعرفينه على وجه ويعرفه الناس على وجهٍ آخر ، تعرفينه بطول إلفكِ لأمثاله مخادعًا شديد الخداع ، ويعرفه الناس مخدوعين أشد الخداع ، فكان بيِّنًا لي أن أجعل همي كشف الزيف المفضي إلى الخديعة)

فنجد أنَّ هذا الأسلوب فيه الهدوء الذي يتطلبه البث لما يعتلج في النفس ، البث الذي ينبغي أن يتقبله القارئ بحسن التأتي من قِبل الكاتب؛ فهو ينقله له بطريقة وجدانية تجعل القارئ يشارك الكاتب فيما أهمه ، قوله : [ظللت أؤامر نفسي وقوله : وقلت لنفسي] هاتان الجملتان صنعتا رباطًا وجدانيا بين الكاتب والقارئ لما فيهما من البث المفضي إلى الإنصات لما سيقال وهي توطئةٌ لما سيُطرح ؛ وأرى أنَّ هذه التوطئة مما ينبغي الاستفادة منه للكاتب إذا أراد أن يضم رأي القارئ إلى رأيه؛ فيأخذ هذا المعنى ويصوغه بما يرى من حروف .

في حديثه عن خطر التبشير تجد حرارة العاطفة المشفقة على الدين ، وتجد استقصاءً للقضية، لكنك لا تجد اللفظة التي كانت تجري على لسانه فيجري بها قلمه حين نقضه لرأي يخالفه فهو هنا يُبِينُ عن خطط مدمرة ولا يقتبس جملا يبين زيفها ، فالعاطفة هي العاطفة والغيرة هي الغيرة لكن الأسلوب مختلف وهو يقول كلامًا لا تجد فيه محمود شاكر أو قلمه لأنَّ العبارة التي جعلها موصلةً

للفكرة مشتركة مع كل كاتب خط بقلمه عن هذا الموضوع؛ وهذ من الدلائل على أنَّ نقضه يختلف عن كتابته مؤرخًا أو محذرًا من قضيةٍ معينة ، وهو في كتابته عن التبشير وتتبع تاريخ التعليم الأجنبي يبين الخطر ولا يفند رواية ؛ كما كان يفعل مع تفنيد خبر راهب دير الفاروس ؛ فقد تتبع رواية القفطي حتى أسقطها ، ومن ثم يسقط احتجاج لويس عوض بها ، أو أثناء دراسته لقصيدة « إن بالشّعب . . . » وهذا لم يحصل في سياقه لتاريخ التبشير؛ فأسلوبه يختلف والحرف الناقل يتباين مع أنه صادقٌ في الأمرين ، لذلك تجد وأنت تقرأ في موضوعه هذا كأنك تقرأ في كتابٍ عن المذاهب المعاصرة أو في كتابٍ عن مقارنة الأديان أو خطر التبشير ؛ ومما كتبه هنا ص ١٤٨ـ ١٤٩ : (. . . ففي عصر النهضة الأوربية الأخيرة ، كان هناك عالَمان كبيران : العالم الأوربي المسيحي ، والعالم العربي الإسلامي كان الأول قد ساور أول الشباب حين انطوى دهرًا على نفسه يدرس ما حمل إليه الحاملون من تراث العرب والمسلمين في العلم والأدب ، وذلك بعد ارتداده إلى دياره منذ آخر حرب

صليبية. . . ولكن كانت تجارب الحروب الصليبية القديمة وحروب آل عثمان من الترك، قد دلت دلالةً قاطعة على أنَّ مواجهة العالم الإسلامي بالانقضاض المسلح لا تجدي إلا انبعاث قوةٍ متماسكة شديدة البأس والخطر، خليقةً أن تسترد شبابها . . . نعم كان هذا غزوًا، ولكنه غزوٌ خفيٌّ الوطء، بعيد المرمى، طويل الأجل لم يكن غزوًا بالمعنى الذي كان الناس يعهدونه يومئذ، أو الذي نعهده اليوم . . .) فعندما تقرأ هذا المقطع مستحضرًا عبارته في النقض تدرك الفرق بين الأسلوبين؛ ثم لنعودَ إلى كلامه عن كتاب التيجان لا بن هشام: « والشعر الذي فيه خليطٌ فاسد جدًا « وقال عن القفطي : « وهذا القفطي على كثرة حشده في جرابه صاحب تحف « وقال عن المرزوقي : « وههنا مثلٌ على ما يحدثه من يتولى الشعر بلا فطرة تؤهله « .

وسيظهر الفرقُ أجلى حين تقرأ بعد قليل: [كما بينت مرارا عن تزييف . . .] وأقول لك : إن تركت ما تقرأه الآن وتعجلت ما اشرتُ إليه فسيكون الجلاء أجلى .

وإذا شئت أن تستبينَ أمر الفرق بين أساليبه فاقرأ في ساعةٍ واحدة وفي مجلسٍ واحد المقالة الثامنة والمقالة التاسعة من كتاب «أباطيل وأسمار» فسيظهر الفرق بيّنًا، وهناك فرقٌ ظهر لي من قراءة المقالتين من غير ظهور هذا في الحروف والعبارات، فإنَّ هناك نَفَسًا خفيًا يحسه القارئ أدى إلى هذا الاختلاف، ولا تعليل لهذا عندي إلا اختلاف وتباين الحالة الشعورية للكاتب، بسبب اختلاف الباعث على الكتابة، وهذا يسري على كثير من الكتاب.

وقد نقلتُ طرفًا من المقالة الثامنة وهذا بعضٌ مما في المقالة التاسعة لعله يأخذك إلى تبيُّنِ الفرق بين الأسلوبين ص١٦١ وما بعدها: (مرة أخرى ثم مرة أخرى ثم مرة أخرى... ثم فوجئت بشيءٍ غريب جدًا، لم يكن مثله يخطر على بالي ولولا ما أجد من تبعة القلم ومن شعورٍ بحق قارئ الرسالة علي لما شغلته به... وذلك أني رأيت الزميلَ محمد مندور قد أنشأ كلماتٍ حول شيءٍ سماه «معاركنا الأدبية» ألقى بعضها في الإذاعة، ثم نشرها في مجلة

« روز اليوسف» فكتبت إلى مجلة « روز اليوسف « كلمةً مختصرة أردُّ عليه مقالته حيث نشر كلامه . . . زعم الزميل القديم أنَّ هناك « معركتين تدوران في الصحف وفي المجلات إحداهما حول الشعر، والثانية حول أبي العلاء المعري وتراثنا القومي كله « ! !وبعد أن أفاض فيما قال عن معركة الشعر التفت إلي كي يقول: « ولسوء الحظ عاصرتْ هذه المعركة الضالة ، معركةٌ أخرى أثيرت حول ما كتبه أحد كبار مثقفينا عن أدب الرحلة في العالم الآخر» ويعني بذلك لويس عوض وأنا بلا ريب، لا أنكر على الدكتور مندور حقه في أن يصف لويس عوض بما يشاء؛ فهو مسؤول عما يقول، ولكن أنكر عليه أن يُسَمي هذا الذي أكتب»معركة « فهذه مبالغة لا أحمدها له، فإن الذي اكتبه ليس « معركة « بل هو كما بينت مرارًا : كشفٌ عن تزييف إنسان يحمل لقبًا ، لا أدري كيف حمله ، غرَّ بعض الناس حتى زعموه « مثقفًا « وليس به، بل هو مخرقٌ عظيم المخرقة على الناس . . . فيأتي الدكتور مندور فيقول : إن لويس عوض اجتهد في البحث . . . إذا كان الدكتور مندور مستهينًا بالألفاظ

التي تجري على لسانه، أفيظن أنَّ الناس يستهينون بعقولهم التي بها يفكرون ؟ ثم من يكون لويس عوض هذا حتى أرتكب له هذه الخساسات التي ينسبها إلي زميل قديم ؟ وإذا كان هذا الإنسان معدودًا عند الدكتور «أحد كبار مثقفيه هو» فهل يظن أن أحدًا يوافق على أنَّ هذا الخلق الذي لا يمثل شيئًا يمكن أن يمثل «طائفةً قومية» و «فرقةً دينية» حتى يكون ما يكتب عن كشف زيفه، وإماطة اللثام عن نكارة وجهه، واضطراب تفكيره واختلاط عقله سببًا في إثارة فتنة قومية دينية ؟ هذا عجبٌ فوق كل عجب ! !) والمقالة طويلة فيه تفصيل أكثر مما نقلت لك.

قوله: (قد أنشأ كلمات) يوحي أنه غيرُ راضٍ عن الأسلوب الذي جرى به قلم مندور من حيث المنهج والبلاغة والفكرة، وهذا من أساليب نقائضه التي يُشم منها إعداد ذهن القارئ لما سيكون.

وقوله: (حول شيءٍ سماه «معاركنا الأدبية») تشمُّ من هذا عدم موافقته لما قيل واستنكافه من هذه التسمية، وفيه تباين

الفهمين بين مندور وشاكر يصف مندورًا أكثر من مرة بأنه « زميل قديم « وفي هذا ما يشير إلى انفصام ومباعدة ما كان بين الرجلين .

ومما يثبت أنَّ المعركة معركةً دينيةً لا أدبية أنَّ لويس عوض قرأ بيت أبي العلاء الذي يقول واصافًا الإبل:

صليت جمرة الهجير نهارًا ثم باتت تغص بالصِّليان

قرأه قراءةً دينية ظهر منها ما كان يخفيه حيث قال إنَّ البيت:

صليت جمرة الهجير نهارًا ثم باتت تغص بالصُلبان

والصلبان جمع صليب لكن صحة البيت هي : « الصُليان « قاله عنه الشيخ شاكر: [وهونبتٌ له جذوره ضخمة في الأرض، تجتثها الإبل بأفواهها فتأكله من شدة حبها لها ، فإذا كانت رطبةً أساغتها وإذا كانت يابسةً غصت بها أي شرقت] فلويس عوض جرى في ذهنه أنَّ معنى « تغص « أنها ممتلئة الصلبان ؛ ولكن المعنى الذي أراده أبو العلاء رحمه الله : أنَّ الإبل تغصُّ به أي لا تسيغه إلا بمشقة .

قلت: وهو معروف وله مَثَلٌ أجرته العرب في أمثالها ذكره الميداني رحمه الله في مجمع الأمثال بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد رحمه الله، برقم ١٠٩١: («حَوْلَ الصِّلِّيَانِ الزَّمْزَمَةُ»، قال أبو زياد: الصِّلِّيان من الطريفة ينبت صُعُدا، وأضخمه أعجازه على قدر نبت الحلي، وهو يُخْتَلَى للخيل التي لا تفارق الحي، والزَّمْزَمَة: الصوت، يعني صوت الفرس إذا رآه. يضرب للرجل يُخْدَمُ لثروته) قلت ومعنى يُختلى أي: يُحش.

قلت: ولويس عوض في هذه القراءة يدور بين سوءتين؛ فهو إما أن لديه ضعفًا بالملكية اللغوية والحس الأدبي والتذوق البلاغي إذا كيف يذهب إلى أنه «الصُلْبان» مع أنّ قراءة البيت مربوطًا بما قبله وبما بعده لا تعينه على الذهاب إلى هذا المعنى:

حَلَباً حَجّتِ المَطِيُّ ولو أنْ   جَمْتَ عنها مالَتْ إلى حَرّانِ

صَلِيَتْ جَمْرَةَ الهَجِيرِ نهاراً   ثُمّ باتتْ تَغَصّ بالصِّلْيَانِ

أرْزَمَتْ ناقتايَ شَوْقاً فظَنّ الرّكْـ   ـبُ أنّي سَرَى بيَ المِرْزَمانِ

وإن لم يكن لديه ضعفٌ بلاغي فهو أراد إقحام الدين في مضيقٍ لا يسعه، أو هو عندي منبوزٌ بكليهما، وقول أبي العلاء: «حَلَباً حَجّتِ المَطِيُّ» أن الإبل قصدت حلب ثم قال في البيت الثالث: «أرْزَمَتْ ناقتايَ» فالحديث عن أبل لا عن مشاعر دينية.

وثالثة الأثافي التي يُرمى بها لويس عوض أنَّ مبعث القصيدة ومناسبتَها تأبيان هذا الفهم فهي مدحٌ لأبي إبراهيم أحد الأشراف العلويين، فكيف يذكر بها كثرة الصُلبان، وهذا يضيف سوءةً ثالثة وهي أنَّ لويس عوض لا يحسن أو هو يتعامى عن الربط التاريخي للنصوص ومناسباتها.

في كشفه عن حقيقة التبشير وبيان زيفه وسمومه لا أجد فيه ما كان يجري من أساليبَ في نقضه، مع ما كان من شدة إيمانه بما يقول وما يذكر من نصوص دالةٍ على فساد طوية المبشرين، فهو يكتب عن تاريخ التبشير ولا يكتب عن خطأ دقيق يريد الرد عليه كما فعل حين أبطل رواية تأثر أبي العلاء - رحمه الله - براهب دير الفاروس، فجاء أسلوبه مع التبشير أخفَّ عبارةً لتباين ما بين الحالين؛ فمع المبشرين هو عرضٌ لتاريخ التبشير وإبانة عن أهدافه

وغوائله ، ولكنه في بعض حديثه عن مساوئ التبشير تعود إليه العبارة حين يكون الحديث عن مسألةٍ محددة كإقصاء الفصحى ص٢٠٧ : (. . . وفي هذه الأحوال، لا يأمن المرء أن يجد استعدادًا شديدًا للانحراف في التفكير ، ولا سيما إذا خالط الفكرَ شيءٌ يقسره على الخضوع لسيادة ارتضاها حبًا وإعجابا ، أوهوانا ومذلة، أو خيانة أو سوء نية)

وفي المستوى الثالث من أساليبه جرى مع « لطفي السيد » فبدأ الحديث عنه بمرورٍ فيه تشخيصُ ما يراه عن دخيلة وتكوين هذا الرجل:(. . . وهذا الرجل عندي شديد التناقض . . . فحيثما سرت في قراءة تاريخه وآثاره أجد له أقوالاً متناقضة ، وأعمالاً تناقض أقواله . . . وألمس وراء ألفاظه ادعاءَ زكانةٍ ليست في الطبع . . . وكلماته توحي لي دائمًا بصوتٍ له همهمة غامضة تخفي أكثر مما تعلن) ومن قوله : [ألمس وراء ألفاظه ــــ أكثر مما تعلن] فيه أثرٌ من تطبيق منهجه في التذوق؛ حيث كشف من خلال القراءة خفيًا من التصنع وخفيًا من المراد .

وكذلك فإنَّ المستوى الثالث من أساليبه يظهر عندما تكون كتابته بسطًا لرأي يريد أن يفصح عنه ويرى أنه مكرٌ يراد بالإنسان والفكر ؛ كما جاء في المقالة الثالثة عشرة» وما أدراك ما هية «وفي هذه المقالة تخفُّ حرارة لفظه؛فتحس بهدوء حين نقل عدم ارتياحه لمسمى « دائرة المعارف « وأنَّه يؤثر عليه (اللفظ الذي شاع عند أسلافنا وجهلناه اليوم وهو « لفظ « الجمهرة « وبعد أن يبينَ المراد من دائرة المعارف؛ يتغير مستوى العبارة حين يدخل إلى الكشف عن خبائث لويس عوض وعمن استزلَّهم لويس عوض من الكتاب المسلمين الذين استكتبهم في صحيفة الأهرام : (. . . ولكنَّ « المستشار الثقافي لمؤسسة الأهرام « تأبى عليه طبيعة عقله أن يكون العقل شيئًا مذكورًا ! لأنه ليس عاقلاً بالمعنى المتعارف عليه ، بل هو عاقل بعقل صبيان المبشرين . . . وهو يرتكب في سبيل ذك ضروبًا من العبث المبتذل والكيد السوقي . . . فذهب يستكتب كاتبًا من المسلمين ليكتب له مادة « يعقوب النبي « ولكن هذه الكاتب لم يزد على أن استنسخ أو ترجم أو اقتبس أو اختصر

معارف أهل الكتاب عن « يعقوب عليه السلام بما يطابق عقيدة أهل الكتاب في الأنبياء ، وبألفاظٍ من ألفاظهم دون أن يلقي بالا . . . أنه كان بين الأخوين التوأمين : العيص «عيسو» ويعقوب تنافس قوي حول من يكون كاهن الأسرة . . . ولكن يعقوب كان يطمح إلى هذا المركز الديني واستطاع، بذكائه العملي الخارق أن ينتصر على أخيه بحيلتين: الأولى حين اشترى منه حقوق البكورية وأفقده بذلك سنده الشرعي التقليدي؛ والثانية : حين احتال على أبيه بتدبيرٍ من أمه وحصل على البركة التي كان من المفروض أن يتلقاها عيسو وهو [العيص])جاء في هامش ص ٢٢٠ : هذا الكاتب هو الدكتور محمد أحمد خلف الله .

قلت وللنصارى واليهود جرأةٌ آثمة تملأ القلب حزنًا بنيلهم من الأنبياء عليهم السلام وعدم توقيرهم ورميهم بأبشع ما يوصف به عامة الناس فضلاً عن أصفيائهم الذين اختارهم الله سبحانه لتبليغ الرسالة؛ ومن هذا بحثٌ لعائض بن سعد الدوسري ، من جامعة الملك سعود بعنوان « تقديم لوط ابنتيه لقومه في التوراة والقرآن «

ومما جاء فيه: (. . . أمَّا ليو تاكسل الناقد الفرنسي للكاثوليكية ورجال الدين فيقول: أما تقديم لوط ابنتيه البريئتين بدلا من الملاكين أو الآلهين فهو أمرٌ أكثر خسةً وإثارةً للاشمئزاز . . . ومع أن الأنبياء في الكتاب المقدس وهو التراث المشترك بين اليهود والمسيحيين يختارهم الله لتبليغ رسالته . . . ولهم حالة روحية سامية وأخلاق عالية إلا أن أنبياء الكتاب المقدس ليسوا كذلك على كل حال . . . ويُتَهم هذا التراث اليهودي والمسيحي المشترك ـ قديمًا وحديثا ـ بطعنه في الشخصيات الكتابية الرئيسية كالأنبياء وغيرهم . . . فارتكاب الأنبياء والشخصيات البارزة الفواحش والكبائر منتشر بوضوح في الكتاب المقدس فنوح ـ مثلا ـ يشرب الخمر فيسكر ويتعرَّى داخل خيمته . . . وعندما سكر لوط ضاجع ابنتيه . . . ثم يستمر الكتاب المقدس في إكمال بقية صورة لوط فيصوره بصورة الرجل الذي يتنازل عن شرف ابنتيه للغوغاء الأشرار لأجل ممارسة الفاحشة معهن واغتصابهن جماعيًا) والبحث مليءٌ بالأمثلة؛ فهذه حروف كُتبها خسائسهم وقدواتهم، ولولا إرادةُ التوثيق والتدليل

لما تجرأ القلم على نقلها؛ نعوذ بالله مما قالوا ونُشهد اللهَ على براءة أنبيائه عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

قلت: وجرى عند بعض الكتاب أن يسمي التنصير بدلاً من التبشير إبانةً عن المآل الذي يُرجى من ورائه، وأنا لا أرى أن بقاء الاسم فيه تزيين لأنَّ المسمى ارتبط بذهن القارئ والسامع بأهداف معروفة مستورة ومعلنة، كما نرى في مسمى «الاستعمار» فإنه وإن دلَّ هذا الاسم بوضعه اللغوي على إعمار البلاد والعمل على تقدمها إلا أنَّ معناه ومفهومه مرتبطٌ بالتدمير وسلب الحقوق وهو من المشهور الذي لا ينازع به ولا يقام عليه دليل.

ومن الموازنة بين أساليبه أنك في المقالة» الخامسة والعشرين «تجد جمال السرد الذي يحبب إليك متابعة ما تقرأ؛ فهو كما يقال كلامٌ آخذٌ بعضه برقاب بعض؛ فتكاد كل كلمة أن تكون سببا لما بعدها موحيةً حاثةً لك على القراءة ومواصلتها؛ والقارئ منتظرٌ لما يقال لإكمال صورة ما في ذهنه فلا تجد أنك تقرأ بتثاقل؛ فتسلسل مراحل الحدث يغريك بل يدفعك إلى المواصلة، وهذه

السمة ملازمة لقلم أبي فهر؛ ومع الجانب الأدبي تجد في هذه المقالة طرفًا من سيرته وكشفًا للخطط التي وُضعتْ لتدمير التعليم.

ومما يذكر في الموازنة لبيان الفرق في أساليب نقضه أنَّ هناك ورعًا يحجزه عندما يكون المخالف مسلمًا مراعيًا حرمة الدين فتكون عبارته أخفَّ وإن كان من يخالفه قد أغلظ له القول؛ وجدت هذا فيما دار بينه وبين محمد مندور عليهما رحمة الله؛ فقد جاء في ص ١٦٦ وما بعدها كلامٌ نقله شاكر عن مندور حين رأى شاكر أنَّ استخدام المصطلحات النصرانية «الخطيئة، الفداء، الصلب، الخلاص« من الخطأ استخدامها بمدلول النصارى فمما قال مندور عن شاكر: (... فهذه تهمةٌ غبيّة... ولَمَا جاز هذا التخبط في الاتهام) ومما جاء في النقض من شاكر: (... أسلوب الحكيم في عرض هذه المسألة ضربٌ من المغالطة... وإدخالٌ للسفسطة ... قولٌ لا يقوم على ساقٍ صحيحة ولا عرجاء) ثم جرى مبينًا ما يراه من مفهومه عن المراد بالدين، وعن دلالة هذه المصطلحات الأربعة؛ بل إنه في ص ٣٣٧ حين علَّق على كلامٍ للويس عوض عن

محمد مندور قال: (. . . أنه كتب في صحيفة الأهرام . . . كلمةً عن زميلي غفر الله له ورحمه الدكتور محمد مندور) وفي ص ٣٧١ كذلك حين أراد لويس عوض أن يتزينَ بصداقته لمحمد مندور رحمه الله، فقال شاكر: (. . . ثم يأتي في هذا الوقت نفسه أفاقٌ يتثقف . . . فيهتبل موت زميلي القديم الدكتور « محمد مندور « فيقف يتكذَّب [أي يرسل الأكاذيب] ؟ يزعم أنَّ مندورًا كان هو [أخيل] وأنه هو [أجاكس بن تلامون]

ومما يجلّي الموازنة مما هو واقعٌ في الورع ورعاية حرمة الدين ما كتبه في المقالة السابعة عشرة ص ٢٩٥ وما بعدها ، ففي مجلة العلوم الصادرة في بيروت، كتب محيي الدين محمد مقالةً بعنوان « من همومنا الفكرية « أدارها محيي الدين على بعض ما جرى به قلم شاكر عن لويس عوض؛ فمما نقله شاكر عن محيي الدين: (في مجلة الرسالة . . . حملاتٌ أسبوعية ضد بعض الكتاب يصل بعضها إلى حد الهجوم الموتور، المشحون بالحقد والبغضاء . . . مع ما في ذلك من تجنٍ وصغار لا يجيدها سوى فئة من الكتاب التا

فهين [المقصود شاكر] . . . وقامت قيامة بعض صغار الكتبة [المقصود شاكر] الذين اهتدوا إلى التفسير الصحيح للنص المختلف عليه . . . ثم أصبحت الأقلام الرجعية في مجلة الرسالة . . . ممثلةً لنوع من أنواع الرقابة الداخلية . . . وهكذا وقعنا في يد النصابين [المقصود شاكر] الذين يتكلمون باسم الفكر والثقافة)

هذا اقتطاف مما نقله الشيخ من مقالة مجلة العلوم وقد ميزتُ بالخط ما رأيته معينًا على إبانة الموازنة وليتبينَ أسلوب شاكر فيتضح هدوء الرد رعايةً لحرمة الدين، ومما جاء في رده: (. . . ولكنَّ الشيء المعيب في مقالة هذا الأستاذ هو أنه فعل ما فعله الدكتور محمد مندور من قبل ، فكتب دون أن يقرأ شيئًا من هذه المقالات فيما أظن . . . فبالذي أنشأك فسوَّاك فعدلك ، ياسيد محيي الدين هل يدخل في نطاق تصورك أنَّ إنسانًا لا يستطيع أن يقرأ خبرًا واحدًا هو خبر دير الفاروس قراءةً صحيحة . . . استنباطًا مما قرأت لك أعدُّك أذكى من هذا الدعي، إلا أن يكون قد أتلف عليك ذكاءك . . . ولتعلم آخر ما تعلم، أني رفقت بك كل الرفق

لأني لا أيأس من صلاح الناس، مهما قيل عنك . . . لتعلم غدًا بعد أن نصل إلى الغاية في بيان ما نحن بسبيل بيانه ، أنك وقعت حقًا وصدقًا بيد النصابين . . . والسلام)

ومما يجري هذا المجرى ما كان بينه وبين محمد عودة رحمهما الله ؛ في ص ٣٩٤ وما بعدها من كتاب أباطيل وأسمار : (. . . قرأت منذ ساعات قلائل كلمةً لرجل عرفته منذ كان ناشئًا ، ثائرًا شديد الحفاوة بالمعرفة مقبلاً عليها على حيرةٍ تنتابه وتموج به وكان معذورًا في حيرته . . . ثم إني رأيت الأخ الفاضل بعد أن قطع عنقي بثنائه . . . رأيت أخي محمد عودة يقول في آخر كلمته: « وإذا كانت القوس العذراء قد أسعدتنا . . . ولا أدري من أي أمريه أعجب ؟ من قطعه ظهري بالثناء والإطراء أم من اتهامه إياي بالجهل والسخف والعبث واختلال العقل ولكني أحسن الظن بعقل الأستاذ « محمد عودة « لأني أعرفه معرفةً جيدة . . . وأما اتهامه إياي بأني غصت في الوحل إلى أذني أعني اتهامه إياي بأني أساجل أجا كس عوض فهذا أعجب العجب . . .) لا تنس أن تلاحظ

أنه سمى القول بأنه يساجل لويس عوض اتهامًا ؛ وذلك لأنه يأنف ويستنكف أن يسمى ما دار بينهما مساجلة ؛ وقد مر تعليل هذا في بداية أسلوب النقض .

لإيضاح الصورة وازن بين هذا المقطع وبين : ص ٢٧٢ حين لمز لويس عوض تكوين ثقافة بعض الشعراء ، وأنهم لم يكن أمامهم إلا « رمى القضاء بعَيْنَي جؤذرٍ أسدًا « حينها حميَ أنفُ الشيخ حبًا وثأرًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ولكن الدافع إليه هو أنَّ « نهج البرة» هو في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد هذا المأفون بما في قلبه من العداوة والبغضاء لله ولرسوله وللمؤمنين، أن يجعل هذا الشطر وحده، هو المتضمن لمذهب شوقي في شعره، وهذا عبثٌ . . . وعند ساحبه من عنقه سلامة موسى وعند ذيله وحامل حقيبته غالي شكري)

توشية

ما ترك إنسان أمرًا شاقًا عليه في بدنه وهو نافعٌ للناس قد هداه الله إليه وأقدره على القيام به ثم يفِرُّ إلى غيره مؤثرًا للدعة والراحة والاسترخاء مع حاجة الناس إليه إلا عرَّض نفسه لأدواء منها العجزُ والكسلُ وقلةُ بركة الوقت ، ونقصَ عنده نعيمُ محبة الإحسان إلى الخلق، وأخشى أن يكون فرَّط بمنزلةٍ وهبها الله له وهي منزلةُ المحسنين ، فلا يكن همُك راحةَ البدن فهناك لذةٌ تحسُّها الروح وإن تعب البدن؛ ومع هذا لا تتعمد المشقة ولكن إن لم تستطع الإحسانَ إلا بها فاصبر واستعن بالله .

الفصل السادس
أسلوبه في الدراسات الأدبية

والمقصود بهذا معايشة النص معايشةً أدبية نقدية مبينةً عن أوجهِ الجمال والقبح؛ وكان من بداية دراساته النقدية ما قاله في ص ١٠ من كتاب « المتنبي «: (. . . فلما أوغلتُ في القراءة وأكثرت . . . وجدت في الشعر الجاهلي شيئًا لم أكن أجده من قبلُ وأنا أقرأ الشعر الجاهلي متفرقا لشعراء مختلفين، أو وأنا أحفظ لعشرة شعراء مختلفين هذه « المعلقات العشر الجاهلية وأدارسها وأتتبع معانيها وأغراضها . . . بالمقارنة وجدت ترجيع الشعر الجاهلي ورنينه ودندنته مباينةً كلها مباينةً ظاهرة لما أجده في أكثر الشعر الأموي والشعر العباسي من الترجيع والرنين والدندنة) وهذا يُضمُّ إلى النقد الفني الجمالي؛ فلم نجد هنا ما يشير إلى أنه يستدل بهذا الشعر على حدث تاريخي بل هي موازناتٌ داخلةٌ في تذوق النص وقوله : [بالمقارنة. . . والدندنة] هذه نتيجةٌ أفضى إليها نقد النصوص نقدًا فنيا جماليا مسبوقًا بـ : [وأدارسها وأتتبع معانيها وأغراضها]

وقراءته القراءة النقدية للنصوص جاءت قراءةً تاريخية استنبط منها وقوع أحداث أو إبطالها ، كما جاءت قراءة فنيةً أيضا أظهر من خلالها مواطن الحسن والقبح للنص المقروء .

ومن الفروق المنهجية العلمية بين القراءة التاريخية والقراءة الفنية البلاغية ؛ أنَّ الأولى قراءة عالم لا يراعي مواطن الجمال والقبح أو الإجادة والفساد في النظم ، ولا يعنيه إلا ما ينطوي عليه النص من إبانة عن أحداث ويعينه على الكشف في صدق الخبر أو كذبه ؛ فلا يلتفت إلى نظرة وجدانية أو بلاغية ولا يهتزّ أو يطرب ولا ينقبض أو ينبسط ؛ وهذا مما يتجه إليه قارئ النص قراءة بيانية وجمالية والقارئ قراءة تاريخية لا يعنيه أن تكون اللفظة قلقةً مضطربة أو ساكنةً مُبينة؛ زادت النص جمالاً أو أضعفت أثره الفني ، ولا يعبأ بالصورة أَبعثت الحياة أم أتت ميتة ؟

فمن القراءات التاريخية ما قاله في ص ٣٩ عن قراءته لشعر أبي الطيب : (. . . فلما استوقفني شعر أبي الطيب، مضيت في تذوقه مرتَبًا على التاريخ ، كان نفع هذا الترتيب التاريخي

عظيمًا ، فقد كشف لي حركة وِجدان أبي الطيب في شعره) وقال في ص ٥٨ ــ ٥٩ عن سؤال الناس لبعض الأشراف حين قدم على أحد المجالس من الكوفة : (. . . فنهض الناس كلهم سوى أبي الطيب فجعل كل واحدٍ من الحاضرين يسأله عن الأحوال بالكوفة وما تجدد هناك فقال المتنبي يا شريف كيف خلفت الأسعار بالكوفة ؟ . . .) ثم بدأ يحلل هذا الخبر مستنبطًا منه أنَّ ترك القيام من أبي الطيب للشريف وتغافله عن سؤاله عن أحوال الكوفة دلائل أظهرت ما في أغوار النفس من ازدراء لهذا الشريف ثم بيَّن اطمئنانه لمنهجه: (. . . على أنَّ منهجي في « التذوق « يفضي إلى كشف الحُجُب عما طمره غبار السنين وما يستره تكذُّب الرواة)

قلت : وحين قال أبو الطيب للشريف : (كيف خلَّفتَ الأسعار بالكوفة ؟) رد الشريف رد من غاضه هذا السؤال وأدرك مرام السائل :(كل راويةٍ برطلين خبزًا) !؛ قال الراوي : (فأخجله وقصدُ الشريف أن يعرض بأنَّ أباه كان سقاءً) قلت : وهذه من النوادر في الكلام الذي يكون بين النبلاء؛ وهو فنٌ رفيع بديع ؛

تقصيه وانتهاجه يزكي العقل ويعلي المنزلة ويدرب اللسان؛ ومن لوازمه معرفة كل واحدٍ بقوادح صاحبه؛ وهذا الجواب من أنواع الأسلوب الحكيم؛ وهو أن يدع المسؤول الإجابة عن السؤال ويسير إلى إجابة أخرى لم يرد السؤال عنها فيُتلقى المخاطب بغير ما يتوقع؛ إما إشارةً إلى أنها الأولى بالسؤال؛ وإما تعريضا وتنقصًا للسائل.

ولما فرغ من ترتيب شعره من سنة ٣١٤ـ ٣٣٦ قال في ص٦٢: (. . . فلما فعلت هذا تبين لي في إعادة قراءة الديوان أنَّ أكثر الغوامض المبهمة في ديوانه قد تبددت وزالت ، وتجلَّت لي شخصية أبي الطيب واضحة؛ وصارت حركة وجدانه في شعره ظاهرة منسقة في ترددها بين الثورة والخمود حينًا ، وبين الأمل واليأس حينًا آخر) ومن القراءة التاريخية للنصوص ما ورد في ص ١٦٢: . . . فمن جهل هذا التنوخي بأساليب الوضع المتقنة التي جرى عليها شيوخ الوضاعين . . .) فقال التنوخي راويا عن المتنبي: (متى انتسبت لم آمن أن يأ خذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي انتسب إليها) فكان من نقض شاكر: (. . .

فإنَّ العرب لذلك العهد نسيت الترات القديمة وألقت السخائم المتوارثة. . . فما خوف المتنبي مما لا يُخاف منه ؟ وما خوفه وهو آمن في المدن؟ . . . قلت: وقول شاكر : (وما خوفه وهو آمن في المدن ؟) أقوى في الاستدلال على إسقاط رواية التنوخي ونقضِها ؛ فإنه يستطيعُ أن يظهرَ علويتَه حين يكونُ آمنًا في المدن؛ وأضيفُ هنا أنَّ قريشًا التي منها العلويون ليست من القبائل التي بينها وبين غيرها من القبائلِ تراتٌ وإحن؛ فهي قبيلةٌ حضرية؛ وهذا التعليل من التنوخي من تسور الحجاج وتكلفِها ؛وهو خُلُقٌ يتمحله من يريد أن يكونَ له رأيٌ فيما يعلم وفيما لا يعلم.

استشفَّ أنَّ هناك سببًا مجهولا بين المتنبي وبين العلويين حملهم على إكرامه أولا ثم حملهم على منعه من دخول الكوفة لرؤية جدته؛ فقال في ص ١٧٠ـ ١٧١: (ويزيدك هذا في هذا يقينا وعليه اعتمادًا، رثاء المتنبي لجدته ففيه لطائف من الإشارة نكتفي بذكر البين منها هنا . . يقول المتنبي:

هبيني (أخذت الثأر فيكِ من العدا   فكيف بأخذ الثأر فيكِ من الحمى

ثم يقول:

لئن لذَّ يوم (الشامتين) بيومها   لقد ولدتْ مني لآنفهم رغْما

فقد أثبت أبو الطيب أنَّ لجدته ثم له أعداءً كان همه كله أو أكثره / أن يأخذ منهم (بثأرها) وثأره. . . وأنا لا أرى بأسًا من ترجيح الظن بأنَّ المتنبي من أبناء العلويين؛ فإنَّ هذا يفسر كل غموض في حياة الرجل وشعره)

ومن نقده لشعر أبي الطيب أنه استعرض جملةً من الأبيات رأى فيها ألفاظًا تدل على تأثره بما كان يموج به عصره من علوم؛ وكَتبَ في هامش ص١٩٠ ما يدل على أنه نظر بهذا النقد نظر المؤرخ الذي يستنبط من الكلام ما يؤيد به مذهبه في أطوار أبي الطيب، لا نظر الناقد الذي ينظر مواطن القبح والجمال؛ حيث قال: (تتبُع هذا اللون من الألفاظ والأساليب في شعر أبي الطيب، محددًا بالوقت الذي قيل فيه وحصره في زمانه وقصره على زمن القول مع الانتباه إلى معرفة شيءٍ صحيح عن الرجل الذي خوطب

به هذا الشعر ، كل ذلك واجب الناقد والأديب الكاتب قبل أن يقول شيئًا في شعر أبي الطيب . . .)

ومن القراءات الفنية ، ما ورد في ص ٦٩ وما بعدها : (أما عاطفة الحب التي تتمثل في عواطف الناس على اختلافهم فطرةً فُطِروا عليها ، فإنّ أظهرها ظهورًا حبه لجدته . . . فلما ماتت رثاها بقصيدته الميمية، مهَّد لي تذوقها أن أعرف مقدار الصدق في عواطف أبي الطيب، وأن أقفَ على أسلوبه في الكشف الملثم عن هذه العواطف . . . وفي هذه المدة صار شعر أبي الطيب نمطًا آخر غير النمط الذي كان أولاً مع بدر بن عمار الأسدي، ثم تم تمامه مع سيف الدولة ؛ ولكنه قد صار شاعرًا محنكا معقد المهارة في صياغة معانيه وألفاظه يحتاج تذوقها إلى خبرةٍ بأساليب صياغته كلها . . . فهو يقول في غربة الصبى البعيد واثقًا مدلا متحديا :

أنا في أمةٍ تداركها اللهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمود

وهو اليوم في غربة الكِبَر أواخر عهده بمصر وكافورها يقول متحيرًا ضائعًا مستسلمًا:

بِـمَ التعلل؟ لا أهلٌ ولا وطنُ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمنُ

. . . ويختم شعر هذه السنوات المذلة باليأس والضياع بهذه النفثة:

إذا استشفيتَ من داءٍ بداء فأقتلُ ما أعلَّك ما شفاكا

وأنى شئتِ ياطرقي فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكا

. . . فقد كان شعره في هذه السنوات التسع الأخيرة من عمره مختلفًا كل الاختلاف من جميع شعره مباينا له في الصياغة، حافلاً بمهارات لا يطيقها إلا قلةٌ من كبار الشعراء الكبار . . . كانت ألفاظ شعره هذا تحمل كل ما يكتمه من الكراهية والازدراء والاستنكاف مما هو فيه . . . ولكن القضية ليست محصورةً بألفاظ قصدها . . . كان شعره يَفْصِمُ كله عن نفس متطلقةٍ متهللة واثقة . . . فإذا هو يفصم عن نفسٍ متقبضةٍ كئيبةٍ يائسة)

وقال في ص ١٩١: (. . . ولذلك كان شعره أروعَ شعرٍ في العربية وكثيرٍ غيرها وكان محببًا إلى أهل عصره متداولاً سائرًا بينهم؛ لأنه كان يأخذ بنفسه المرهفة من شعور الناس وآلامهم وأحداثهم ويبني بما يأخذ شعره وروائع بلاغاته) فهذا من شاكر تذوقٌ على منهاج النقاد والأدباء؛ ففيه موازنة بين مرحلتين من مراحل الشاعر وفيه إبانةٌ للجمال الشعري.

وفي الأبيات الأربعة التالية في ص ١٩٥ وقف على ما رآه من بلاغة المتنبي في السخرية:

لَقَد أَصبَحَ الجُرَذُ المُستَغيرُ	أَسيرَ المَنايا صَريعَ العَطَب
رَماهُ الكِنانِيُّ وَالعامِرِيُّ	وَتَلّاهُ لِلوَجهِ فِعلَ العَرَب
كِلا الرَجُلَينِ اِتَّلى قَتلَهُ	فَأَيُّكُما غَلَّ حُرَّ السَلَب
وَأَيُّكُما كانَ مِن خَلفِهِ	فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً في الذَنَب

قتل الرجلان الكناني والعامري هذا الفأر الكبير، فأخرجاه ليُعَجّبا الناس من كبره وهذا سخف منهما، إذ شغلا

نفسيهما بعبثٍ لا معنى له) وبعد أن شرح الأبيات وأبان ما تنطوي عليه من معاني قال : (وأنت إذا عدت فقرأت الأبيات على ما كلفنا شرحه رأيت بلاغة الرجل في السخرية ودقته في اختيار اللفظ وإيجاز الصورة التي يريد أن يتفكه لك بها)

ونتيجة إدمان الشيخ وتدبره لشعر أبي الطيب فمما خرج به ص ١٩٦ : (ولولا ما كلَّف نفسه من المشقة للسيادة والمجد ، لكان من أبرع الناس نكتة بليغة وأكثرهم نادرة عالية . . . ومما قاله « معاذ اللاذقي « لأبي الطيب سنة ٣٢١» [والله إنك لشابٌ خطير تصلح لمنادمة ملكٍ كبير] ومعنى هذا أنَّ أبا الطيب كان ظريفًا خفيف الروح محببًا إلى النفس . . . ومن تدبر سخريته في شعره وجد هذا المعنى إلا أنه لم يكن يهزل هزل السخفاء)

قلت : و لو قامت دراسة مستفيضة لهذا اللون من شعره أعني السخرية في شعر أبي الطيب لأضافت فنًا ذا بال عن أبي الطيب وأصل مادة هذا البحث لمن أراد مدفونٌ بكافورياته .

واستنبط بتذوقه مكامن الجمال وما دونه في قصيدة المتنبي التي منها :

كُفّي أَراني وَيكِ لَومَكِ أَلوَما ... هَمٌّ أَقامَ عَلى فُؤادٍ أَنجَما

وَخَيالُ جِسمٍ لَم يُخَلِّ لَهُ الهَوى ... لَحماً فَيُنحِلَهُ السَقامُ وَلا دَما

وَخُفوقُ قَلبٍ لَو رَأَيتِ لَهيبَهُ ... يا جَنَّتي لَظَنَنتِ فيهِ جَهَنَّما

وَإِذا سَحابَةُ صَدِّ حُبٍّ أَبرَقَت ... تَرَكَت حَلاوَةَ كُلِّ حُبٍّ عَلقَما

حيث قال في ص ١٨٧ ـ ١٨٨ : (ومن قرأ القصيدة كلها فما فيها بيتٌ واحدٌ من الشعر ، ولفظها وكلامها ومعانيها غثٌّ كله . . . وقد أعجم صاحبنا القصيدة كلها ، وأتى فيها بكل ساقطةٍ من ألفاظ الفلسفة وما إليها ، وبالغ في مدح الرجل بما ينقل الكلام من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، حتى أخلَّ ذلك بعربيتها إخلالاً بيناً لم يقع مثله في ساقط شعره) ومن دواعي مبالغة الشيخ في إسقاط القصيدة أن ينفي تأثر أبي الطيب بأبي الفضل حيث قال ص ١٨٨ : (. . . فمن كان في بديهة المتنبي وذكائه وتوقده ، لا يلعب به رجل مغمور غير مذكور)

ومن الموازنات بين شعرٍ لأبي الطيب وشعرٍ لشوقي ما ورد في ص ٢٩٨ـ ٢٩٩ من جمهرة مقالاته: (... وأردت أن أقارن بين ما يسمونه شعر الحكمة وبين حكمة المتنبي في شعره وأين ما وقع منه سائر الشعراء؛ فما كدت أبدأ حتى عرض لي أبيات المتنبي التي يقول فيها:

إنما أنفس الأنيس سباعٌ　　　يتفارسن جهرة واغتيالا

من أطاق التماس شيءٍ غلابا　　　واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

كلُّ غادٍ لحاجةٍ يتمنى　　　أن يكون الغضنفر الرئبالا

قارن بين هذه الأبيات وبين بيتين لشوقي رحمه الله قال فيهما:

وما نيل المطالب بالتمني　　　ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قومٍ منالٌ　　　إذا الإقدام كان لهم ركابا

فقال: (... فأي دقةٍ وأي هداية كانت لهذا الرجل الفذ الذي لو احتلت على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلاً في كلامه لأفسدت معنى البيت وقوته وعبارته وبيانه! فخذ مثلاً لفظ

الأنيس « وتخير ما شئت من حروف اللغة وضعه حيث وضع المتنبي لفظه ، واقرأه وانظر وتدبر ، هل يليق أو يسوغ أو يلين أو يستقر في مكانه من البيت ؟ ضع مكانه» الأنس « أو» البشر « أو الناس « أو « الأنام « أو وما شئت . . . فهو قد اختار اللفظ والبناء الذي يدل دلالةً على المؤانسة والرقة والتلطف وإظهار المودة والظرف وحلاة الشمائل ولين الطباع ؛ ليظهر لك أنها تخفي تحت هذا كله طباعًا وحشية ضارية مترفقة حينًا وباغيةً أحيانا ؛ فمهد للصورة التي أرادها باللفظ الذي لا يستغني عنه في دقة الصورة وحسن بيانها ؛ فأين هذا من ضعف شوقي الذي لم يزد على أن جمع كلمات رُصَّ بعضُها إلى بعض لا حاصل لها ولا خير فيها ؛ وما قيمة ذكر الركاب مع الإقدام والاستعصاء والمنال ؟ وأما البيت الأول « وما نيل المطالب « فهو كلامٌ عامي دائر على الألسنة، ولا فضل فيه بل هو أشبهُ بتقرير ضعيف عن معنى ليس بشيء)

وقوله : (فأي دقةٍ وأي هداية كانت لهذا الرجل الفذ) لم أجد ما وجده لأنه قال هذا الانبهار معبرًا عن مشاعر وجدها في

نفسه وهي خاصة جدًا به؛ فليست من الأحاسيس التي ينجذب إليها كثيرٌ من النفوس؛ ولو كان الأمر عن أحاسيس مشتركة لوجد القارئ انجذابًا في نفسه كما وجد هو.

من الملاحظات هنا أنه طوى الموازنة من شعر أبي الطيب على لفظٍ واحد «الأنيس» وهو كذلك لم يستطع هنا أن يجذب القارئ إلى المشاركة بالتأثر الوجداني الذي وجده هو؛ وسيأتي قولي: (... فإذا أفاض الناقد أو محلل النص بشرح معنى من المعاني ولم يستطع إشراك القارئ بما وجد في نفسه من تأثر؛ فهو إما أن يكون متكلفًا؛ أو أن يكون عاجزًا عن اختيار اللفظ الذي ينقل مشاعره للقارئ فيجعله يحس إحساسه.)

والصواب أن يختار «الموازنة» بدلاً من «المقارنة» فهي المصطلحُ الدال على المضي في إبانة ما بين النصوص من اختلاف واتفاق وما تتفاوت فيه من البيان؛ لذلك وجدنا الآمدي رحمه الله يسمي كتابه الذي أجرى فيه الدارسة بين أبي تمام والبحتري يسميه «الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري»

فالمقارنة من «قرن» أي وصل شيئًا بشيء؛ وهذا المعنى غير مراد؛ وأمّا وزن فهي من الوزن وهو إعطاء القدر؛ وهذا هو المراد هنا.

وقد رأيت أنه يُبِينَ عما في نفسه ويصف تسلسل ورود الخاطر على نفسه ويصوغ ردوده بكلام عالٍ بليغ مُعْجب يُحتذى؛ ولكنه يضعف في أسلوبه وعبارته حين يريد التعبيرَ عن معاقد البيان عند غيره؛ وهو عندما يريد أن يحلل الكلام فإنه على استخراج دلالات الأحداث أقدرُ منه على استخراج مآخذ البيان ومنابته، وقد ظهر لي هذا عند وقفته هذه وعند شيءٍ مما ورد في دراسته لقصيدة «إنَّ بالشعب الذي دون سلع» التي ستأتي في الفصل الثامن إن شاء الله.

وإني أجد في غالب إباناته جمالاً في الكلمة؛ فهو يستطيع بأسلوبه أن يأخذ بالقارئ إلى المشاركة، بل إنَّ الإعجاب ببيانه والاحتفاء بجمال لفظه هو الداعي والباعث الأول على كتابة هذا الكتاب.

وعندما وقف عند لفظة: « الأنيس « ذكر لها سبع مرادات تقتضيها وأنَّ الشاعر اختارها لهذه المرادات ؛ وفي منهجه في الوقوف عند بعض الألفاظ توسعٌ وإفاضة في دلالاتها يشير إلى أنَّ هذا مما أراده منشئ النص ؛ وظهر هذا بينًا في تحليله لقصيدة « إنَّ بالشعب. . . « وهو يسمي هذا النوع من التوسع إسباغًا؛ قال في ص ١٨٨ـ ١٨٩ من كتابه « نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف : (واعلم أنَّ استحياء الحزم ونفخَ الروح فيه معتمدٌ كل الاعتماد على لفظ « الحزم « . . . وهذا الذي بينته ضربٌ خفيٌ من «الإسباغ « الذي يلحق الألفاظ . . . ولكنه إسباغٌ يأتي من خارج اللفظ ، ولا تضبطه اللغة ولا ينبغي لها ، بل يضبطه علم النقد وعلم البيان)

وقوله : « يأتي من خارج النص « يشير فيه إلى أنَّ الإسباغ يخضع إلى ما يفهمه الناقد ودارس النص وإلى ما يراه من دلالات ؛ لا ما تفيده اللغة فحسب؛ فالناقد له أن يمضي مُضْفِيًا على اللفظ مرادات لمنشئ النص قد لا تضبطه اللغة ؛ وهذا رأيٌ رآه وأخذ به؛ وقوله : « ولا ينبغي لها » أي أننا لا نقف عند التفسير اللغوي

للألفاظ إن أردنا الوجهة البيانية؛ وأنا أُأيده على هذا بشرط أن يتمكن الناقد من إيقاظ إحساس القارئ؛ أما أن يجريَ مع الإسباغ والقارئ في واد والناقد في واد فهذا «إسباغ« لا طائل من ورائه؛ وكأنما هو في بعض درجاته انطلاقٌ مسوّغه سعةُ علم الناقد في اللغة لا إيحاءات النص ودلالاته البيانية .

يأخذ في التوسع في الدلالات لأنَّ : (القصيدة نفسها ربما تضمنت قدرًا وافرًا من الدلالات، تهدي الباحث إلى صورة أخرى من المنهج وتكون لها الغلبة على دراسة النص ؛فإن غفل عما توجبه هذه الدلالات ، كان حريًا أن لا يصل إلى شيء يطمئن إليه ؛ وبذلك تظل القصيدة مقتصرةً على ما يكشف عن أسرار جمالها)

ص ١١٩ وهذا النوع من الدراسة ليس من شأن الناقد ؛ وإنما هو من شأن المؤرخ والباحث في توثيق الأحداث واستنباط أثرها .

ويضيف في ص ١٢٩ معللاً توسعه في دلالات الألفاظ: (لأنَّ الشعراء لم يقصدوا قط مقصد الإبانة المغسولة عن المعاني بل ركبوا إلى أغراضهم أغمضَ ما في البيان الإنساني من المذاهب) واختياره لفظ «أغمض» أرى أنها لم تقع موقع الفصل فيما قال الشعراء؛ فلو ذهبوا إلى الأغمض لأصبح الشعر معمياتٍ لا تبين عن النفس الإنسانية ولحال هذا بين الشاعر وبين تنفس المتلقي من خلال ما يقرأ أو يسمع؛ وذلك حين يجد المرء بيتًا أو قصيدةً تُمثل حالته وتسليه؛ بل هم يقولون ويأخذون بالأقرب إلى نفوسهم، كما لا يتعمَّلو في اختيار اللفظة بل هي تأتيهم عفوًا من غير تكلف ولا تطلُّب؛ ولو عمدوا إلى هذا لذهب كثيرٌ من تأثيرهم؛ فلا يكون لهم جذب للمتلقي إلا بالعفوية؛ فاللسان لسانهم وهم يتحدثون سليقةً وجبلةً لا تكلفًا وإعمالاً موغلاً في الفكر؛ كما نجد أيضًا أنَّ العامة من الناس الذين ليس لهم حظ وافر في فهم كلام العرب نجدهم يطربون ويهتزون للشعر؛ وما بلغ بهم هذا التأثر إلا بفهم ما قيل أو سُمع؛ ولو كان غامضًا لذهب أثره.

وصحيحٌ أيضًا أن لوجاء الشعر من باب:

رَبابَةُ رَبَّةُ البَيتِ ... تَصُبُّ الخَلَّ في الزَيتِ

لَها عَشرُ دَجاجاتٍ ... وَديكٌ حَسَنُ الصَوتِ

لوجاء بمثل هذا لهبط وهوى وأصبح أمثلةً للسخف والسقوط .

ويقول ص ١٣٣ : (تَمثُّل القصيدة لا يقتصر على مجرد معرفتنا بالألفاظ وبمعانيها . . . بل يتعداها إلى توسم ما لحقها من الإسباغ والتعرية)

ومن توسعه في الدلالات ما قاله عن « ظاعن « ص١٨٥ ـ ١٨٦ من كتاب « نمط صعب ونمط مخيف «: (« وظاعن « هذه الصفة التي وصف بها شاعرنا خاله، تتضمن فيضًا من الحركة بعد الحركة . . . فالحركةُ في « ظاعن « حركةٌ مستفيضة لا تنقطع في ليل أو نهار ، ولا في حلٍ وترحال حركة بدن بالسعي الدؤوب وحركةً نفسٍ بالتوقع والتوجس وحركة عقل باليقظة والتنبه وحركة رأيٍ بالنظر والتدبر وحركة إرادة بالجرأة والمضاء)

وبعد حديثنا عن أبي الطيب انتقلُ بك إلى حديثٍ عن شاعر آخر وقف معه شاكر وقفة الدارس؛ فمن أساليبه في الدراسات الأدبية والنقد الأدبي، حديثه عن ديوان «ليالي الملاّحَ التائه» للمهندس علي محمود طه قال في ص ١٣٠ وما بعدها من كتاب جمهرة مقالاته: (وليس يشك أحدٌ أنَّ الشعر في أصله هو معان يريدها الشاعر . . . فنجد المعنى القريب وقد نقلك الشاعر إلى أغواره الأبدية، وأسراره العظيمة وكأنه قد خرج عن صورته التي ضُربت عليه في الحياة إلى السر الأول الذي أبعد الصورة . . . فالشعور والتأثر والاهتزاز هي أصل الشعر . . . وهذه الثلاثة . . . هي فيه من روح الشاعر وأعصابه ونبضات الشوق)

ثم وقف عند بيت من قصيدة الجندول :

قال : من أين ؟ وأصغى ورنا   قلت من مصر (غريب) ههنا

غريب هذه كلمة النفس الشاعرة في مكانتها من ألفاظها وفي أقصى مدها من التأثير، إنه حرف يبكي من الغربة والذكرى، ولو سقطت هذه الكلمة من الشعر لسقط كل الشعر . . . ثم هي

بعد ذلك التفات يخيل لك معه أنَّ الشاعر قد رد فقال: من مصر ثم انفتل بوجهه إلى مصر، وتلقى دمعة يموهّها بيده ويمسح أثرها بمنديله، في هذا الجو المرح العابث اللاهي وهو يقول: : [غريب ههنا])

الفصل السابع
الأسلوب الوجداني

ثم هو في بعض مقاطع كتبه يأخذك ويجعلك تصغي لما سيقول ويحيل القراءة المجردة إلى مجالسة بينه وبين القارئ فكأنك تراه وتسمعه وهو يحدثك .

وهناك مذهبٌ آخر في الكتابة يظهر فيه نَفَس الشيخ بأسلوب مختلفٍ عن النقائض، أو القراءات الأدبية، وهو الأسلوب الوجدانيّ، وذلك عندما يَسْري قلمه مفصحًا عما استكن في نفسه من مشاعرَ لا علاقة لها بنفي ولا إثبات ولا نقض أو موافقة، ولا يقيّدها همٌّ أو زيفٌ يرى الشيخُ ـ ديانةً ـ وجوبَ الكشفِ عنه، فَأنت لا تفتأ وأنت تقرأ له من أن تجد في ثنايا حروفه حروفًا وجدانية بثَّ من خلالها بعض ما يكنه؛ وهكذا هي النفس الإنسانية لا بد لها من ملاذٍ ومرتع تُترك فيه على سجيتها؛ حتى لا تسأم من مطاولة الجد؛ أوكما قال في المقالة الرابعة والعشرين من مقالات أباطيل وأسمار: (لتأخذ النفس من خفة الباطل جَمَامًا تستعين به على معاناة الحق) وإليك نماذج من هذه الوجدانيات.

فأول هذا ما كتبه مقدمةً لقصيدة القوس العذراء؛ وهذه المقدمة صالحةٌ كلها لأنقلها لك مثالاً على هذا الأسلوب، ولكني اكتفيت من القلادة بما أحاط بالعنق، وأستحثك على قراءتها

فستظفر بمُتنفسٍ أراح فيه أبو فهر نفسه، وستجد عبارةً صِيغ بها هذا التنفسُ تجعل الكاتب ماثلاً أمامك؛ ففيها وجدانيات و تأملٌ ووعظ؛ ومما جاء فيها :

إلى صديق لا تَبْلى مودتُه :

أما بعد فإني لم أكن أتوقع يومئذ أن ألقاك؛ وإذا كنتَ قد أوتيتَ حياءً يغلبك عند البغتة على لسانك حتى يعوزَك ما تقول فقد أوتيتُ أنا ضربًا ثرثارًا من الحياة يطلق لساني أحيانًا عند البغتة، بما لا أحب أن أقول، وبما لا أدري كيف جاء ولِمَ قيل! كنت خليقًا يومئذ أن أقول غير ما قلت، ولكني وجدت شيئًا ينسرب في نفسي فيثيرها حتى يدورَ حديثي كله على إتقان الأعمال التي يتاح للمرء أن يزاولها ـ في لمحةٍ خاطفة من الدهر نسميها نحن الناسَ: العُمر!! يا له من غرور بيد أنَّ الحديث أبى إلا أن ينقلب عائدًا معي في الطريق يسايرني ويصاحبني ويؤنس وحشتي ويُسر إلي ويوسوس خفيةً من أحاديثه التي لا تتشابه . . . بل أنت تحدثني عن

الإنسان وقد فسق عن تلاد فطرته واستغواه الشحُّ حتى انسلخ من ركاز حيلته غره ما أوتي من التدبير فاقتحم على غيبٍ مدبَّر يعتسفه بسفاهة جرأته واستخفه ما أعين به من المشيئة فهجم على خيرٍ مبذول يستكثرُ منه بضراوة نهمته فانبتَّ من يومئذٍ في فلاة مطموسة بلا دليل يظلُّ يكدح كدحًا حتى ينادى للرحيل) .

وقوله: « فاقتحم على غيبٍ مدبَّر . . . ينادى للرحيل» أحببت أن أقف عندها محللاً : فاقتحم تدل على أنه دخل عنوةً؛ وفي دخوله نوع جبروت وكبرياء وإعجاب وعُجب؛ لأنَّ هذا الاقتحام كان على أمر من الغيب كُفيَ همَّه؛ فهو غيبٌ تولى الله تدبيره وتسييره لحكمةٍ لا يبلغها علمُ الإنسان و»يعتسفه« يأخذه غصبًا إلى غير ما أريد له، ويعاكسه بعقله القاصر ويُجري عليه الدليل الذي يظهر من نظره الذي لا يطيق إلى أقلَّ ما بان فضلاً عن أن يدرك ما خفي عنه بعلم الغيب؛ « بسفاهة جرأته» أي بطيشه وجهله الذي جرَّته الجرأة وضعف الاحتياط للمآلات؛ فهو إقدام أزَّه إليه السفه وخفة العقل»واستخفه ما أعين به من المشيئة» استغواه ما مُنح

من المشيئة والمعونة الربانية فظن أنه قادر؛ وأنَّ هذه القدرة أتت إليه من عند نفسه فغيَّب عنه هذا الظن أنه أوتيها بمشيئة إلهية فمضى معتدًا معجبًا متهورًا حتى وصل إلى: «فهجمَ على خيرٍ مبذول يستكثرُ منه بضراوة نهمته» فلما عرف ما عرف دخل بغيرِ روية وما أقلَّ ما عرف وما أكثر ما جهل «فانبتَّ من يومئذٍ في فلاة مطموسة بلا دليل يظلُّ يكدح كدحًا حتى ينادى للرحيل» فلما نهج هذا النهج مُخْلدًا إلى سفاهته معتدًا بنفسه مستكثرًا من أمر الحصول عليه ميسور انقطع في صحراءَ مهمهةٍ لا يُهتدى بها؛ فاتخذ الكدح سبيلا يغالب فيه ما استعصى من أمر دنياه حتى باغته الأجل. في فلاة مطموسة) كنىَّ بها عن أنَّ هذا الإنسان حين أسلم قياده لما حسَّنه له عقله القاصر ظل يضرب في مجاهل لا دليل فيها؛ وانقطع أمره إلى قعرٍ موحش لا يسمع فيه إلا نعيقَ غراب أو فحيحَ أفعى.

وهذه النظر التأملية العجيبة في حال الإنسان المغرور بعقله وعلمه وقدرته، سبقها بصفحتين بحروف تأمليةٍ أيضا يصف بها

شأنَ مخلوقٍ ضعيف قنِع بما فُطر عليه وسار حياته كما خُلق: لا يعاندُ قدَرًا ولا يبتغي حولا؛ فقال: (تولد الذَّرة من النمال، وتنمو وتبدأ سيرتها في الحياة، وتعمل فيها عملَها الجِدَّ وتفرغ من حقّ وجودها، ثم تقضي نحبها وتموت؛ هكذا مذ كانت الأرض وكانت النمال: لا تتحول عن نهج ولا تمرق من هَدْيٍ؛ وتاريخ أحدثها ميلادًا في معمعة الحياة، كتاريخ أعرق أسلافها هلاكًا في حومة الفناء، لا هي تحدثُ لنفسها نهجًا لم يكن، ولا هي تبتدعُ لوارثِها هديًا لم يتقدم) .

وأول ما بدا لي هذا الأسلوب من قراءة المقالة الثامنة عشرة « أمهلهم رويدا »، التي أفصح بأولها عن أحاسيس وجدها بنفسه حين كان في غضارة الشباب قبل أن تُثقل النفسُ بهموم الدهر أو تفترق بالصحب مسالك الحياة.

والتمثيل على هذا النوع من أساليب الكتابة لا يتبين إلا بالإطالة بمثاله؛ ليمتزج القارئ بالفكرة؛ فالقلمُ المنقولُ عنه يسيل بفكرة واصفةٍ واحدة. قال في ص ٣١٣ من كتاب « أباطيل وأسمار »

وأقول ل قبل دخول إلى هذه القطعة: عزمت عليك أخي القارئ أن تقف عند قوله: «أربعون سنة!! » قبل أن تواصلَ القراءة؛ لأنَّ وقفتك هذه ستجعلك تشارك الكاتب مشاعره؛ وأرغب إليك أن تقرأها محدقًا عينيك متمثلاً ما توحي به علامتا التعجب اللتان وضعهما الكاتب؛ فهذا مما يعينك على الإحساس بإحساسه؛ وإن زدت وقلت: يا الله!! فهذا أعجب في إدراك الصورة.

(أربعون سنة!! لقاءٌ مفاجئ على غير ميعاد. غرباء جمعتهم الغربة على طريق. نظر بعضهم في وجوه بعض من بعيدٍ وقريب، ومر جسدٌ قريبًا من جسد، وتحية يلقيها أحدهم على بعض بلا بشاشةٍ ثم يمضي كأنه لا يبالي، ثم يلتفُ من بعيد ليجس هذا الجثمان المنتصب بنظرةٍ فاحصة. ثم يعودون مرةً أخرى فتلتقي الوجوه وتتقابل، وتتصافح النظرات بالطرف الخفي، ثم يعرض هذا ويعرض هذا ويمضي كل امرئ لطيّتهٍ في أرض الصمت ثم يعودون مرة ثالثة، فتقبل الأشباح فتمتدُّ الأيدي، ولكنها باقيةٌ في مكانها مسدلةً لم تتحرك من موضعها! وتقبل الخطى لكنها،

تتردد فيذهب هذا يمينا ويذهب هذا شمالاً ، وتنطوي الأيامُ يومًا بعد يوم وسرعان ما تجلت عنهم هذا الغربة الراغبة المغرضة، وسرعان ما تكشَّف الإعراض والإقبال عن صداقةٍ بلا مطمع وعن مودةٍ صافيةٍ بلا كدر ، وإذا شبابٌ تستفزه جهالة الصِّبى وغرارة الطباع، وألسنةٌ ثرثارة لحداثة عهدها بالإبانة عما في سر قلوبها وعقولها وغَمَراتٌ من الفرح تخوضها بجرأةٍ وبلا تردد ، واختلاف واتفاق، ورضى وغضب، وصوتٌ يعلو وصوتٌ يهمس، وليلٌ ينساب في نهار ، ونهارٌ يشق سدول ليل وآت منقض يلقى الملالة عن ماض منهزم ، ورأيٌ متجهمٌ ينشق عن مرح ضاحكٍ، واندفاعٌ إلى غايةٍ كالسيل الجارف، وارتدادٌ عنها كمثَلِ لمحة البرق ، ووقارٌ بادٍ تهزه من تحته خفةٌ كامنة ، وطيشٌ طليق يكفُّ من غُلَوائه أدبٌ وحياء)

سار بهذا الأسلوب الوجداني أربعَ صفحات جعلها مفتتحًا لمقالته تلك ، ثم نأى به الخاطر فاستجاب القلم ، نأى عن هذا الأسلوب إلى أسلوب المتأمل المتوجس الخطو المتفكر في الحال

والمآل وهذا أسلوبٌ آخر يضاف إلى أساليبه في الكتابة : (. . . ففي يومين متتابعين وفي صحيفتين مختلفتين قرأت عجبًا من العجب وإذا كان هلاك بعضي قد أفزعني إلى التأمل ، فإنَّ هذا العجب قد أفزعني إلى النظر ومراجعة أمر مصيرنا ومصير أبنائنا من بعدنا ، فنحن نعيش في عالم يتربص بنا الدوائر ، وإن زعم بعضنا لبعض أحيانًا أننا بعضُ هذًا العالم وأننا على مدرجةٍ إنسانيةٍ شاملةٍ من التطورٍ ، كلا بل هو عالمٌ يريد أن يبتلع عالمًا آخر :أن يفترسه، ثم يُقضقِضه ثم ينهشه ثم يبتلعه ، بضعةً بعد بضعة ؛و الشاة بعد الذبح لا تألم السلخ، فكيف تألم لمضغ لحمها بين أنيابٍ حِداد !)

ومن وجدانياته ص ١٧ من الأباطيل، أنه انقطع عن الكتابة ثلاث عشرة سنة ، فوصف حاله مع قلمه حين عاد ليكتب: (. . . فلما عدتُ إليه أحمله ، ثقُل محمله ، وقد صدئ سنه ، ورَسَف في قيود الإهمال خطْوه، وإذا هوةٌ سحيقة القرار قد انخسفت بيني وبينه كهوة حبيبين تمادى بينهما جفاء مستحدثٌ من ملال) .

ومن وجدانياته ما كتبه في مفتتح المقالة السابعة عشرة ص٢٩٣: (أما بعد فقد أعفيّت نفسي بضعة أسابيع من هم القلم وقلق النفس لكي أفرغ لهمّ يزيدني شعورًا بلذة الحياة وبهجتها وقلق يزيد النفس توهجًا تحت أثقال العُمْر . . . كأني قد وقفت، في الأسابيع القلائل، على قمةٍ من القمم الشوامخ، والأرض كلها من تحتي فأرمي ببصري إلى أفق بعيدٍ معرقٍ في البعد منذ عهد أبينا آدم عليه السلام، ثم أرجعه على عوالم من ذريته لا يعلم زمانها وآجالها ومصائرها إلا بارئها وحده سبحانه ووجدتني تميد بي «كما اهتزّ تحت البارح الفننُ الرَّطبُ» ولا كنشوة جَذيمة الأبرش الوضاح، ملك العرب قديمًا في الجاهلية؛ حيث وصف نشوة يخالطها طائفٌ من الحزن . . .) ثم ذكر أبياتًا لجَذيمة علق عليها بأسلوب وجداني قائلاً (. . . فأي نغم جليلٍ فخم متهدج النبرات، اهتدى إليه هذا الجاهلي القديم . . . وما دام القلم قد حملني هذا المحمل . . . فسأدعه يحدثك عن عربيٍ آخر عظيم الهم كريم القلق) وبعد أن ذكر أبياته علق عليها (فأي نغمٍ؟ وأي نشوةٍ؟ وأي حزنٍ

رقيق وأي استقبال لخير الحياة وشرها بلا خوفٍ ولا تردد ؟ وأي قدرةٍ على جعل هذه الألفاظ الشريفة أوتارًا مشدودة على قياسٍ وحساب . . .)

قلت: رحمك الله أبا فهر فأيُ قلمٍ قلمُك فأيَّ جادةٍ سلك فاق وأمتع ! ؟

ومن أحاديثه الوجدانية ما ورد في المقالة التاسعة عشرة ص٣٣٤ حيث أفضى للقارئ بحديث أ داره بينه وبين نفسه إذ بداله أنها تعاتبه على ما يُظهره من صورةٍ و يقابل الناس : (. . . ولكن ما هذه الجهامة !وهل تجده حسنًا أن تقبل على الناس بهذه الأسارير المتقبضة ، وبهذا الجد الصلب وبهذه الشراسة الصارمة؟ هكذا قالت لي نفسي؛ فأجبتها : وما أملك، إذا كان لعبُ الأطفال قد يُفضي إلى إضرام نارٍ تأكل الرطب واليابس وإذا كنت قد رأيت بعيني أوَّل لسانٍ منها قد همَّ بأن يندلع ؟ أليس لزامًا علي أن أقطعه قبل أن يتشبثَ بشيءٍ فيشتعل، فيحتدم فيستطير فيه اللهبُ يمينًا وشمالا، ثم لا يبقى شيءٌ إلا قضمت فيه

قضمة فتسعَّرت ؟ فأجابتني نفسي: حلاً، يا أبافهر ! «أي تحلل من قولك ولا تتشدد» فإنَّ الأمر لأهونُ على الله مما تصف ! فإنك لا تخاطب نُوامًا ولا غافلين، وعسى أن يكون في الناس من يجدُ ما تجدُ ويعرفُ أكثر مما تعرف قلت: صدقتِ؛ومن ظن في نفسه الظنون أورده الظن المهالك ؛ وقبيحٌ بالمرء أن يرى نفسه العاقلَ، ويرى الناس تبعًا له وعالةً عليه . قالت : وإذن ! قلت وإذن . وإذن فنتخفف ببعض الباطل، ليكون ذلك معوانًا لنا على طلب الحق ، وببعض الهزل ليكون أسرعَ بنا في طريق الجد)

وفي المقالة الرابعة والعشرين ظهر شيئٌ من وجدانياته وبثه: (أيحسن بالكاتب أن يشكو نفسه إلى قرائه ؟ وسواء كان ذلك مما يحسن به أو مما لا يحسن به، فإني لشاكٍ نفسي إلى القراء ، فأنا حين أتهيأ للكتابة يخيل إلي أنَّ الموضوع قد استقر في نفسي واستوى . . . وعندئذٍ أكون كالذي يرى جنةً مترامية الأطراف من المنظر الأعلى . . . كأنها زُويت لي في رقعةٍ يحيط بها البصر ، فيرى أفنان شجرها وتناوير أثمارها . . . ومسارب طرقها ومَدبَّ حصبائها ،

بل أكاد أشمُّ شذاها وعرفها وعطرها . فإذا أخذت مكاني وأمسكت بالقلم وبدأت أكتب فكأني قد انحدرت من سماء مرقبتي . . . فأذهب أتحسس منفذًا في سوادها المحدق بها ، أبتغي لنفسي مدخلا فإذا وجدته ، فمن قبله تأتي البلوى. فأنا عندئذٍ يستخفني الفرح بهذا المدخل الذي اهتديت إليه . . . وينشب في وهمي أني قادر على أن أسلك طرقًا واضحة . . . ولكن ما أضيعَ المرءَ بين النعتِ والبصرِ)

وحين حقق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رحمه الله كتاب « شرح الأشموني على ألفية ابن مالك « قال: (. . . وقد رغب إلي صديقي الأديب الفاضل محمود أفندي محمد شاكر أن يكتب فصولا عن نشأة اللغة . . . كمقدمة لهذا الكتاب فرحبت بالفكرة وسررت لها وأثبتها له شاكرا) أهـ

وحين قرأتُ ما كتبه الشيخ شاكر وجدت فيه ما هو صالحٌ أمثلةً لأن أضمه إلى كتاباته الوجدانية التأملية؛ فاقتبست من

هذا قوله : (أترى لو أنَّ أحدَنا التَمسَ من هرَّته الإفصاحَ عن العلَّة في إصاختها حين تسمعُ صوتَ صاحبها إذ يُناديها باسمها الذي اجتَباه لها ، فما يكون جوابها ؟ لا يُداخلنَّك شكٌّ في أنَّ الهرَّة لم تفهَمْ من نداء صاحبها ما يفهَمُ هو من معاني النّداء ، بل كل شأنها حين تصيخ في دربة أَعصاب أذنها ، وتعودها حركَة خاصَّة دربت بها علّى التّكرار والإعادة والمراجعة، وذلك أنَّ مَسامِع الهرَّة كمَسامع كلَ حيًّ تصيخُ للصوة والنبأة حين تلقفُهُما الأذن، فإذا ما التَفَتَتْ رأتْ في حركة وجه المنادي ونظرته وإشارته ما تفهَمُ به غريزةً أنَّ هذه كلَّها من معاني النّداء الذي يُطلَب به الإجابة، فهي في المرَّة الأولى والثانية تعيرُه سمعَها ، وتمنحه بصرَها ، وتكاد تفقَهُ معنى إشارته لها بالمَجِيء إليه، فلا يَزال هو يلحُّ عليها ، ولا تَزال هي تطمئنُّ إلى إشارته، وتتدرَّب على ندائه، حتى تَنقاد لذلك أعصابُ السمع، ويَهدِيها المقدار المشترَك من الفَهْم في الحيوان كلّه إلى الحركة نحوه، فما يُنادِيها بعدُ بما تعوَّدت عليه أذُناها من النداء إلا أجابَتْه سمعًا وطاعةً) .

وكأنه جعل هذا مقدمةً لحديثه عن نشأة اللغة: (ثم لو أنَّك تركتَ جماعةً من النَّشْءِ الصغار وحدَهم وأمهلتَهم زمنًا يطولُ أو يقصر، ومنعت تسرُّب أحاديث الناس إلى آذانهم - لرجعتَ إليهمّ وقد أحدثوا لما تقعُ عليه أبصارهم من شيءٍ ألفاظًا يُعبّرون بكلَ واحدٍ منها عن شيءٍ بعينِه، وهذه الألفاظ إمَّا أنْ تكونَ حكايةَ صوتٍ أو تمثيلَ شكلٍ أو تقليدَ حركةٍ إلى غير ذلك من أساليب التعبير، ولو أنَّك انتزعتَ الهمَّة لمراقبة هؤلاء الصّغار في وطنهم هذا لرأيتَ أنَّ ما يُحدِثونه من الألفاظ يجري اللفظ منها على لسان أحدهم مرَّةً وأخرى ولا يزال يُبدِئه ويعيدُه على أسماع أترابه وهم يُقلّدونه ويُحاكونه حتى تنذلقَ به ألسنتهم وتلينَ له حَناجرهم؛ فمن ثَمَّ يجري هذا بينَهم لفظًا موضوعًا لمعنى خاص أو شيء بعينِه، ولا شَكَّ عندنا أنَّ هذا النوع من التعبير ممَّا يُهدَى إليه الطفل إلهامًا وتوقيفًا لا اجتهادًا ولا مُواضعة . . . ولا تحسبن أن النبوغ هذا لا يكون إلا في معاني الشعر أو أراء الفلسفة أو أحكام العلوم، بل النبوغ إشراق في الإنسانية يوضح لها ما لم يكن واضحا ويهديها إلى ما

كانت عنه في ضلال مبين؛ فالاهتداء إلى لفظٍ واحد جديد للتعبير عن شيْ كان مهملاً لا لفظ له في طفولة الإنسانية كالاهتداء إلى سر سقوط الأشياء من أعلى أسفل بالجاذبية في عصر شباب العلم)

وقوله: «ولا شَكَّ عندنا أنَّ هذا النوع من التعبير ممَّا يُهدَى إليه الطفل إلهامًا وتوقيفًا لا اجتهادًا ولا مُواضعة» هذا يشير إلى الرأي الذي يرى أنَّ اللغة توقيف؛ وهذا ما أراه أنا جزمًا؛ ومقطع جزمي في كلام علَّقته على كتاب الخصائص لابن جني رحمه الله؛ وملخصه: أنه قال عمن يرى المواضعة في ص ٥٤: (... وذلك أن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعون لكل واحد منها سمة ...) ورأيُ هؤلاء تخيُّلي والحجة إنشائية متوهمة لم تُبنَ على قاطع؛ فاتفاقهم على مسمى معين من أين جاءوا بهذا اللفظ؟ إذا لم يُسبق بلغة؛ ثم إنَّ هذين الحكيمين كيف عرف من حولهم أنهما حكيمان؟ ومن أين جاءوا بهذه اللفظة؛ خصوصًا إذا عرفنا أنَّ الحكمة أمرٌ معنوي؛ فليس لها جسمٌ من الممكن أن يشارَ إليه فيقال هذه هي

الحكمة، وكذلك مما يبطل القول بالمواضعة أنّ القائلين به استشهدوا بما يصطلح عليه التجار والصناع والحاكة من مسميات؛ ووجهه أنَّ هؤلاء تواضعوا على المسمى الجديد لوجود لغة يتحدثون بها؛ وصواب الرأي عندي أنَّ اللغة آيةٌ من آيات الله قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ الروم ٢٢؛ ولتباعد الأزمان والأمكنة اختلف الألسنةُ وتباينت .

وقال في المقالة الثانية عشرة مما كان بينه وبين طه حسين: (ونحن لا نفخر بأننا أول من كتب تاريخ المتنبي على هذا الوضع ــ يعني كتابة تاريخ المتنبي بتتبع تاريخ إنشاء القصائد ــ الذي تراه في كتابنا، ولكننا نقرر ذلك إقرارا للحق وبيانًا للذي فعله معنا الدكتور طه، حين أخذ آراءنا فأفسدها، ووضعها في غير موضعها، واستعملها بغير حقه، وأخرج كتابه على غرار كتابنا غير متهيب ولا متورع من مذمةٍ أو أثم، وأغراه بذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته، وما يعلم مما نحن فيه من الخفاء

والصمت وقلة الاكتراث بالدعاية الملفقة لأنفسنا . . . ولو جاءنا الدكتور طه فالتمس هذا الكتاب منا لنزلنا له عنه ، ما كان نزولنا عنه يرد عن العلم هذا الفساد . . . وما كان هذا النزل سببًا في ستر عيوب رجلٍ نصب نفسه ، أو قد نصَّبه سواه صدرًا في الأدب العربي في مصر)

قوله : [وأغراه بذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته ، وما يعلم مما نحن فيه من الخفاء والصمت وقلة الاكتراث بالدعاية الملفقة لأنفسنا] يتفق مع المعنى الذي أشار إليه عبد القاهر كما مر في الفصل الثاني .

وقوله : [ما كان نزولنا عنه يرد عن العلم هذا الفساد] يعني أننا ننزل عن حقنا إذا كان نزولنا يحفظ للعلم هيبته؛ قلت هذا مخافة أن يُفهم أن « ما « نافية .

ومما يجري مجرى الأسلوب الوجداني تعريفه للشعر ؛ فقد قال في ص ٣٧ من كتابه : « قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاّم

(ولفظ الشعر في لسان العرب موضوعٌ للدلالة على كل كلام شريف المعنى نبيل المبنى محكم اللفظ يضبطه إيقاعٌ متناسب الأجزاء وينتظمه نغمٌ ظاهرٌ للسمع ، مفرط الإحكام والدقة في تنزيل الألفاظ وجَرْس حروفها في مواضعها منه ، لينبعث من جميعها لحنٌ تتجاوب أصداؤه متحدرةً من ظاهر لفظه ومن باطن معانيه ، وهذا اللحن المتكامل مقسَّمٌ أيضا تقسيما متعانق الأطراف متناظر الأوصال ، تحدده قوافٍ متشابهة البناء والألوان ، متناسبة الواقع متساوية الأزمان هذا هو الشعر)

وظاهرٌ أنه كان يستوحي ثم يستصفي بعض صفات الشعر كلما قرأ قصيدة أو تغنى بها فتتولد عنده صفةٌ من هذه القصيدة ؛ لأنَّ قراءة هذه الصفات تفيد أنها من مجموع كثير من الشعر استنبط منه ما رآه وأحسه في وجدانه وهو يقرأ أو ينشد أو ينشئ أو يسمع .

وقوله : « لحنٌ تتجاوب أصداؤه متحدرةً من ظاهر لفظه » و « متعانق الأطراف متناظر الأوصال « هاتان الجملتان أرى أنه قذفهما إلى الورقة من أعماق وجدانه وإحساسه؛ كما أنَّه قذفهما وهو يعيش لحظة استحضار وجدانه لشعرٍ بعينه .

ودعاه إلى هذا ما قاله ابن سلاَّم رحمه الله ص ٢٧ عن صفة الشعر: (وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربية، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف)

لأنه حين قرأ هذا الوصف لنوع من الشعر، قال ص٣٩ـ٤٠: (أيُّ شعر هذا الذي فيه ما فيه مما وصف بعدُ؟ أهو الشعر الذي تعرفه البديهة العربية؟... بلا ريب لا؛ أهو الشعر الذي عقد ابن سلاَّم عزمه على أن يؤلف فيه كتابًا؟... بلا ريبٍ لا أيضا... وأنا لا أشك أنَّ ابن سلاَّم لما جاء مفتتحاً متهجمًا على بديهة لفظ «الشعر» كاد يفلت لسانه فيقول: «وفي الشعر شعرٌ» مصنوع مفتعل موضوع... «ولكنه أمسك وردَّ اللفظ مستنكفا متقذرًا، من تسمية هذا الكلام المسلوب كل فضيلة «شعرا» فقال: «وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع؛ لأنه أبى من أن يجعل هذا الشيء المتقذر قسيمًا للفظ «الشعر» الشريف النبيل المحكم)

قلت: قراءة هذا الكلام توحي بأنَّ هنا معنى استحكم في ذهنه ؛ ولكنَّ التعبيرَ الوافيَ المقنعَ لـما استحكم استغلق عليه؛ فقول ابن سلاَّم لا يومئ إلى ما رآه الشيخ شاكر وذهب إليه؛ لأنَّ ابن سلاَّم قال : « وفي الشعر» فهو نسب الكلام الموصوف في قوله : (وفي الشعر مصنوع مفتعل . . . . ولا نسيب مستطرف) نسبه إلى الشعر ومهما قال في سقوطه ألا أنه يراه شعرًا ؛ كذلك قول شاكر : [أيُّ شعر . . . أهو الشعر الذي . . . أهو الشعر الذي . . .] هذا يدلُّ على أنَّ شاكرًا يراه شعرًا إلا أنه ساقط مرذول؛ لكنَّ هذا السقوط لم ينفِ عنه تسميته شعرا .

والشعر في أصله معانٍ ؛ ولكن متى تكون هذه المعاني شعرًا ؟ قال في ص ١٣٠، ١٣١ من جمهرة مقالاته وقد أطال وفصَّل في هذه الخاطرة من هذه المقالة : (. . . وأنَّ هذه المعاني ليست إلا أفكارًا عامة يشترك في معرفتها كثيرٌ من الناس . . . وإنما تصير هذه المعاني شعرًا حين يعرضها الشاعر في معرض من فنه وخياله وأدائه ولفظه . . . فأيما معنى عرفه الشاعر ، وأيَّما صورةٍ رآها

وأيَّـما إحساسٍ أحس به؛ فهو لا يكون من شعره إلا حين يتحول في روحه وأعصابه ودمه إلى أخيلةٍ ظامئة عارية تبحث عن رِيها ولباسها من أسلوب الشاعر وألفاظه) .

قلت : فالشاعر المطبوع هو الذي ينقلك من معرفة المعنى إلى الشعور بالمعنى ، ولا فرق عندي في هذا بين الحرف المنقول شعرًا أو نثرا؛ فهناك خيال ونقلٌ للإحساس يموج في بعض المقاطع النثرية يفوق كثيرًا مما يكون في القصيد .

توشية

في ساعةٍ من الساعات الأولى للمطالعة قد أجدُ من المعاني ما يستغلق على الذهن فهمُه ؛ ولكني لا أقف عندها فاستمرُّ في المطالعة؛ لأني أرى أنَّ الذهن بحاجة إلى وقتٍ لينشط ؛ وعندما أسير قليلاً في مطالعتي تبدأ يقظة الذهن في النشاط والإصغاء للمقروء ؛ وبعد أن أسير واتأكد من عودة الصفاء أتوقف هنا ثُمَّ أعود لما قرأت فينفتح ـ ولله الحمد ـ ما استغلق فإن رأيت في نفسك هذا فلا تقلق؛فهو من النقص الذي كتبه الله على ولد آدم وجرب ما ذكرت لك .

الفصل الثامن

قراءة كتاب «نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف»

والنسخة المقروءة

هي الطبعةُ الأُولى / ١٤١٦هـ

دار القدس؛ الناشر دار المدني بجدة

مطبعة المدني بمصر؛

قال في ص ٨٥ : (. . . أنَّ الوزير الأندلسي أبا عبيدة البكري (. . . ٤٨٧هـ) ذكر من القصيدة أبياتًا في كتابه « اللآلي في شرح أمالي القالي « فقال . . . وهي قصيدةٌ ونمطٌ صعبٌ ؛ ومن هذه الصفة التي وصف بها القصيدة استعرت عنوان هذه المقالات .) وأدار الكتاب على قصيدة

إنَّ بالشّعب الذي دون سلْعٍ لقتيلاً دمه ما يطلّ

نصُّ القصيدة

١

١ ـ إنَّ بالشّعب الذي دون سلْع لقتيلاً دمه ما يطلُّ

٢ ـ قذف العبء عليَّ وولَّى أناً بالعبء له مستقلُّ

٣ ـ ووراء الثأر مني ابنُ أختٍ مَصِعٌ عقدته ما تحلُّ

٤ ـ مطرقٌ يرشحُ موتًا كما أطرق أفعى ينفثُ السمَّ صلُّ

٢

٥ ـ خبرٌ مَّا، أصابنا مصمئلُ ! جلّ حتّى دقَّ فيه الأجلُّ

٦ ـ بزني الدهر، وكان غشومًا، بأبيً جاره ما يُذلُّ

٧ ـ شامِسٌ في القُرِّ، حتى إذا ما ذكت الشعرى فبردٌ وظلُّ

٨ ـ يا بس الجنبين من غير بؤسٍ وندي الكفين شهمٌ مدلُّ

٩ ـ ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما حلَّ حلَّ الحزم حيث يحلُّ

١٠ ـ غيثُ مزنٍ غامر حيث يجدي ، وإذا يسطو فليث أبلُّ

١١ ـ مسبلٌ في الحي أحوى رِفَلٌّ وإذا يعدو فسِمعٌ أزلَّ

١٢ ـ وله طعمان : أريٌ وشريٌ ، وكلا الطعمين قد ذاق كلُّ

١٣ ـ يركب الهول وحيدًا ، ولا يصحبه إلا اليماني الأفلُّ

٣

١٤ ـ وفتوٍ هجَّروا ثم أسْرَوا ليلهم حتى إذا انجاب ، حلُّوا

١٥ ـ كلُّ ماضٍ قد تردَّى بماضٍ كسنا البرق ، إذا ما يسلُّ

١٦ ـ فادَّركنا الثأر منهم ولما ينجُ مِلْحيين إلا الأقلُّ

١٧ ـ فاحتسوا أنفاس نومٍ فلما هوَّموا رُعْتُهمُ فاشمعلوا

٤

١٨ ـ فلئن فلَّت هذيلٌ شَباهُ ، لبما كان هذيلاً يفلُّ

١٩ ـ وبما أبركها في مُناخٍ جعجعٍ يَنقَبُ فيه الأظلُّ

٢٠ ـ وبما صبَّحها في ذُراها ، منه بعد ، القتل نَهْبٌ وشلُّ

٥

٢١ ـ صَلِيتْ مني هذيلٌ بِخِرقٍ لا يَمَلُّ الشرَ حتى يَملوا

٢٢ ـ يُنْهِلُ الصَّعْدةَ حتى إذا ما نَهِلت كان لها منه عَلُّ

٦

٢٣ ـ حلَّت الخمر وكانت حرامًا وبلأيٍ مَّا ألمتْ تَحِلُّ

٢٤ ـ سقينها يا سوادَ بن عمرٍو إنَّ جسمي بعدَ خالي لخلُّ

٧

٢٥ ـ تضحك الضبع لقتلى هذيلٍ وترى الذئبَ لها يستهلُّ

٢٦ ـ وسباعُ الطير تهفو بطانًا تتخطاهم فما تستقلُّ

شرح بعض الألفاظ وأخذته من كتاب « موسوعة الشعر العربي « لأني وجدته مفرقا عند شاكر؛ والقصيدة في موسوعة الشعر العربي منسوبةٌ إلى « تأبط شرًا »

« مَصِعٌ» ثابتٌ في القتال؛ « مصمئل « شديد ؛ « بزّني « سلبني؛ « شامس « قائم بالشمس ؛ « القُرُّ « البرد ؛ «ذكت» علت؛ « يابس الجنبين « هزيل ؛ « ؛ « أبلُّ « مصمم لا يبالي بشيء؛ « رِفَلُّ « كثير اللحم؛» سِمْع « ولد الذئب ؛ « أزلُّ «ممسوح العَجُز؛ « أري « عسل ؛ « شري « حنظل ؛ « الأفلُّ المتثلم؛ « فتو « فتية؛ « هجَّروا « ساروا وقت الهجيرة؛ «أسروا « من السُرى وهو السير ليلاً ؛ « انجاب « انكشف « ؛ « ماضٍ « جادٌ في أمره ؛ «مِلحيين « من الحيين وهي لغة بعض العرب ؛ « فاحتسوا « تناولوا الشراب شيئًا فشيئًا ؛ « هوَّموا « هزوا رؤوسهم من النعاس ؛ « اشمعلوا « أسرعوا في السير؛ « فلَّتْ « ثلمت ؛ « شباه « حده ؛ « جعجع « أرض غليظة ؛ « يَنقبُ» من نقبت الناقة إذا حفي خفاها ؛ « شلَّ « الشل الطرد « ؛ « بخِرق « شجاع ؛ «ينهل « النهل هو الشرب

الأول؛ «الصَّعْدة « القناة؛ « خلٌّ « هزيل؛ « بطانا « مليئة البطون؛ « تتخطاهم « تعجز عن الطيران بسبب الشبع .

بدأ حديثه مبينًا أنَّ منهجه : (يتعلق بترتيب أبيات القصيدة الذي اقترحه الشاعر الألماني « جوته «) فأخذه الحديث إلى الكلام عن (افتقار القصيدة العربية إلى الوحدة) ثم الكلام في نسبة القصيدة وعروضها وما رآه من ترتيبٍ للقصيدة حسب منهجه في التذوق .

ومنهجه النقدي الذي سار عليه في دراسة القصيدة أخذه إلى أن يعارضَ النقاد الأوائل في شرحهم للقصيدة شرحًا لغويًا مجردًا لأنَّ هذا سيؤول إلى : (أننا إذا وقفنا عندها دفنا الشعر في تابوتٍ من اللغة)

قلت: وفرق ما بين الشرح اللغوي والشرح الأدبي أنَّ الثاني هو المبين عن المشاعر التي اختلجت في نفس القائل؛ أما الشرح اللغوي فلا يفصح عن المكنون وإنما هو إفاضةٌ في معنى اللفظ تحجبه من الدخول إلى مراد القائل؛ وهذا إن طغى على محلل

النص فلن يستطيع أن يظفر باستثارة وجدان القارئ؛ أو بأخذه إلى معايشة المعاناة التي أحسها القائل؛ وسيكون الشارح لغةً شرحه هنا للقصائد ذات النَفَس الوجداني المعبرة عن مشاعر وأحاسيس كمن يشرح متن نظم علمي كألفية ابن مالك في النحو.

درس القصيدة دراسةً عروضية: (وأثبتُّ نصَّ القصيدة مرتين: المرة الأولى، أمام كلّ بيتٍ منه وزنه على ما ألفناه في علم « العروض « وسميته التفعيل، والمرة الأخرى، أمام كل بيتٍ وزنه برموز الخليل... وسميت هذا «التجريد «) وهذا من الاستقصاء الذي أخذه على نفسه في كثيرٍ من بحوثه؛ وفيه جمعٌ بين النقد والتحقيق؛ الذي سار عليه في دراسة القصيدة.؛ ثم قال متعجبًا من كلام يحي حقي بأنَّ من حسن حظ القصيدة أن وقع عليها بصر شاعر ألمانيا العظيم «جوته» فقال: (أبجدٍ يرجو يحي حقي أن تسترد هذه القصيدة جمالها وتوهجها من انعكاس ترجمة جوته عليها؟ أيمزح على عادته أم يجدُّ؟ لا أدري).

وهو بلا شك يعلم أن يحي جادٌّ في هذا ولكنه تعامل هنا

بأسلوب التباله الذي سيرد لاحقًا عندما استعرض أساليبه إن شاء الله؛ كما أنَّه يؤيد ما ذهبتُ إليه من أنَّ قلمه يستحصد حين المساس باللغة.

ص٣٦ دُهش مخطِّئًا قول يحي حقي حين قال: (وانظر إلى وصفه لحياة البادية وسيرِ القوافل) فقال: (وهذا شيءٌ عجيب إذ ليس في هذه القصيدة ذكر للقوافل !)

في ص٣٧ يبين الداعي الذي دعاه للكتابة: (... ثم يسأل يحي فيقول: كيف إذا صح أنها فتاتٌ، أمدت جوته بخيط استطاع بفضله أن يسلك عليه أبياتها في ترتيب منطقي؛ أفتكون قصيدة تأبط شرًا وصلتنا مختلةَ الترتيب؟ هلٍ في القصائد الأخرى التي بين أيدينا، لو أحسن المرء قراءتها وفهمها دلائل على جناية الرواة عليها؟ كيف نظفر والقصائد مبعثرةٌ أجزاؤها في مراجع عديدة بنصها الأصلي؟ ما هو المنهج العلمي الواجب اتباعه في هذا البحث؟ وستبقى هذه الأسئلة تنتظر الجواب عليها؛ وهذه الأسئلة هي التي حملتني على الكتابة)

ومن مقدماته في دراسة القصيدة أنه سار فيها بمنهج التحقيق فتحدث عن رواية الشعر وحال الرواة وعوارض الرواية؛ فقال ص ٣٨ـ ٤٠: (. . . فهي لم تكن صناعةً معروفة محدودة، لها رجال معروفون) ثم قال عن حال الرواة: (بين مكثرٍ ومقل وحافظٍ متقن وحافظ متخير لا يستقصي . وبين راوٍ متتبع لشاعره ، وراوٍ يأخذ بعضًا ويخطئ بعضا . . . فقُرب عهد الشاعر أو بعده من زمن العلماء . . . وطول القصيدة أو قصرها . . . وشهرة الشاعر . . . وذيوع بعض قصائد الشاعر دون بعض . . . والرواة العلماء أنفسهم عرضت لهم عوارض أخرى فيما سمعوه فحفظوه أو قيدوه) ثم عرض لأثر نساخ الشعر في الرواية؛ فقال ص ٤٣: (. . . فابتليت أصوله القديمة التي صنعها هؤلاء العلماء بجهلةٍ من النساخ القدماء ، أحدثوا بجهلهم خللاً شديدًا في دواوين الشعر ، فأسقطوا إسناد الرواية وأسقطوا أيضًا اختلاف الرواية المبيَّن في الأصول القديمة وأسقطوا نسبة كل روايةٍ إلى صاحبها وأسقط بعضهم تعليق العلماء القدماء وجرد الشعر منها) قلت: فهذه خمس بلايا حلَّت

لأنَّ الناسخ لا يدري مغبة صنيعه؛ فهو يقوم بما قام به من غير نكيرٍ عليه من نفسه.

وفي ص٤٤ بين الأمر الذي بسببه قيل بفقد الوحدة في القصيدة العربية: (وعلةُ تفشي هذه المقالة الخبيثة في اتهام الشعر الجاهلي عامة بالتفكك والاختلال، هي علةُ العصر الذي صار أبناؤه يتلمسون المعابة لأسلافهم، في خبرٍ مطروح أو كلمةٍ شاردة أو ظاهرةٍ محدودة فيبنون عليها تعميما في الحكم يتيح لأحدهم أن يشفي ما في النفس من حيث القدح والتردي في طلب المذمة) ثم ذكر أنه بتقصي الروايات: (... وجدتها قد استقامت على نهج واضح ينفي عنها افتقارها إلى صحة البناء، أو إلى ما يسمونه الوحدة) وهذا التقصي له شروط منها: (المراجعة الطويلة لمعاني الشعر، ولمقاصد الشعراء ولاختلافهم في ذلك واتفاقهم ومع الدقة التامة والأناة عند النظر في اختلاف ترتيب أبيات القصيدة وفي تباين رواية ألفاظها ومن أهم الشروط الترتيب التاريخي للكتب التي استخرج منها هذه الروايات ثم أضرُّ شيءٍ أن يتعجل فلا ينزل

كل كتابٍ منه منزلته الصحيحة) فهذه أربعة شروط رأى شاكر لزوم العناية بها عند من يريد تقصي الرواية.

ثم رأيت أن أصنف دراسته للقصيدة في خطوات فقلت:

الخطوة الأولى في دراسته للقصيدة أن بيَّنَ مصادر ورودها؛ فذكر خمسة عشر مصدرًا مبتدئًا بابن هشام المتوفى ٢١٨هـ؛ ومنتهيًا بالبغدادي المتوفى ١٠٩٣هـ؛ وهذه الخطوة تطبيق لقول سابقًا: « ومن أهم الشروط الترتيب التاريخي للكتب التي استخرج منها هذه الروايات » ثم أضاف ص٦٦ على هؤلاء واحدا فأصحبت ستة عشر مصدرا.

الخطوة الثانية قام بوصف نصوصها الواردة في الكتب السابقة؛ فقال: (هذه صفة نصوصها مرتبةً على نسبتها إلى من نسبها إليه هؤلاء العلماء جعلتها تيسرًا خمسة أقسام) وحسب هذه المصادر فقد دارت نسبتها إلى: تأبط شرًا أو إلى ابن أخت تأبط شرًا أو إلى العَدْواني أو إلى الشنفرى أو إلى خلف الأحمر، ثم قال في نهاية هذا التحري ص ٥١: (وتخليص نسبتها إلى واحدٍ

منهم أمرٌ شاقٌ، قد اختلف فيه المحدثون. . . فإني اجتهدت ما استطعت في جمعها ، ولكني لا أقطع بأنَّ الذي وصلت إليه هو الغاية)

الخطوة الثالثة في دراسة القصيدة ذكر ثلاث دلالات في تحديد الاختلاف الذي وقع في نسبة القصيدة، الأولى: أنَّ البيت الثالث والبيت الرابع والعشرين، يدلان دلالة قاطعة على أنها لشاعر يرثي خاله أخا أمه؛ الثانية : أنَّ الأبيات ١٨ـ ٢٠ تدل أوضح دلالةً على أنَّ خاله المقتول كان شديدَ النكايةِ في هذيل، وعلى أنَّ هذيلاً قتلته؛ الثالثة: أنَّ البيت الحادي والعشرين يدل على أنَّ هذا الشاعر قد أوقع بهذيل ونال ثأره منهم .

الخطوة الرابعة في تحديد عصر القصيدة : ولهذه القصيدة نسبتان أولاهما تجعلها جاهلية خالصة؛ والأخرى تجعلها إسلامية خالصة؛ وكتاب التيجان لابن هشام نسبها إلى الهجَّال بن امرئ القيس الباهلي، ولكنَّ شاكرًا رد هذه النسبة ؛ لأنه يرى أنَّ كتاب التيجان : (فيه آفات عظيمة وأخباره لا يطمئن إليها أحدٌ من أهل

العلم؛ والشعر الذي فيه خليطٌ فاسد جدًا وإن كان بعضه صحيح النسبة لأصحابه . . . ولكني استبعد أن يكون «الهجَّال« هو « ابن أخت تأبط شرًا» لأنَّ ديار باهلة كانت عند مجيء الإسلام باليمامة في شرقي نجد؛ وديار بني فَهْم[رهط تأبط شرًا « كانت بالحجاز غربي نجد ويا بُعْد ما بينهما !)فهو ردَّ نسبتها للهجَّال لعدم اطمئنانه لأخبار ابن هشام؛ ولأنَّ ديار قبيلة الهجَّال بعيدةٌ عن ديار قبيلة تأبط شرًا؛ وأرى أنَّ السبب الأول أقوى في النفي؛ لأنَّ بُعْد الديار لا يمنع من المصاهرة .

وهذه الخطوات الأربع سارت على منهج المحققين .

<u>الخطوة الخامسة</u> : أنه يميل إلى نفي نسبتها إلى تأبط شرًا موازنًا بين نسجها ونسج ما وصل إلينا من شعر تأبط شرًا : (. . . أجد نسبتها إلى تأبط شرًا أمرًا صعبًا ؛ لأن نسجها يخالف كل المخالفة ما وصل إلينا من شعره) قلت: ودليل النفي والإثبات عن طريق الموازنة بين النصوص من أعدل وأرجح الأدلة؛ فهو يؤدي إلى نتائج يطمئن إليه الباحث ويأخذ بها القارئ، وهذه الخطوة بمنهج

النقد الأدبي؛ ودليل الناقد هنا مأخوذ من نصٍ بين يدي القارئ؛ ويستطيع المشاركة بالموافقة أو المخالفة.

الخطوة السادسة: نفي نسبتها إلى خلف الأحمر ص ٥٨ : (وأما نسبتها إلى خلف الأحمر . . . فأقدم من نعلمه قال ذلك، وانفرد به وتابعه عليه من تابعه نقلا عنه فهو ابن قتيبة وانفراده بذلك يوجب الحذر) .

ص ٥٠/ ٥٩ يعلل ما ذهب إليه ابن قتيبة من نسبتها إلى خلف: (مَن نسبها إلى خلف الأحمر وزعم أنه نحلها ابن أخت تأبط شرًا ابن قتيبة في الشعر والشعراء . . . ولكني أظنه قاله اجتهادًا لم يسمعها من أحد . . . ولم يجد للقصيدة روايةً إلا عند خلف نفسه؛ فأسرع إلى هذه المقالة؛ وسهَّل عليه ذلك أنَّ خلفًا كان شاعرًا مجيدًا ولكن شعره الذي عرفناه لا يكاد يبلغ هذه المرتبة من البيان والدقة والجمال) والجملة الأخيرة بناها على الموازنة أيضا .

شكٌ في نسبتها إلى الشنفرى شكًا بناه على الموازنة أيضا :

ص ٥٦ : (. . . هذا مع ما أجده أيضا من بُعِد بيانِ هذه القصيدة عن بيان الشنفرى في قصائده التي انتهت إلينا على قلتها) .

وبعد الوقوف على نسبتها قال بعد النظر في أقوال من ذكروها ص ٥٧ ـ ٥٨ : (لم يبق بعد ذلك إلا نسبتها إلى مجهول هو : ابن أخت تأبط شرًا يرثي خاله . . . وأنا أميل أشد الميل إلى نسبة القصيدة إلى « ابن أخت تأبط شرًا « سُمي أم لم يسمَ ؛ وكل الدلائل التي ذكرتها ترجح ذلك عندي)

ص ٥٩ ــ ٦٠ في معرض حديثه عن القصيدة ونسبتها زكَّى ووثق ما رُوي عن خلف: (وحسبك ما قاله الأصمعي وما قاله ابن سلاَّم في « طبقا فحول الشعراء » وهو ناقدٌ بصير يتحرى الصدق، وينخل الأشعار قال : اجتمع أصحابنا على أنَّ خلفًا كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لسانا كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبرًا أو أنشدنا شعرًا أن لا نسمعه من صاحبه . . . والقول في صدق خلف أجاد في تخليصه أحدُ أصحابنا ؛ وهو الدكتور ناصر الدين الأسدي كتابه « مصادر الشعر الجاهلي «) .

الخطوة السابعة ص ٦٦ : ما نقله من كتاب طبقات الشعراء لا بن المعتز في ترجمة خلف الأحمر : (قال دعْبِلٌ : قال لي خلف الأحمر وقد تجارينا في شعر تأبط شرًا ، وذكرنا قوله : « إنَّ بالشّعب الذي دون سلع « أنا والله قلتها ، ولم يقلها تأبط شرًا) ثم ضَّعَف هذه الرواية : (وابن المعتز فيما أرجح إنما نقل هذا عن » كتاب الشعراء « لدعبل، وهو كتاب مفقود؛ فلما تقرر عند شاكر أنَّ الجاحظ قد وقف على كتاب دعبل واطلع على قطع خلف بنسبتها إليه ؛ فيتردد هو في هذه النسبة؛ ثم قال ص٦٨ ـ ٦٩ : (وإذا كان الجاحظ نفسه قد روى شعرًا كثيرًا لخلف في كتبه واستشهد به فما كان يمنعه أن ينسب هذا الشعر إلى صاحبه خلف الأحمر . . . فلأمرٍ ما أسقط الجاحظ ما قرأه في كتاب الشعراء لدعبل ولم يبالِ به) ثم مضى بهذا الأسلوب المتقصي إلى إبي تمام: (وأيضا من الصعب جدًا أن نصدق أنَّ أبا تمام يحرص في كتاب الوحشيات على أن ينقل عن كتاب دعبل ما خالف فيه غيره . . . فلا يبالي أن ينقل عن دعبل ما خالف فيه غيره مخالفةً تحدد نسبة شعر إلى أحد رجلين

أولهما جاهلي هو تأبط شرًا والأخر إسلامي توفي ١٨٠هـ . . . أبو تمام قد اختار في « الوحشيات « رقم ٣٩٣ شعرًا لخلف فما كان يمنعه أن يختار هذا الشعر الذي نسبه إلى تأبط شرًا فينسبه إلى صاحبه خلف الأحمر . . . وإذن فلأمر ما ، أيضا أسقط أبو تمام ما قرأه في « كتاب الشعراء « لدعبل ولم يبالِ به) .

« فلأمر ما أسقط الجاحظ ما قرأه في كتاب الشعراء لدعبل» و « فلأمرٍ ما ، أيضا أسقط أبو تمام ما قرأه في « كتاب الشعراء» هذا ما سيكون في الخطوة الثامنة من خطوات دراسة القصيدة: قال شاكر ص ٧٣ ـ ٧٥: (وإذن فما الذي حمل دعبلاً الكوفي على أن يدَّعي على خلف البصري ؟) بعد هذا السؤال قال : (أهو ما كان من العصبية الغالبة على أهل الكوفة وأهل البصرة ومن التنازع بين رجالاتهما على إثبات التفوق ؟ . . . هذا جائز أم هو شيءٌ أخصُّ من ذلك، هو ما يروى من قول خلفٍ الأحمر راوية الكوفة، قال خلف « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك مني ويدخله في

أشعارها ؟ . . . هذا جائزٌ أيضا ؛ أم هو شيءٌ أخصُّ من ذلك جدًا . . . وكانت فيه [أي خلف] حدةُ طبع . . . فاضطغن الفتى ضغينة فوجد شفاءها في خبرٍ يضعه عليه كعادته ؟ . . . وهذا أيضا جائزٌ جدًا) .

وهنا امرٌ جديرٌ بالعناية والتأمل وهو طريقته في نقد الأخبار والاستدلال من بعضها على بعض ولبعض ؛ وهو أسلوبٌ ينبغي أن تصاغ قواعده من هذا التتبع وأمثاله؛ فبعد هذا قال شاكر : (. . . فقد تيسر أمر الجواب عن الأمر الذي دعا الجاحظ وأبا تمام إلى إسقاط ما قرآه في « كتاب الشعراء « . . . أفلا يكون عجيبا عند الجاحظ إذن، أن يرى في كتاب شاعرٍ كوفي . . . يزعم فيه أنَّ خلفًا حدثه في شأن هذه القصيدة . . . ثم ينظر في نفسه، فيرى أنَّه صحب خلفا وطالت صحبته له وتلقيه عنه فلا يجد عند نفسه ، ولا عند غيره ، أنه سمع مثل هذا منه ! . . . فقول الجاحظ حين ذكر بيتًا أو أبياتًا من القصيدة أنها « لتأبط شرًا إن كان قالها » كما سلف يدل بذاته على أنه قد أسقط كلام دعبل بلا ارتياب)

وفيما يخص أبا تمام قال شاكر في ص ٧٠: (. . . كالذي رواه الصولي . . . حدثني محمد بن موسى قال سمعت علي بن الجهم ذكر دعبلاً وطعن على أشياء من شعره وقال: كان يكذب على أبي تمام ويضع عليه الأخبار . . . حدثني محمد بن موسى بن حماد قال: كنت عند دعبل . . . فذكرنا أبا تمام فجعل يثلبه ويزعم أنه يسرق الشعر) .

ثم قال روايةً عن الصولي في حديثٍ عن قصيدتين: (. . . ولكنَّ دعبلاً خلط القصيدتين، إذ كانتا في وزن واحد وكانتا مرثيتين ليكذب على أبي تمام) .

قلت وهذه المدارسة للتحقيق في نسبة القصيدة من أحسن ما يمكن أن تقرأه في مثل هذه الحال؛ ومن أجلّ ما يمكن أن تنتفع به .

الخطوة التاسعة في دراسة القصيدة: قال في ص ١٢٥: (وسأصف هنا عدد أبياتها وترتيب كل رواية منها وما زيد على أبيات القصيدة وما أُسقِط) ثم ذكر قوادح يراها في كتاب التيجان

(والشعر الذي فيه خليطٌ فاسدٌ جدًا؛ وإن كان بعضه صحيح النسبة) ثم وازن بين ترتيب ابن هشام وترتيب أبي تمام : (ومع ذلك فإنَّ ترتيب الشعر عنده «ابن هشام« ١ـ١٦ لا يكاد يضر مع زيادته التي زادها ؛ لأنها جميعًا صفات متتابعة متفرقة وصف بها الشاعر خاله؛ ولكني أعد ترتيب أبي تمام أمثلَ من ترتيبه في هذا القسم) .

وحين انتقل إلى قسم آخر من القصيدة عند أبي تمام قال ص١٢٦ : (أما ما بعد ذلكً عنده (من ١٧ـ ٢٧) فترتيبٌ على المعاني مختلٌ أشد الاختلال ؛ فلذلك أجده صوابًا ألا يعتد به أحد) .

كذلك ضعَّف رواية صاحب العقد : (وصاحب العقد لم يبنِ كتابه على الرواية ، وهو ليس من الرواة في شيء ، إنما كان أديبًا شاعرًا متخيرًا ، وكان أندلسيا ، مضطرب المعرفة برواية أهل المشرق وأكثر تعويله على ما وقع عليه من الكتب) .

الخطوة العاشرة في دراسة القصيدة: وحين رأيته ذكر ثلاثة كتب ورد فيها قدرٌ صالحٌ من أبيات هذه القصيدة هي: «كتاب الحيوان» للجاحظ وكتاب «الأشباه والنظائر» للخالديَّين وكتاب «اللآلي في شرح أمالي القالي» لأبي عبيد البكري الأندلسي؛ جعلت هذا هو الخطوة العاشرة؛ ثم أورد قراءة لهذه الكتب أفضت به إلى النتيجة التالية؛ قال ص ١٢٨: (ولما كان خلط معاني الأبيات ظاهرًا فيما ذكره صاحب التيجان وصاحب العقد، وكان سبيل التخيُّر ظاهرًا فيما ذكره الجاحظ والخالديان، لم يسلم لنا إلا ما رواه أبو تمام في «ديوان الحماسة» مع الاختلاف عليه في إسقاط بيتين، وفي تقديم القسم السابع على القسم السادس من القصيدة)

والخطوة الحادية عشرة جعلتها عن رأيه في قضية ترتيب الأبيات: ص ١٢٩ ـ ١٣٠ (وقضية ترتيب أبيات القصيدة قضيةٌ معضلة، والاجتراء عليها أمرٌ صعب وتيسُرُ أدلتها لمن يحسن الفصل قليل. . . وأكثر من رأيته اجترأ عليها طائفةٌ من الأعاجم المستشرقين، ثم تابعهم جماعةٌ من أهل جلدتنا) ثم عزا وقوعهم

بالخطأ: (وآفة جميع هؤلاء قلةُ بضاعتهم من المعرفة بلسان العرب ، وجهلهم بوجوه تصاريف كلامها)وقوله : « قلةُ بضاعتهم من المعرفة بلسان العرب « ليس المقصود معاني الألفاظ ؛فهذه المعرفة هي أدنى المنازل ؛ وهذا ما ستجد بيانه في الخطوة الثالثة عشرة وإنما المقصود أن يكون الدارس عارفًا الفروق بين استخدامات الألفاظ حين يكون للمعنى أكثرُ من لفظ؛ فيختار صاحب النص اللفظ المناسب المؤدي لما يريد كاختيار « طرفة بن العبد « لفظة « الطِوَل» أي الحبل على غيرها مما هو في معناها :

لعمركَ إنَّ الموت ما أخطأَ الفتى   لكا لطِوَل المرخي وثنياه باليد

الطِوَل هو الحبل واستخدامها هنا أعجبني واستوقفني ، وأحدث في نفسي قبولا للمعنى الذي يريد الشاعر إيصاله، ولا تقل: إنّه اختارها لإقامة الوزن وليس لها دلالة بلاغية لا يمكن هذا لأنّ الشاعر فحلٌ من فحول الشعر العربي خاصةً ما يتعلق منه في جانب الوصف والتشبيه، ولك أن تعود إلى معلقته لتستمتع بدقائق وصفه لناقته، ولا يعجزه أن يضع كلمة [الحبل] بدلاً من

الطول لو أراد ذلك، ولكن الأمر جذبته إليه بلاغة فطرية ، وأنا أجد في نفسي مذاقًا طروبًا حين جريان الطِوَل على لساني في هذا السياق، ولا أجد هذا في الحبل بل إني أحس الحبل لفظةً مغسولة في هذا السياق؛ لذلك أجزم أنَّ الشاعر قالها ابتداء من غير أن تأتي على خاطره كلمة الحبل فهو تكلم بها سليقة لا مفاضلة؛ لأنَّ حروف الطِول هي التي تؤدي المعنى بإحساس كما أراده الشاعر .

بينما أجد للحبل تأثيرًا في قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ (١٠٣) سورة آل عمران. مما يدل أنَّ هناك فرقًا فيما تُستعمَل له اللفظتان . فالحبل لما يدل على الوصال والتواصل والاستمساك بالأمر والثقة بالوسيلة . ومن معانيها العهد والذمة؛ كذلك أجد أنَّ لفظة الحبل أخذت موقعها في قول الشاعر المخضرم/ سويد بن أبي كاهل رحمه الله :

بسطت رابعةُ الحبلَ لنا   فوصلنا الحبلَ منها ما اتسع

وفيها لطافة أعان على جمالها خفة البحر العروضي

[الرمل] الذي نظمت به القصيدة. ومعنى قول سويد: أي لانت لنا في الوصال فلنا لها؛ وكأنما الطول يُعبَر به ـ في حال ارتخائه ـ عن ساعات الإمهال والمد في الأجل. ولفظة [ثنياه] يشير فيها الشاعر إلى أنَّ اندفاع الأجل لا يعني فوتك منه. ومعنى ثنياه. طَرَفُه.

وإتمامًا للمعنى فإنَّ [ما] في قوله ما أخطأ مصدرية زمانية وليست نافية. فلا يُظن أنَّ جملة [ما أخطأ] هي خبر إنَّ. ولكنَّ الخبرَ هو جملة [لكالطِوَل] فيكون معنى البيت: إنَّ الموت مدة إخطائه الفتى يشبه الطِوَل الذي تربط به الدابة وطرفه بيد صاحبها متى ما أراد أرسلها ومتى ما أراد أمسكها؛ ويحسن إيراد لفظ ثالث للحبل؛ لنرى كيف استقام التعبير به في سياقه، قال جرير رحمه الله

وابنُ اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطعْ صولةَ البزلِ القناعيسِ

القَرَن هو الحبل ولا يناسب أن نضع بدلا منه الحبل ولا الطِوَل لأن المعنى الذي أراده الشاعر هو القهر والغلبة والقيد الإجباري، وهذا ما تشير إليه لفظة اللز فهي لفظة قارعة.

ولما رأى شاكر أنَّ بعض ما وصلنا من الشعر فيه اختلالٌ بالترتيب، ردّ هذا إلى: ومرده إلى ألفاظٍ في بعض الأبيات أخطأ بعض الرواة فوضع كلمةً مكان كلمة قريبا معناها من معناها . . . وربما كان اختلالا لا مرية فيه، يظهر من التحري في مراجعة القصيدة وربما كان مرده إلى سقوط بيتٍ أو أبيات مجتمعة أو متفرقة أو تقديم بيت أو تأخيره) .

الخطوة الثانية عشرة رأى ص ١٣١ أنَّ: (تسديد ما اختل) أي جبر النقص الذي بدا على النص يرى أنه يتعدى معرفة معاني الشعر أو الوقوف عندها إلى معرفة أشياء (مثل قدرة الشاعر على بناء قصيده وشعره . . . وإلى الإبانة عن أقصى ما غمُض في نفسه باللفظ بعد اللفظ وبتركيب الألفاظ بناءً واحدًا تلقفه النفوس بالتذوق . . . مشوبًا بتذوق المعاني المنسربة خلال الألفاظ) .

وهذا غوصٌ من شاكر لا يدركه إلا الناقد ولا يصل إليها عالم اللغة؛ يدركه الشاعر الذي بمعرفته بمعاناة ما قبل القول يستطيع أن يعرف خفايا في نفس الشاعر .

الخطوة الثالثة عشرة: من نظراته النقدية أنه دعا الدارس إلى أن لا يقف عند المعنى اللغوي للألفاظ؛ وبيَّن سوء مغبة فهم الناقد إذا نظر في النص نظرة لغوية، وتوقف عن جلاء الأسرار الفنية في النص ص ١٣٥ ـ ١٣٦: (وإذا وقف المرءُ عند منطوق النصٍ وحده، بقي الشعر الذي ينظر فيه مطموسًا في موضع، متفككًا في موضع آخر مبتورًا في موضع ثالث، فعندئذٍ يتمرد الشعر، ثم يذهب عَنه جامحًا ولا ينقادً... ومراجعة أكثر شروح الشعر، تدلنا على أنَّ أكثر هؤلاء الشراح كان أكثرهم أقربَ إلى أصحاب اللغة وأهل النحو، أو إلى العلماء بالأدب عامة وجمهرة شروحهم مبنيةٌ على تفسير الألفاظ، وعلى بعض ما يتصل بالنحو عند حاجتهم إلى البيان عن تركيب الأبيات التي يشرحونها، وعلى أخبار الشعراء والقبائل... ولم يبالوا بالنظر في جملة القصيد، وما ينتظمها أو يتخللها من مرامي الشاعر في شعره).

قلت: وقد نظرت في شرح المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة؛ فرأيته ـ رحمه الله ـ في كثيرٍ من شرحه لا يتعرض لجمال

البيت أو قبحه أو قيمته البلاغية ؛ فعامة كلامه عن الجانب النحوي واللغوي؛ ولهذا تجد الفرق البين بين أسلوبه في المقدمة وأسلوبه في الشرح ؛ فهو في المقدمة رجلُ بيان وبلاغة وتأصيل لقواعد النقد ؛ ولكنه يتجافى عن هذا في الشرح ؛ حتى لتكاد تقول إنّ كاتبِ المقدمة غيرُ الشارح للمباينة بين الأسلوبين .

والفرق بين أسلوبه في المقدمة وبين أسلوبه في الشرح ينبئ على أنَّ النهج الذي أراده هو الذي كتبه؛ فهو لم يكن عن عجز ولكنه كان عن منهج قصده وعمد إليه؛ وأرى أنّ من أسباب ذهاب الجانب البلاغيً وضعف ظهور الأثر البياني أنه أخذ القصيدة بيتًا بيتًا ولم ينظر إلى القصيدة كاملة؛ فانقطع بهذا نظره إلى الرباط المعنوي والفني الجمالي بين الأبيات .

الخطوة الرابعة عشرة : من حواشي نظره في القصيدة ص١٤٠ : (وكان « لتأبط شرًا « ابن أخت هو خُفاف بن نضلة . . .

ثم قال أكثر هذه القصيدة بعد أن شفى غليله من « هذيل » . . .

فمن الخطأ أن يقال إنَّ هذا الشاعر قال القصيدة في « طلب الثأر »

أو التحريض عليه لأنه إنما قال أكثرها بعد ما أن أدرك ثأره من هذيل، لا قبل إدراكه، ومن الخطأ أيضا أن يقال إنه قالها «يرثي خاله تأبط شرًا»، لأنه لم يقصد قصد الرثاء، والقصيدة ليست من الرثاء في شيء . . . كما فعل أبو تمام في حماسته؛ حيث وضع هذه القصيدة في باب «المراثي» من كتابه، ويعلل نفيه كونه من الرثاء [وليس فيها تفجعٍ ظاهر على هالك])قوله: «لأنه لم يقصد قصد الرثاء» هذه نظرة نقدية يتبين من خلالها أنَّ الفنون الشعرية والأدبية لها دلائل ومسالك يأخذ بها الشعراء .

من نظراته النقدية الفنية للقصيدة أنه قال ص ١٤٣: (وأنا أرجح أنَّ أول بيتٍ قاله شاعرنا هو البيت الخامس؛ لأنه أشبهُ شيءٍ بصرخات مفجوع تتابعت) والبيت الخامس هو:

خبرٍ ما، نابنا مصمئل   جلَّ حتى دقَّ فيه الأجلُّ

ثم قال ص ١٤٧: (وهذا البيت، كما ترى، نفثةُ محزون أذهله الحزن حين فَجَأه فزفر زفرةً بعد زفرة؛ فهو لذلك أحقُّ بأنْ يكون أول القصيدة)

ثم عاد إلى البيت فنظر نظرةً نحوية ص ١٤٣: (« خبرٍ ما) قدم الفاعل على فعله وأدخل على « الخبر» « ما « التي تجيء حشوًا لتدل على الإعراض عن وصف الشيء بما ينبغي له من الصفات؛لأنك مهما حاولت وصفه فبالغت في الصفة فلن تبلغ كُنْهه) قلت: وهذا كلامٌ نفيس ينبغي التنبهُ له في تحليل النصوص والدراسات الأدبية أعني ما تخفيه « ما « فهذه دعوةٌ للناقد ودارس النص أن يقف ويطيل الوقوف متقصيًا ما تحت هذه الـ « ما » .

ثم رأيته ازداد عمقه وظهر إبصاره حين تمثَّل الحالة الشعورية التي قذفت هذا البيت فعاشها مع الشاعر؛فقال: (وهذا الحشو يُلزمك سكتةً بعد إنشاده والترنم به ؛ لأنه يزيدك لهذا الخبر المهول استهوالاً، حتى تكف من ذات نفسك ، ويجعل هذا الذي جرى على لسانك كأنه قائم بنفسه متقطعٌ عما بعده) .

ثم زاد نظرته النحوية حين عاب على من قصر فائدة « ما » على الزيادة فقال ص ١٤٤: (ومن قال إنَّ « ما » زائدة في مثل هذا الموضع ثم سكت، فقد أساء وإنما هو معربٌ لا غير)قلت : لأنَّ

النظرة إلى زيادتها نظرة بلاغية لا نحوية تدعو إلى التدسس والإيغال في خفايا النص للوصول إلى ما خفي، ومن أحسن ما رأيت من المواضع المعجبة الحسنة لـ « ما « قولهم:[لأمر ما جدع قصيرٌ أنفه] فالذهن يذهب مذاهب شتى لتأويل جدع أنفه فلا يقف عند سبب واحد ؛ ويخطر على الذهن خطرات متباينة فـ « ما « تخفي خلفها ظنونا يظنها كلُّ ظانٍ على حده وما يذهب به ظنه وجدع بمعنى قطع ؛ وكأني أنظر إلى من أطلق هذه الكلمة:[لأمرٍ ما جدع قصيرٌ أنفه] وقد قبض طرف لحيته بيده وثبَّتَ نظره في «قصير» وقد اختلط في خاطره ظنون مُريبة وهو يحدث نفسه أو يهمس لمن حوله بما أحس به .

ثم في مضى ص ١٤٥ متعقبًا أصحاب اللغة : (وأصحاب اللغة يقولون : « المصمئل « المنتفخ من الغضب و»المصمئل» الشديد؛ ولو اقتصرتَ على نصّ اللغة هنا في تفسير هذا اللفظ، لفقد الشعر معناه)

والمقصود بقوله : (قدم الفاعل على فعله) الفاعل هو خبرٌ والفعل هو أصابنا ؛ وقوله: (وأدخل « الخبر») يعني بالخبر النبأ وليس الخبر بالاصطلاح النحوي .

في ص ١٥٢ وازن بين روايتين هما «قذف العبء» «خلّف العبء « والأولى رواها أكثر من واحد والثانية رواية أبي تمام ، ثم اختار الأولى لأنَّ الثانية كما يرى (ضعيفة في حقّ معنى الأبيات) ؛ وقد تكون مما ألف أبو تما تغييره ؛ كما أنَّ الأولى (من الجودة بمكان شامخ) .

وأرى أنَّ وجه ضعف « خلَّف» في حق معنى الأبيات أنَّ « قذف» يُشمُّ منها أنَّ القاذف بُدِهَ بأمرٍ لم يتمكن من دفعه واُضطُر إلى ترك الحيلة ؛ فأسرع إلى الخلاص منه ؛ وفيها إبراز العبء وهو أمرٌ معنوي بصورة المحسوس؛ فكأنه جمعه بيده فقذفه إلى الشاعر؛ وفيها ما يثير إحساس المقذوف إليه أنَّ الأمر بات في عنقه ؛ بينما » خلَّف «تدل على الترك والتخلية من غير أن تفيد إلقاء تبعة الأمر والقيام بالعبء على أحد .

أطال الوقوف عند البيت :

مسبلٌ في الحي أحوى وإذا يعدو فسِمعٌ أزلُّ

فردَّ قول المرزوقي وأبي العلاء والتبريزي إذ هم « مجمعون على أنَّ الحرف « مسبل « هو من إسبال الإزار؛ وأما «أحوى « و» رِفَلٌّ فقد فرمنهما المرزوقي؛ وأبو العلاء ذهب إلى أنها إما من الحوة وهي سمرة الشفتين؛ أوهي صفةٌ للشعَر وهو الأسود؛ ثم قال عن رأيه ص ١٥٨ـ ١٥٩ : (« ومسبل « في هذا الشّعْر، إنما يعني به فرسًا عتيقًا ضافي السَّبيب ، قد أسبل ذيله، يرخيه أو يشيل به ويضرب به يمنة ويسرة . . . والذي ذهب بأبي العلاء وأصحابه . . . قلةُ وجود مسبل فيما وقع لهم من الشّعر ولإغفال أصحاب اللغة إيراده في صفات الخيل) ثم استنبط من الاستنباط فقال ص ١٦٠ : (فإذا كان تفسير « مسبل « هو الضافي الذنب وجب أن يكون تفسير «أحوى» الفرس الكميت) .

وأرى أنَّ ذهابه إلى أنَّ المقصود إسبال الفرس مذهبٌ بعيد ؛ إذ لم يرد ذكرٌ للفرس؛ كما أنَّ السرعةَ في العدو ومما شُهر بها تأبط

شـرًا؛ أقول هـذا وإن كان شـاكر ذهـب في ص ١٦٣ إلى أنَّ العَدْوَ هنا ليس هـو الجري بل هـي من قولهـم «عـدا على الشـيء «اختلسـه؛ ثـم إنَّ ذها بـه إلى هـذا المعنى للعدو يدل على أنَّ «مسبل «صفـة إنسـان مشـبَّهٍ بالسبع الضـاري؛ ولا يمـدح الخيـل بأنـه سِـمْع فالسِـمْعَ هـو ولد الذئب من الضبع وهـذا خَلْقٌ هجين لا ترضـاه العرب صفـةً لخيلها ، وإن عُـدَّ من السوابق السـراع؛ فهم لم يكرموا الخيـل إعدادًا للسباق فقط؛ وإنمـا هـي للكر والفر ومجالدة الأعـداء، ومناطحـة الأقران وهـذا لا يؤمل من السِـمع؛ ولم ينقل عنهم أنهم قالـوا اسـتوى فلانٌ على صهوة سِـمْعه ؛و»الأزلّ« صفـةٌ للذئب قـال الشـنفرى في لاميتـه:

وأعدو على القوتِ الزهيدِ كما عدا ... أزلُّ تهاداه التنائفُ أطحلُ

والوصف بالذئب صفـةٌ تتمدح بها العرب في وصف أنفسها ؛ والتنائف جمع تنُوفة وهـي الأرض المقفرة؛ تهـاداه تسـلمه مفـازةٌ إلى مفـازة؛ والأطحـل مَن لونُـه كلون الطحـال .

وقوله:

مسبلٌ في الحي أحوى   وإذا يعدو فسِمعٌ أزلُّ .

هو البيت الحادي عشر من ترتيبه للقصيدة ؛ والأبيات التي قبله كلها وصف لإنسان؛ فقد قال عن هذا الممدوح: « بزني الدهر وكان غشومًا بأبي « « شامسٌ في القرّ» « يابسُ الجنبين « « ظاعنٌ بالحزم « « غيثٌ مُزنٍ « ثم قال : « مسبلٌ في الحي « وقال بعدها : «وله طعمان أريٌ وشَريٌ « « يركب الهول وحيدًا « وهذ يؤكد على أنَّ الموصوف رجلٌ وليس فرسا ؛ وإذا استعنا بالنحو رأيناه معينًا لهذا التفسير؛ فالألفاظ شامس يابس ظاعن غيث مسبل؛ كلها أخبار لمبتدآت محذوفة تُقدَر بـ « هو « العائد على أبي؛ والوصف بقوله : «وله طعمان أريٌ وشريٌ « لا شك بأنَّ الموصوف إنسان ؛ والأري هو العسل والشري هو الحنظل وهو ثمر شديد المرارة: وقوله:

« يركب الهول وحيدًا ولا يصحبه إلا اليماني الأفلُّ »

دالٌّ قطعًا على أنَّ الموصوفَ رجل .

ص ١٧١: (إنَّ هذا الشاعر آثر أن يقول « « بزني الدهر « وأَضْرَبَ عن أن يقول: « غالني الدهر» أو « فجعني» . . . فاختار « بزَّني « لأنَّ البزَّ (بفتح الباء وتشديد الزاي) وهو سلاح المحارب تامًا . . . فلما آثر هذا اللفظ على غيره أشعرنا منذ اللحظة الأولى أنه مقبلٌ على أن يصف لا على أن يتفجع ؛ ولما خصَّ نفسه فقال « بزني « أعلمنا أنَّ هذا الهالك كان له سلاحًا يتقي به) وهو هنا يجري على مذهبه بعدم الوقوف فقط عند الدلالة اللغوية للفظة؛ حيث بيَّن ما توحي به؛ وقول شاكر : « هذاالهالك « يُفضي به إلى أنَّ المقصود بـ »مسبل « رجلٌ لا فرس.

وقال في ص ١٧٨ : (ولما كان يبس الجنبين أدلَّ شيءٍ في بدن الإنسان على استحكام قوته . . . قال شاعرنا عن خاله : « يابس الجنبين « وقال في ص ١٨٥ : (و «ظاعن « هذه الصفة التي وصف بها شاعرنا خاله تتضمن فيضًا من الحركة بعد الحركة) قلت : ألا يدل هذا كله على أنَّ المقصود بــ « مسبل « رجل لا فرس . ؟

ومن استقصائه للدلالات اللغوية ص ١٨٣ : (كان في هذين اللفظين : « شهم ، مدل « من وجيب الحركة ونبضها ومن حثحثتها واندفاعها ومن تلهيها ومضائها قدرٌ لا يدانيه شيءٌ مما تدل عليه ألفاظ هذه الأبيات)

قلت : إذا أفاض الناقد أو محلل النص بشرح معنى من المعاني ولم يستطع إشراك القارئ بما وجد في نفسه من تأثر؛ فهو إما أن يكون مبالغًا ويعرف عن نفسه هذا فتجده يكرر ويقلّب المعنى الذي يريد بألفاظٍ كثيرة؛ أو أن يكون عاجزًا عن اختيار اللفظ الذي ينقل مشاعره للقارئ ويجعله يحس إحساسه .

الإسباغ الذي يلحق بالألفاظ ويعني به التوسع بدلالة الألفاظ والتطواف باللغة وعصر ما يمكن عصره من اللغة لاستخراج خفايا الألفاظ؛ وهذا الإسباغ كما قال عنه في ص ١٨٩ ــ ١٩١ : (. . . فلا تضبطه اللغة ولا ينبغي لها ، بل يضبطه علم النقد وعلم البيان) وهذا يتفق مع تعامله مع النص الأدبي بألا يحصر النظرة في المفهوم

اللغوي؛ بل قد يشتد على من ينحو منحى لغويا في شرحه للقصيد؛ فقد قال عن البيت:

غيثُ مزنٍ غامرٌ حيث يُجدي، وإذا يسطو فليثٌ أبلُّ

(وأما «يُجدي» فقد ذهب المرزوقي وسائر الشراح إلى أنه من «الجدوى» وهي العطية وهذا لغوٌ وفساد... وهذا خطلٌ شديد... والصواب أن يقال في تفسير «أجدى» أجدى الغيث أو السحاب إذا أمطر وجاد قطره) كذلك حين وقف عند: «وإذا يسطو فليثٌ أبلُّ» قال ص١٩٣: (وأما «الأبلُّ» فأهل اللغة يقولون «الأبل» هو الشديد الخصومة، وهو الجدِل الألدُّ، وهو الذي لا يستحيٍ، وهو الفاجر... وبأي هذ المعاني أخذت في تفسير البيت لم تحل منه بطائل، بل يردك من فساد إلى فساد... وإنما هو قولهم: «بلِلتُ بالشيء» بكسر اللام إذا استمسكتَ به ولزمته بقبضتك فلم تفلته) ونراه في ص ٢٠٣ يهيب بالقارئ: (فإنَّ الإفراط في حسن الظن بالنقاد والشراح... والاستنامة إلى مثل هذا المذهب من التسليم والإفراط في حسن الظن قد أضرَّ بالشعر وغير الشعر)

ص ٢٠٦ داخَلَ بين النحو والنقد حين وقف عند : « وفتو هجَّروا «(والواو التي في أول الكلام واورُبَّ ولا تعطف شيئًا آتيًا على شيء ماض، بل تعطف ما بعدها على شيء قائم في نفس المتكلم؛ ولذلك يفتتح بها الشعر بلا تقدم شيءٍ قبله) قلتً: وهذا لفتٌ لطيف لا يُعفى الناقد من الوقوف عنده؛ لنقل ما يراه من معنى قائم في نفس الشاعر؛ ثم يربط بينه وبين ما قيل؛ فلعل المحذوف هو الباعًث على القول.

في ص ٢٢٣ أوضح أنه لابد للناقد ومحلل النص شعرًا كان أم نثرا من تمثل الحالة الشعورية التي قيل فيها النص: (فإن إلغاء الحالة التي يكون عليه الشاعر وهو يتغنى وإغفالها، يجعل الشعر ميتا لا حراك فيه) ثم بيّن أنَّ هذه الحالة مؤثرةٌ (في اختيار لفظه وفي تركيب كلامه وفي استخدام خصائص لغته للتعبير، مريدًا أو غير مريد عن خفي ما يدور في إحساسه المتوفر ساعة الغناء)

وفي سياق دراسته للقصيدة تحدث عن عبث المستشرقين ص ٢٣١ وما بعدها: (. . . فمن هؤلاء الإنجليزي « سير تشارلز

لايل» المتوفي ١٩٢٠ ميلادية فإنه كان رجلاً ركينا ومستشرقًا واسع المعرفة (لا العلم) صبورًا على التحصيل والدرس فترجم كثيرًا من شعر العرب، وتولى طبع قدر جيدٍ من أشعار الجاهلية... ولكنه ظن في نفسه ما ظن حتى ظن كأنَّ العربية قد آلت إليه ميراثًا فُوض إليه التصرف فيه... فمن ذلك هذه القصيدة، ولا سيما هذه الأبيات الأربعة في القسم الثالث منها فوضعها بهذا الترتيب ١٥، ١٤، ١٧، ١٦) قلت: ويعني بالأبيات الأربعة ١٤ـ١٧ حسب ترتيبه هو؛ ثم قال شاكر: (ولكن أسوأمنه أن يأتي مستشرق إنجليزي آخر وهو «نيكلسن«... ثم يترجم القصيدة إلى الإنجليزية محتفلاً بهذه الترجمة... فجاء بشيءٍ غثٍ جدًا... وأما حديث «جوته« فإنه شاعر ملء عروقه، ليس من أمثال هؤلاء في شيء وكان مع تقدمه وسبقه في الشعر... متوقدًا ملتهب الحِس... ولكنه لما بلغ هذا القسم الثالث رتب الأبيات الأربعة هكذا: ١٤، ١٥، ١٧، ١٦)... وأما ترجمة «جوته« لهذه الأبيات الأربعة فهي ترجمةٌ هابطةٌ جدا... ولكنه أُتيَ من سوء فهم العربية الذي

أوقعه فيه « فريتاج «) وقال في ص ٢٥٠» (وقد عجبت لجوته لأنه وإن لم يعرف العربية لمح ـ بإحساسه المتوقد ، وبتوتره المستجيب لنبضات الفن ـ هذه الصلة بين القسم الرابع وبين القسم الأول . . . وهذا إحساسٌ عجيبٌ جدًا . . . ولكنك لو طاوعت « جوته « وفصلت البيت الثامن عشر عن البيتين التاسع عشر والعشرين لكان شيئًا مضحكًا جدا)

وقوله : (واسع المعرفة(لا العلم) أحببت أن أقف عند هذه الجملة وقفة بيان وإيضاح ؛ فإنَّ هناك من يخلط بين سعة المعرفة وبين العلم ؛ فيضع كل من اتسعت معرفته في مصاف العلماء ؛ وهذا خلطٌ أنتجته حال زماننا بسبب عدم العمق الذي أخذ كثيرًا من أصحاب الأقلام ، وبسبب تهور بعضهم ورغبته في أن يوصف بـ « العالم» فلان؛ ذلك أنَّ سعة المعرف ليس من لوازمها إنتاج العلم ؛ فالعلم ملكةٌ يكرم بها الله من يشاء وليس من لوازم العالم أيضا أن يكون واسع المعرفة في كل العلوم ؛ بل إنَّ حرصه على هذا يُضعِف مقدرته على إنتاج العلم؛ فالعلم هو قَدْحُ دليلٍ بدليل ورأي برأيٍ

فيخرجُ من هذا دليلٌ ثالث ورأيٌ ثالث؛ وليس هذا بمقتضى من يكون لديه معرفة واسعة بعلوم شتى ؛ فتنبه لهذا خاصةً عندما تسمع من يصف رجلاً بأنه موسوعي ؛ فهي وإن أفادت سعة المعرفة ليست دالةً على أنَّ الموصوف من العلماء؛ ورِفعة الرجل فوق منزلته العلمية مما بُلي به بعض أهل زماننا .

ص٢٤١ ردَّ القول بذهاب الوحدة في القصيد الجاهلية وعزاه إلى سوء الفهم في (« تشعيث أزمنة الأحداث « و « تشعيث أزمنة التغني « . . . هو الذي يؤدي ببعض المتهورين إلى الظن باختلال بعض القصائد . . . لأنّ زمن» الحدث « زمنٌ مؤقت مفروض على الشاعر من خارج . . . وزمن « التغني « إنما هو توقيتٌ لاستجابة النفس لحافز الإثارة، ثم بلوغ الاستثارة درجة النضج والتحفُز . . . يتولد زمن ثالث هو» زمن النفس . . . فزمن النفس هو الذي يحمل ما بعثته « أزمنة الأحداث « على اختلافها أو ترافدها ؛ وهو الذي يتحكم من أجل ذلك في نغم البيت من القصيدة؛ أو في نغم مقطع كامل منها ؛ وهو الذي يؤثر في تخيُر الألفاظ والتراكيب والدلالاتً فينتظمها النغمُ الواحد)

قلت: وهذ كلام قد يخفى مدلوله؛ ذلك أنَّ زمن الحدث وهو الحالة التي استثارت القائل فقال؛ وقد يفصل بينه وبين زمنِ التغني فاصلٌ زمني يخفف وطأة الإحساس الأولى أو يُنسي شيئًا من بهجتها أو يطفئ طرفًا من حرها فيأتي زمنُ التغني بعد زمن الحدث وبعد ما يكون القائل أنشأ القصيدة فيلتبس على ناظرَ النص ويخفى عليه الربط بين القولين؛ والتشعيث هو التفرق والانتشار؛ ومادته هي «ش ع ث» قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ في مقاييس اللغة: (شعث :الشين والعين والثاء أصلٌ يدلُّ على انتشار في الشيء) وهناك معنى آخر لـ «التشعيث» وهو أحد المصطلحات العروضية؛ قال في ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة : (والمُشعَّثُ ـ كالمعظَّم ـ في العروض ما سقط أحد متحركي وِتَده؛ كأنك أسقطت من وِتَده حركة في غير موضعها فتشعَّث)

من مناهجه في دراسة وترتيب القصيدة النظرُ في ترابط المعاني بحيث يرتب أبياتها على ما يراه من معاني فيضع المتأخر نتيجة للمتقدم.

المنفذ الذي أعان شاكرًا على دارسة القصيدة أنه تمثل الحالة الشعورية للشاعر، وأحسَّ بها؛ وهذا الإحساس مُعينٌ على دقة النظر وصوابه؛ وهو يتأتى من قراءة النص كثيرًا؛ وينبغي انتهاجه في الدراسات الأدبية.

وقوله عن صاحب العقد: (وهو ليس من الرواة في شيء) ملحظ يحسن الوقوف عنده من حيث التفريق بين كتب الرواة وكتب الاختيارات؛ فكتب الرواة يؤخذ برأي أصحابها من حيث نسبة النص أو عدد أبياته أو ترتيبها أو عصرها ونحو هذا؛ والرواية صناعةٌ لها أهلُها ولها سبيلٌ لا يُحسِنُ سلوكه كلُّ أحد؛ فالراوي الثبت الثقة يجب أن يكون له حظٌ وافرٌ من دقة النظر والتمييز بين المتشابهات ويكون موصوفًا بضبط المحفوظ؛ وقد أفاض أهل الحديث بشروط الراوي الذي يؤخذ عنه؛ أما كتب الاختيار فليس لها من هذا الأمر نصيب؛ ولكن ينظر فيه إلى رأي نقدي يميز الشعر صحيح من سقيمه؛ وقوله: (إنما كان أديبًا شاعرًا متخيرًا) ألا ينطبق على أبي تمام؛ وقوله: (متخيرًا) ألا ينطبق على ابن هشام

في كتاب « النيجان « والمرزوقي والتبريزي في شرح الحماسة ؟؛ فهو أخذ من هؤلاء وردَّ .

وقوله عن ابن عبد ربه: (وأكثر تعويله على ما وقع عليه من الكتب) هذا من الفروق بين الراوية والمتخير؛ فشاكر يصفه هنا بكلام يدل على قليل بضاعته في الرواية ؛ وهذا من كلامهم عن فلان : (أَنَّ شيخه كتابه)

وقف عند البيت :

سقنيها يا سوادَ بنَ عمرٍ إنَّ جسمي بعدَ خالي لخَلُّ

ثم وازن بين روايتين فقال ص ٢٦٦ : (ثم إني اخترت رواية « سقنيها » بفتح السين وتشديد القاف) ، على ما كثرت روايته « فاسقنيها « لأني وجدت هذه الفاء مفسدةً ؛ لأنها تنقل « حديث النفس « هذا فتجعله سردًا واحدا)

قلت : وسواد أصله « سوادة « فجاء هنا على الترخيم حسب ما ورد في موسوعة الشعر العربي .

في ص ٢٦٩ وما بعدها: وازن بين رواية « سباع الطير وعِتاق الطير « وقد آثرت الرواية الأولى . . . لأسباب فإن عتاق الطير جمع « عتيق « وهو الكريم الشريف من كل شيء، ومن كل حيوان وطائر فهي كرام الطير . . . وأما سباع الطير فهو الصواب . . . وإذا قيل « سباع الطير « في مثل هذا الموضع الذي تجتمع فيه وتؤاكل الذئاب والضباع انصرف معنى « سباع الطير « إلى النسور والرخم وأشباهها مما لا يصيد وهي لئام الطير وخساسها ؛لأنها تأكل الجيف والميتة وتريكة السبع . . . هذا وجبال هذيل لا تزال إلى يومنا هذا تعمم جبالها النسور . . . فقوله: « وسباع الطير « إنما يعني النسور في بلاد هذيل ؛ وأما » عتاق الطير « فإني كرهتها وآثرت هذه عليها)

وعندما وصل إلى:

تضحك الضبع لقتلى هذيلٍ وترى الذئب لها يستهلُّ

وقف في ص ٢٧٤ عند « تضحك وتستهلُّ « (ألقى بهذا اللفظين المجردين: « تضحك « و « تستهلُّ «وتركهما بالتجريد التام ،

يتوليان ترديد عُواء الضباع والذئاب المستجيبة لصوت داعيها . . .
ولما قال أولا» تضحك الضبع «فكأنه بعث النفس لتسمع فلما عاد
فقال «وترى الذئب لها يستهلُّ «فأتى بفعل «الرؤية «أشرك العين
والسمع جميعا في الشهود . . . وبهذه الحركة التي أدخلتها «ترى
«على سياق الغناء، تمثلت العين الذئاب والضباع تعاوي من
استعواها . . . ولكنك لا تستطيع أن تخطئ شيئًا واضحًا . . .
وهو التهكم الخفي . . . وهو نسبة «الضحك «إلى الضبع و»
الاستهلال والتطريب «إلى الذئاب) .

تباينت نظرته لرأي جوته مع نظرة يحي حقي؛ فهم شاكر
من رأي جوته وجود وحدة في القصيدة؛ بينما يحي حقي فهم
خلاف هذا ص٣٠٧ـ ٣٠٨ (لله درُّ جوته ما أبصره بالشعر . . .
وبأي بصيرةٍ لماحةٍ استطاع أن يغوص فيلمح ما أضاعته الترجمة
من الأسرار المعقدة الكامنة في الأنغام وفي أجزاء الأنغام ، وما
بينها وبين الكلمات والمعاني من وشائج) وقال عن حديث جوته:
(. . .إنما هو حديث عن «وحدة عضوية «كامنة داخل أبيات

القصيدة . . . عجبت ليحي . . . حين زعم أنَّ « جوته « رأى القصيدة مختلة الترتيب . . وهذا نقيض ما دل عليه كلام الرجل !) .

كيف نشأ القول في الاختلال بترتيب القصائد ؟ ص ٣٢٦ـ ٣٢٩ : (كان ميلاد هذه القضية لغير ميقاته . . . لأنها نتاجٌ أعجمي استولده المستشرقون الأعاجم مما كان معروفًا مألوفًا عندنا من اختلاف الرواية والرواة ؛ فأرادوا أن يعيدوا ترتيب أبيات القصائد ؛ لا على علم بلسا ن لعرب ؛أو معرفةٍ محيطةٍ بأساليب حياتهم وفكرهم في الجاهلية والإسلام أو عن بصر بفن الشعر وأعماقه البعيدة الغور ؛ بل تبجحًا واستعلاءً وتذاكيا أيضا . . . وقد كانت الفترة التي ولدت فيها هذه القضية فترةً محزنة في تاريخنا ؛ لأنها فترةُ صخب لا يكاد المرء يدري من أين جاء ؛ ولا إلى اين ينتهي)

ومن أمسّ القضايا النقدية التاريخية أنه أسقط القول بأنَّ رواةً وضعوا شعرًا نحلوه لشعراء جاهليين؛ قال بهذا بعد أن قرأ شعر الرواة المرميين بالنحل؛ وحصرهم في ثلاثة : الأصمعي وخلف الأحمر وحماد الراوية ورأى أنَّ الأصمعي أقلهم تهمة ؛ وأما خلف

وحماد فقال عنهما : (أما الآخران فلم أجد لهما شعرًا يذكر) ومع قلة المروي من شعر لهؤلاء المتهمين بالوضع ثم وازنه بالشعر الجاهلي فإذا هو ص٣٣٦ : (ولكنَّ الشعر الذي وقع لي من شعر هؤلاء الثلاثة ، كان لأول وهلة شعرًا لا يعتد به وجعلت أتذوقه تذوقا فإذا هو هو لا يكاد يقارب شيئًا مما قرأت للجاهلية ولا أهل الإسلام ، ولا لمن يعاصرهم ، أو من كان قبلهم بقليل ؛ أو من بعدهم بقليل من الشعراء المعروفين) قلت: إنَّ الإسقاط أو الإثبات بطريق الموازنة من أعدل المقاييس إذا كان واضع الموازنة قد أطال القراءة فيما يريد الموازنة بينه حتى يستحكم ويتأصل عنده الفرق .

ردَّ تزكيةَ ابن قتيبة وابن دريد والقالي لخلف الأحمر: (. . . ومع ذلك لم يغررني ابن قتيبة « ٣١٣ـ ٣٧٦هـ « حين ذكره في كتابه « الشعر والشعراء « حيث قال فيه : « كان شاعرًا كثير الشعر جيده، ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثرُ شعرًا منه « . . . ولم يغررني أيضا قول ابن دريد » ٢٢٣ــ ٣٢١هـ « : « وكان خلف أقدر الناس على قافية ؛ ولا قول تلميذه أبي علي القالي « ٢٨٨ـ

٣٥٦هـ « : كان أبو محرز خلف أعلم الناس بالشعر واللغة ؛ وأشعر الناس على مذهب العرب) ثم هو خصَّ خلفًا بمزيد نظر في أدلة إسقاطه ص٣٣٧ : (وقد أهمني يومئذ خلف ؛لأنه هو الذي نُسب إليه صنع» إنَّ بالشعب الذي دون سلع» ونُسب إليه صنع قصيدة الشنفرى : « أقيموا بني قومي صدور مطيكم « . . . فظننت أنه لو كان قادرًا على أن يقولهما لرأيت تلميذه الجاحظ قد نوه بشعره، وبقصيدتيه هاتين كما نوه ببعض شعره في صفة الحيات) وزاد في ص ٢٤٣ : (لأنَّ ما بقي من شعر خلف مثلاً مباينٌ كل المباينة لهذا النمط من الشعر؛ ولأنه أيضا يكاد يكون محالاً محضًا عند النظر أن يستطيع رجلٌ من الرواة عاش آمنًا سالمًا معافى بين الكوفة والبصرة في القرن الثاني من الهجرة. . . أن ينغمس هذا الانغماس المذهل، في أحداثٍ غير متاحةٍ لمثله في عصر الإسلام . . . وفي كل نغم من أجزائها وأبياتها على حدة. . . ويزيده استحالةً أن يكون خلَف قد سُلط على كل هذا الحذق ؛ وكل هذه البراعة ، فيتجشم منها ما يتجشم لكي يضع شعرًا فخما على لسان جاهلي، ثم يتجشمه،

أيضا ، لغير غرضٍ ظاهر) ثم استبعد أن تكون هذه الجودة مفارقةً لشعر خلف الصحيح .

قلت : وأزيدُ أن لو كان خلفٌ مستطيعًا أن يقول بمثل هذه الجودة من الشعر أليس من الأمثل أن يبقيَها لنفسه ؟ خاصةً إذا علمنا أنه لا يعمد إلى خمول الذكر وأنه لا يؤثر النكارة لنفسه؛ ومن المتأصل في طبائع البشر ألا يؤثر أحدهم غيرَه على منزلةٍ نالها ؛ فالنفوس جُبلت على حب الذيوع والثناء والتصدر .

يرى أنَّ » الحشو» له ميزةٌ تزيد الشعرَ حسنًا : (« خبرٌ ما) قدم الفاعل على فعله وأدخل على «الخبر» « ما « التي تجيء حشوًا لتدل على الإعراض عن وصف الشيء بما ينبغي لهُ من الصفات؛لأنك مهما حاولت وصفه فبالغت في الصفة فلن تبلغ كُنْهه . . . ص ١٤٨ : (« أنا بالعبء له مستقل» وقوله : «له «أي من أجله وهو حشوٌ زاد الكلام قوةً وحسنا ومنحه معنى جديدًا ص ١٤٩ « ووراء الثأر مني « وقوله : « مني « حشوٌ ثالث كالذي وصفت قبل قليل) .

في صفحة ١٤٥ــ١٤٦ حين وقف عند لفظة « المصمئل « الواردة في القصيدة لم يرَ مَقنعًا لما قاله أصحابُ اللغة فيها ؛ حيث قالوا إنه المنتفخ من الغضب والشديد ؛ ثم قال: (وإنما فحوى مراد الشاعر أن يدلك على أنه كلما زاد الخبرَ تأملاً زاد تفاقمًا ، وتعاظمًا وأطبق عليه إطباقا وأحاط به إحاطة لا تدع له من إطباقه مخرجا ؛ فأولى أن يقال :إنه من قولهم : « اصمألَّ النبات « إذا التفَّ وعظم وأطبق بعضه على بعض من كثافه) .

تعقباته في كتابه
«نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف»

هذه نماذج لا أقصد بها حصر جميع المواضع التي رأيت عنده ما يمكن أن أسميه تعقُبا ؛ والتعقب أغلظُ عبارةً وأشدُّ نبرةً من عبارة الرد أو النقد أو المدارسة ؛ وهذه المواضع مقصورةٌ على كتاب: »نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف «

قال عن كتاب التيجان لابن هشام رحمه الله : ص ٥٣ : (فيه خلطٌ كثير واضح وليس في كتب الثقات ما يؤيده، كتاب التيجان فيه آفات عظيمة وأخبار لا يطمئن إليها أحد من أهل العلم؛ والشعر الذي فيه خليطٌ فاسدٌ جدًا ؛ وإن كان بعضه صحيح النسبة)

عاب على صاحب اللسان تصرفه ببيتٍ منسوب إلى الشنفرى أو تأبط شرًا ص٥٧ : (أما ما جاء في رقم ٧ أيضًا من نسبة هذا الخلط إلى ابن دريد في لسان العرب مادة « خلل « فهو تصرفٌ معيب من صاحب لسان العرب؛ لأنه نقل نصَّ ابن دريد

في الجمهرة ١ـ ٦٩ وهو « وروى البيت المنسوب إلى الشنفرى أو تأبط شرًا ؛ فكتب مكانه « . . . ابن أخت تأبط شرًا» فهذا شيء معيب)

ص ٦٠ـ٦٢ تعقب القِفطي وأبي الندى عن نسبة القصيدة لخلف: (وأما القفطي وما أدراك ما القفطي فإنه ترجم لخلف في كتابه « إنباه الرواة « ١: ٣٤٨ فقال: « كان يبلغ من حذقه واقتداره على الشعر، أن يشبّه شعره بشعر القدماء . . . من ذلك قصيدته التي نحلها « ابن أخت تأبط شرًا . . . فما فُطن لها إلا بعد دهرٍ طويل بقوله:

حبَرُمَّا ، نابنا مصمئلٌ ! «جلَّ حتى دقَّ فيه الأجلُّ

فقال بعضهم: « جلَّ حتى دقَّ فيه الأجلُّ» من كلام المولدين فحينئذ أقرَّ خلف) قال شاكر: (هذا كلام ملفق من كلامين : من كلام ابن قتيبة ومن كلام أبي عبد الله النَّمْيري ؛ فإنه قال في تعليقه على الحماسة: مما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها : جلَّ حتى

دقَّ فيه الأجلُّ؛ فإنَّ الأعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا؛ فرد عليه أبو محمد الأعرابي فقال: هذا موضع المثل: ليس هذا بعشيك فادرجي... لكن الوجه الذي ذكره لنا أبو الندى قال: مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سلْعا وهو بالمدينة وأين تأبط شرًا من سلْع) ثم قال شاكر: (واعتراض أبي الندى ساقطٌ لأنَّ سلْعًا اسمٌ لمواضع مختلفة في جزيرة العرب... والقفطي كما ترى أخفى اسم أبي عبد الله النَّمري... وهذا القفطي على كثرة حشده في جرابه صاحب تحف... فاجتهاد ابن قتيبة وتلفيق القفطي لا يعتد بهما فالقصيدة إذن عندي جاهلية محضة لا مطعن فيها)

قلت: وقول القفطي بصيغ التمريض» فقال بعضهم «يوشك أن يكون دليلا يشكك في هذه الرواية؛ فمن هم البعض؛ ولا أظن هذا إلا من حكايات السَّمَر؛ وقول شاكر: [هذا كلام ملفق من كلا مين] يدل على استحضاره للمصادر في المسألة التي يتحدث عنها؛ وإيراد المثل: « ليس هذا بعشيك فادرجي « المقصود منه أنَّ هذا العلم ليس من العلوم التي تفتي وتقول بها .

وقال في ص ١٥٧ عن المرزوقي : (وأما أحوى ورِفلّ فقد فرَّ منهما المرزوقي فرارًا فلم ينطق ، على غير عادته في اللجاجة والإكثار)

ص ٢٥٥ـ ٢٥٦ أيضا تعقَّب المرزوقي فقال : (و ههنا مثلٌ على ما يحدثه من يتولى الشعر بلا فطرة تؤهله ؛فالمرزوقي يقول في شرح « صَلِيتُ مني هذيلٌ بخِرقٍ « ما نصه :» ابتليت هذيل من جهتي برجل كريم يتخرق في العرف(أي المعروف) مع الأولياء وبالفكر مع الأعداءً» ثم يقول: « صليت بكذا « أي ابتليت به ومُنيت ، وأصله من صلاء النار . . . « والمرزوقي إمام جليل من العلماء بالعربية ؛ ولكنه ليس من العلماء بالشعر في شيء ؛ وقد جزر البيت جزرًا بسكين علم اللغة ؛ واستصفى دمه بتفسيره الذي أساء فيه من جهتين ؛ فإنَّ قوله : « صليت مني هذيل « ينبغي أن يظل محتفظًا بأصل معناه بلا تأويل لفظه؛ فهو قولهم : « صليَ النار وصلي بالنار» إذا قاسى حرها أو احترق منها) .

ومن هذا تعقبه للمرزوقي والتبريزي وأبي العلاء ؛ ففي ص٢٥٩ وما بعدها : (. . . « وبلأي ما « . . . قراءة البيت أضرت به إضرارًا شديدًا ؛ فالمرزوقي وأبو العلاء المعري والتبريزي قرأوه: « وبلأي ، ما ألمت « ثم قال المرزوقي :» وقوله : ما ألمت يجوز أن يكون ما صلة (أي زائدة) ويجوز أن يكون مع الفعل بعده في تقدير المصدر ، يريد وبلأي ألمت حلالاً؛ والإلمام أصله الزيارة الخفيفة ، وتُوسِع فيه فأُجري مجرى حصلت عندي؛ وهذا كلامٌ غثٌ سقيم، فاختلسه التبريزي في شرحه، فلم يحس بشيء من بَرده؛ لأنه نشأ بتبريز من، إقليم أذربيجان وهو إقليمٌ باردٌ جدًا ! !؛ أما أبو العلاء المعري فيما نقله التبريزي من تعليقه على البيت فقال: «وما » في قوله : « ما ألمت « يجوز أن تكون زائدة، وأن تجعل مع الفعل الذي بعدها في معنى المصدر و» ألمت « أي قاربت . . . والصحيح في قراءة البيت ما أثبتُه « وبلأي ما ، ألمت بينهما سكتةٌ لطيفة . . . ومن قال إنَّ « ما « زائدة في مثل هذا الموضع ، ثم سكت، فقد أساء ، وإنما هو معرب) .

وقوله : (وإنما هو معرب) إيضاحٌ على أنَّ نظرة النحوي تختلف عن نظرة الناقد ؛ فالنحوي يقرر أحكامًا لها حدودها بخلاف الناقد الذي يجب أن تكون نظرة متوجهةً إلى إبانة الجمال والقبح .

في ص ٢٦٧ : (أما آخر شيءٍ فإني أظن أنَّ السبب الذي جعل المرزوقي ينزل إلى هذا السُّخف الذي قاله في «وبِلأْيٍ ما أَلَمت تحلُّ « إذ قال: إنَّ الخمر حصلت عندي حلالاً) .

وقراءة هذه التعقُبات تظهر أنه أكثر على المرزوقي رحمهما الله في التنقص؛ فقد وصف كلامه بالغثاثة والسقم ورماه بالسخف؛ ووصفه باللجاجة والإكثار ؛ وأنه ليس من العلماء بالشعر في شيء ؛ وأنه فرَّ فرارًا من معنى «أحوى ورفلّ» وهذا مسلكٌ ليته لم يَفُهْ به؛ وله مندوحةٌ في ردِّ ما لا يراه حقًا بغير هذه الألفاظ؛ كما فعل في ألفاظه مع مندور وعودة ومحيي الدين مع أنهم رموه بألفاظ موجعة كما مرَّ؛ وقد يقال إنه قال ما قال عن المرزوقي دفاعًا عن العلم وترك هذا مع غيره لأنه يراه حقًا شخصيًا له حقٌّ في إسقاطه؛ ولكنَّ هذا من تكلُّف الحجاج .

وعودةً إلى القصيدة فأقول : أحسن شاكر صنعًا حين نشر القصيدة بالترجمة الألمانية إلى العربية ليستطيع الناظر أن يميزَ بين النصين من الناحية الفنية .

قال في ص ٣٤ عن ترجمة القصيدة من الألمانية إلى العربية : (هي ترجمة بلغت غايتها من الركاكة والسُّقْم . . . وتبين لي يومئذٍ فرقُ ما بين الترجمة والأصل . . . على أنَّ الشعر يفقد نفسه إذا ترجم مهما كانت منزلة المترجم)

وقال في ص ٢٣٦ : (وإنما قال صبحها ليدل على رباطة جأشه) قلت : وهذا توسعٌ في الاستدلال لا تحتمله اللغة ولا أعراف العرب؛ فقد جرت سنةُ الأخذ أن تكون في الصباح؛ وهذه أمرٌ جرى به عرفهم ؛ فأكثر غاراتهم تكون صباحًا وبهذا نطق شعرهم ؛ فلا دلالة لها على الشجاعة ورباطة الجأش ؛ كما جرت سنة الله أيضا أن يكون الصباح من أزمنة إيقاع العذاب، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ القمر ٣٨؛ وفي القرآن أكثرُ من موضع على هذا المعنى .

توشية

ومن عجائب من تطلبوا الشهرة أني لم أر منهم من استقرت به الحال إلى قعر، فكلما أوشك أن يلامس القاع هوى به المطلب، فالشهرة كطائر حذر لا يمكنك من نفسه فيطيرُ ويقع قريبًا منك فيغريك بالمطاردة وقعةً بعد وقعة فإذا تنبهت فإذا أنت قد خلَّفت وراءك طريقًا طويلاً العودةُ صعبة والاستمرار مضنٍ.

الأديب إذا لم يكن عارفًا بقواعد النحو فلن يدركَ الغاية ؛ فعلم النحو علمٌ عقليٌ صِرْف ؛ والأدب فنٌ يحتكمُ إلى الذوق ويترجم عن المشاعر والعواطف ؛ فإذا انضمَّ العقل إلى الذوق تولد ـ بفضل الله ـ ما يسر النفوس؛ وعليك إن أردت التأكد من هذا أن تقرأ لأبي الفتح ابن جني عليه رحمة الله؛ ولا يعيب النحوي ألا يكون أديبًا ويعيب الأديب ألا يكون نحويا .



الفصل التاسع
قراءة للترجمة العربية للقصيدة
للدكتور عبد الغفار مكاوي رحمه الله

الترجمة العربية لترجمة «جوته» الألمانية،

ترجمها الدكتور عبد الغفار مكاوي

١

تحت الصخرة على جانب الطريق

يرقدُ صريع

لا تنسكب على دمعه

قطرة ندى

٢

ألقى العبء الكبير عليَّ

ثم ولَّى

وإني لجديرٌ

بحَمل هذا العبء

٣

ولثأري وريث

هولي ابن أختي

ثابت في القتال

صامد لا يلين

٤

مطرقٌ يرشح سمًا

مثلما تطرق الأفعى

تنفث السم ولا

يمنع السم أذاها

٥

نعيه كان شديدًا

وعلينا كارثة

لو دهى شهمًا قويًا

وجليلاً هده

٦

بزني القدر

لما جرح الصديق

الذي لا يضار

ضيفه أبدا

٧

كان دفء الشمس

في اليوم القرير

وإذا ما أذكت الشعرى

فبردٌ وظلال

٨

يابس الجنبين

من غير شحّ

وندي الكفين

شهمٌ جريء

٩

بالحزم الشديد

يسعى إلى غرضه

فإذا ما حلَّ في مكان

حلَّ معه حزمه

١٠

كان كالغيث كريمًا

عندما يجدي ويهدي

فإذا يغزو عدْوًا

فهو كالآسادي يردي

١١

وجيه أمام الناس

أسود الشعر طويل الإزار

يندفع على العدو

كالذئب النحيل

١٢

يذيق طعمين

الآرى والشريا

ومنهما شيءٍ

قد ذاقه كلٌّ

١٣

يركب الهول وحيدًا

ماله قط خليل

في الوغى إلا اليماني

كثرت فيه الفلول

١٤

وفي الهجير بدأنا

في الشباب الحربا

في الليل طال سرانا

كمن يطارد شبحا

١٥

وكلنا كان سيفا

وقد تقلد سيفه

إذ يسل البرق

أسنى من البرق ضوؤه

١٦

واحتسوا أنفاس نوم

فلما أطرقوا برؤوسهم

راعتهم ضرباتنا

فسقطوا صرعى

١٧

أخذنا الثأر كاملاً

لم يفلت من القبيلتين

إلا القليل

أقل القليل

١٨

وإذا كانت هذيل

في الوغى فلَّت شباه

فلكم ذاقت هذيل

في الردى تلك الشباه

١٩

ألقوه في مناخ غليظ

على صخر وعر

تقف فوقه الجمال

فتتحطم حوافرها

٢٠

وعندما حيا الصباح الصريعا

هناك في مرقده الموحش

أطلت الشمس فما أبصرت

إلا غريقا في دماه سليبا

٢١

ها هم الهذليون قد لقوا

مصرعهم

وأصابتهم من الجراح العميقة

والشر لم يفلَّ عزمي

بل فلَّ عزمه

٢٢

الرمح قد روى

بالسقية الأولى

هناك لم يحرَّم

من سقيةٍ أخرى

٢٣

حلت الخمر لمثلي

بعد أن كانت حراما

أنا حللتُ لنفسي

شربها بعد لائي

٢٤

وسيفي ورمحي

وعلى هذا الجواد

قد أحلَّ الشرب فالشرب

من اليوم مباح

٢٥

اسقني الكأس اسقنيها

ياسودا ياابن عمر !

إن جسمي بعد خالي

مثل جرح غائر

٢٦

وإن كأس المنايا

ذاقته مني هذيل

فأترعت بالرزايا

وبالعمى وبالذل

٢٧

لقتلى هذيل تضاحك الضبع

وتبصر الذئب

ووجهه يلمع

٢٨

والصقور النبيلة تتطاير

وتخطو من جثة لجثة

ولا تستطيع أن تهفو

من المائدة الغنية .

في ص ٣٤ من كتاب « نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف « قال شاكر عن هذه الترجمة : (. . . لأنَّ الكلام المنشور في عدد المجلة [مارس ١٩٦٩م] والذي سُمي ترجمةً عربية لترجمة جوته الألمانية ، قد

أطفأ إشراق لغة جوته الألمانية وأحالها رمادًا ، فهو إذن أحرى أن يترك القصيدة العربية القديمة نفسها فحمةً خامدة ميتة ، بلا حياة أي هي ترجمةٌ بلغت غايتها من الركاكة والسقم)

ثم في ص ٣٨٣ في فقرة «أ « من ملحقات الكتاب ، كتب عشر صفحات يبين فيها ما كان بينه وبين الدكتور عبد الغفار مكاوي حول ترجمة جوته ، جاءت الصفحات الخمس الأولى عن الجانب الشخصي . وحين دخل على الرد قال ص ٣٨٩ـ ٣٩٠: (. . . وسأقتصر على مثالٍ واحدٍ من هذه الترجمة يدل على سائرها ؛ فالمترجم يقول ما نصه : « أَلقوه في مناخ غليظ على صخر وعر تقف فوقه الجمال فتتحطم حوافرها » فوَقف عند لفظة « الحافر » فقال: (ومعلوم أنَّ الحافر للخيل والبغال والحمير، أما الجمال فيقال لذلك العضو منها : «الخُفُّ « و « المَنْسِم « إلى ألفاظٍ أخرى تعرفها لغة العرب . . . فالمترجم الذي لا يحسن هذا القدر من التمييز بين أسماء أعضاء الحيوان ؛ ولا يحسن التعبير عنها ، مترجمٌ لا يستقيم له كلامٌ أبدًا ، بل يُخشى منه ما هو أفظع من ذلك . . . ثم يقول

المترجم: « تتحطم حوافرها « و» التحطم « هو تكسُّر الشيء اليابس، « وخف البعير « لحمٌ وجلد وإنما يقال: « نَقِب خفُّ البعير» إذا سار في أرض ذات حجارة أو حصى، فرقَّ جلده وربما دمي . . . مجرد الوقوف على أرضٍ وعرة فمحال في العقل أن يفضي إلى « تحطم الحوافر » .

ص ٣٦ حين تدارسَ القصيدة مع زميل له ألماني قال: (. . . على أنَّ الشعر يفقد نفسه إذا تُرجم، مهما كانت منزلة المترجم) قلت: وهذا مذهبٌ تصدقه التجرِبة؛ فالمترجم لا يستطيع أن ينقل مشاعر تخفيها اللغة الأم للقصيدة؛ فهناك ألفاظ في لغة القصيدة تأتي للشاعر عفوًا تُملى عليه من لغته وتحمل معانيَ معبرةً عما يريد الشاعر البوح به؛ لا يتمكن المترجم مهما أوتي من تمكن لا يتمكن من نقلها إلى القارئ في اللغة الأخرى؛ وهذا يعمُّ كل لغة ولا يختص بالعربية .

قال المترجم ص ٣٨٨: (وأمَّا أنَّ الترجمة بلغت غايتها من الركاكة والسقم فشيءٌ أترك للقارئ أن يحكم عليه بنفسه) قلت:

وحيث إنَّ المترجم ـ رحمه الله ـ عوَّل على حكم القارئ؛ فإني قرأت الترجمة فلم أجد في نفسي الأثر الوجداني الذي وجدته في الأصل العربي؛ فالترجمة إن لم تكن: «بلغت غايتها من الركاكة والسقم» فهي لم تستطع أن تجعل قارئيها أو بعضَهم يعيشون مشاعر وأحاسيس القراءة من الأصل، قد تكون الترجمة قد بلغت الغاية في الكمال لأنَّ المترجم متمكنٌ من اللغتين العربية والألمانية؛ ولكن العيب ليس في مستوى الترجمة ولا في قدرة المترجم من اللغتين، بل جاء العيب من اللسان الأعجمي الذي لا يطيق ولا يتمكن من الإبانة عما في اللسان العربي فترجمتُها أطفأت ما كان يشع من اللسان العربي؛ وما الفائدة التي جاءت من ترجمتها إلى لغتها الأصلية؟ فهذا لا يخدم القصيدة ولا اللغة؛ وإنما عائده على اللغة المترجم عنها؛ فمن أراد أن يقرأ الشعر فهو عنده وبين يديه في لغته الأم؛ وكان الأوفق بالمترجم أن يتجه إلى أشعار ألمانية فيضعها بين يدي راغبيها من أهل العربية؛ هذا مع أنَّ الدكتور مكاوي ـ رحمه الله ـ له باعٌ في الترجمة؛ فله كتاب كبير وقع في جزئين عنوانه «ثورة

الشعر الحديث» ومما قال في مقدمته ص ٢٣:

(. . . كيف نترجم القصيدة ـ وهي كيان فني مكتفٍ بذاته، ونظامٌ لغويٌ مرتبط بلغته ـ بغير أن ننزع منها روحها ونفقدها أهمَّ ما يميزها من نبر وإيقاع وإحساس . . . أنَّ ترجمة الشعر مشكلةٌ من أعقد المشكلات، بل ينبغي أن تكون لدينا الشجاعة للاعتراف بأنَّ الشعر لا يكاد يترجم) .

قلت: هذا كلامٌ نفيس موزون صادرٌ عن دراية؛ ولو أنه تمثله وهو يترجم لـ « جوته « لكفَّ عن الترجمة أو أفاد معتذرًا بهذا المعنى ؛ وهو مذهبٌ صالحٌ لأن يكون منهجًا عند ترجمة الشعر؛ فالترجمة إن نجحت في العلوم التجريبية فيضعُف نجاحها فيما يصدر عن المشاعر والعواطف .

ثم إنك تقرأها كأنك قطعةً نثرية لا شعرية؛ فلا فضيلة خاصة لبحر من بحور العروض ولا ميزة للقافية ولا لحرف الروي؛ لذلك فقراءتي للترجمة ستكون عن النظر في الأثر اللغوي الذي أحدثه

تغيير الألفاظ، أما الجمالية فقد قرأت النص المترجم فلم أجد فيه ما تطرب له المشاعر أو تهتز، كما أجده في أصلها العربي؛ فأنت تقرأ الفقرات أي الأبيات كأنك تقرأ مقطعات نثرية لا رابط بينها .

وقف في كتاب: (النور والفراشة رؤية جوته للإسلام وللأدبين العربي والفارسي مع النص الكامل للديوان الشرقي) وهو كتاب درسه وترجمه حيث قال في ص ٦٢ عندما تحدث عن أبيات لأمرئ القيس ترجمها جوته فقال مكاوي: (وسنرى من ترجمة جوته لهذه الأبيات ـ أو بالأحرى من تعبيره عن معناها) والتعبير عن المعنى ينطبق تمامًا على ترجمة جوته لقصيدة: « إنَّ بالشعب . . . « فهو منصبٌ على الجانب اللغوي .

البيت الأول ورد بهذا النص: « تحت الصخرة على جانب الطريق يرقدُ صريع لا تنسكب على دمعه قطرة ندى « . لم اطمئن إلى مناسبة لفظة « دمعه » إلى سياق المعنى؛ فقلت: لعلها «دمه» فبحثتُ عن ترجمةٍ أخرى للقصيدة؛ فوجدتها في رقم ١٩٤ من سلسلة عالم المعرفة الصادرة بالكويت بعنوان « جوته والعالم

العربي» ترجمة الدكتور عدنان عباس علي مراجعة الدكتور عبد الغفار مكاوي ؛ فإذا النص يقول: « تحت الصخرة على الطريق يرقد مقتولا لا تبل دمه قطرات الندى «وسيأتي ـ إن شاء الله ـ تفصيل لهذا في الفصل الحادي عشر .

في البيت الثاني من الترجمة قال: (ألقى العبء الكبير علي ثم ولى وإني لجدير بحمل العبء) فوضع « جدير « بدل مستقل؛ وجدير لا تقوم مقام « مستقل» في أداء المعنى المراد؛ لأن الجدارة وإن كانت تعني الاستحقاق والأهلية والكفاءة؛ فهو مستحقٌ وأهلٌ وكفء لما همَّ به ولما عليه عزم؛ إلا أنها لا تؤدي ما تؤديه لفظة « مستقل « فهي تفيد الانفراد بالأمر والاعتداد بالنفس ونبذ الخور الذي جاءه من تراخي أخواله ؛ ولأنها تعبر عن خذلان أخواله وتراخيهم عن المطالبة بدم خاله ؛ كما أنّ معنى لفظة « جدير « داخل في « مستقل «؛ ولا يذهب عنا ما توحي به لفظة «أنا» من الاختصاص والعناية والاستعداد ومباشرة الإنجاد .

قال في البيت الرابع : (مطرقٌ يرشح سمًا مثلما تطرق أفعى تنفث السمَّ ولا يمنع السم أذاها)قوله : « ولا يمنع السم أذاها « لم يجرِ العرف بأنَّ السم يمنع الأذى حتى نذهب إلى هذا النفي ؟ وكذلك لوقلنا إنَّ السمَّ مفعولٌ به مقدم والأذى فاعل؛ فيكون التركيب: لا يمنع أذاها السم «، فإنَّ هذا لا يزيل الالتواء؛ فـ « صل « الواردة في الأصل العربي صفةٌ للأفعى ؛ والصل من أخبث الحيات وأقتلها ؛ ولو قال: لا يمنع العضُّ أذاها لكان لهذا وجهٌ وإن بعُد .

في البيت السادس لفظة « الصديق « أرادها المترجم عوضًا عن «أبيّ « التي وردت في ا لبيت السادس ولا يخفى ضعفها في جنب ما ورد في الأصل العربي ولا مداناة بين ما تحدثه اللفظتان من تأثير في مشاعر المتلقي ، وما تقوم من معنى ماثلٍ في نفس الشاعر؛ فالصديق معنى مبتذل وليس من لوازمه الإباء والشهامة والنخوة؛ ولا تحقق المراد الذي أراده الشاعر من الصفات الكريمة التي تحملها لفظة «أبي»؛ كذلك وضع الضيف موضع الجار؛ وليس كل ضيفٍ جارا ؛ فمدلول اللفظين متباعد ؛فالضيف يحلُّ يومًا إلى

ثلاثة أمَّا الجار فلا عُرف لمدة بقائه؛ والضيف لا يحل مستجيرًا كما هي حال الجار الذي لجأ ليُدفع عنه الضيم .

في البيت الثامن عشر قال: (وإذا كانت هذيلٌ في الوغى فلت شباه فلكم ذاقت هذيل في الردى تلك الشباه) الترجمة أدت المعنى المقصود .

كذلك جاءت كتابة المترجم للقصيدة بطريقة الشعر المرسل مما أفقدها ضعف النسبة لديوان الشعر العربي؛ فلم نعتد أن نقرأه بهذا اللون؛ وقد أحالها هذا إلى الانتماء إلى لونٍ أُدخل على الشعر سموه الشعر الحر؛ وهو مذهب لكتابة الشعرٍ لم يكتب له البقاء حيث شاع ثم قلَّ بريقه .

توشية

من المؤلفات المباركة

وفي مقدمة المحقق لكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني : (ويقول عنه ابنه عمرو: ولما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفًا وثمانين قبيلة ؛ فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها للناس كتب مصحفًا وجعله في مسجد الكوفة؛ حتى كتب نيفًا وثمانين مصحفًا بخطه)

ورد في حقل التمهيد ، لكتاب الجُمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد : (كان الزجاجي متدينا يؤكد هذا أنه ألف كتاب «الجُمل» بمكة، وكان كلما أنهى بابًا طاف بالبيت سبعًا ودعا الله أن ينتفع به الناس؛ وقيل إنه لم يضع مسألة إلا وهو على طهارة)

الفصل العاشر

موازنة بين نصين مترجمين مع النص العربي لقصيدة «إنَّ بالشعب الذي دون سلع» ترجمة الدكتور عدنان عباس علي . والدكتور عبد الغفار مكاوي

في ترجمة الأعمال الأدبية لا يكفي أن يكون المترجم متقنًا مجيدًا للغة التي يترجم عنها؛ لأنَّ هناك مجازات لغوية إذا نُقِلَ النص بحروفه أفسد الأثر الأصلي؛ فلا بد أن تكون لديه معرفة بالاستعمالات المجازية للألفاظ.

١ ـ إنَّ بالشّعب الذي دون سلْعٍ لقتيلاً دمه ما يطلُّ

١ـ - ترجمة عدنان/ تحت الصخرة على الطريق يرقد مقتولا لا تبل دمه قطرات الندى.

ترجمة مكاوي/تحت الصخرة على جانب الطريق يرقدُ صريع لا تنسكب على دمعه قطرة ندى.

المترجمان وضعا لفظة « تحت « بدلاً من الباء، و» الصخرة» بدلاً من «الشّعب « ووضع عدنان « لا تبل دمه قطرات الندى» ووضع مكاوي « لا تنسكب على دمعه قطرة ندى «بدلاً من «دمه ما يطلُّ» والباء في النص الأصلي لا تفيد بأنَّ القتيل ملقى

تحت شيء؛ فهذا قصورٌ في الترجمة، أو قصورٌ في اللغة المترجم عنها حيث لم يكن في معجمها ما يحقق معنى الباء؛ والباء هنا للظرفية المكانية؛ ولو اكتفيا بكلمة «الطريق» لكانت أقربَ في أداء المعنى ولأغناهما عن هذا الحشو بذكر الصخرة.

ثم قال عدنان «لا تبل دمه قطرات الندى» وقال مكاوي: «لا تنسكب على دمعه قطرة ندى» «بدلاً من «دمه ما يطلُّ» وهذا فسادٌ ومحوٌ للمعنى المراد من الشاعر؛ فمعنى «لا يطلُّ» لا يذهب هدرا؛ وهي تحمل أيضا معنى الوعيد والمضي في الأخذ بالثأر؛ كما أذهبت هذه الترجمة معنى أصيلاً في العرف الجاهلي وهو الثأر للقتيل؛ وورود «قطرات الندى» في كلا الترجمتين تفيد أنهما ذهبا هذا المذهب لأنهما ظنا أنَّ «يطلُّ» هي من الطلّ الذي هو الرذاذ والخفيف من المطر؛ والطلُّ هنا حقيقة معناه هو ما ذكرته آنفا؛ ولفظة الطلّ لا تؤدي المعنى المراد من الأخذ بالثأر إلا مع النفي «ما يطلُّ» وهذا أيضا إما قصور في قدرة المترجمَين أو ضعفٍ وقصور في اللغة المترجم عنها؛ وهذا معنى تأنف العربية من نسبته

إليها إذ ما الغاية التي يريدها المترجمان من معنى أنَّ قطرات الندى لا تنزل على الدم؛ وإن لم يكن جهلٌ منهما بالمراد فإن الصواب أن يشيرا إلى دلالتها في اللسان العربي؛ وإلى العجز في اللسان الأعجمي .

وضعفٌ آخر وقع من الدكتور مكاوي مع ماله من باع في الترجمة؛ حيث قال: « لا تنسكب على دمعه قطرة ندى « فمع الذهاب عن المعنى المراد عبر بـ «تنسكب» عن النزول وهذا النزول لا يسمى انسكابًا فالانسكاب فيه معنى التدفق والانصباب ومن ثم الجريان كما أنَّ الانسكاب يقع دفعةً واحدة وبغزارة بخلاف ما يكون من الطل .

٢ـ قذف العبء عليَّ وولَّى أنا بالعبء له مستقلُّ

٢ ترجمة عدنان– خلف العبء علي وولى أجل إني أود حمل هذا العبء .

ترجمة مكاوي/ ألقى العبء الكبير عليَّ ثم ولَّى وإني لجديرٌ بحَمل هذا العبء .

سبقت الموازنة بين « قذف وخلَّف» في الخطوة الرابعة عشر من دراسة القصيدة؛ وترجمة مكاوي «ألقى «أقربُ إلى أداء المعنى .

عدنان أراد» أود حمل هذا العبء» بدلا من مستقل ؛ ولفظة « أود» كلمةُ تلطُّف و رِقةٍ لا تتناسب مع هيجان مشاعر الشاعر وغايته ولا مع موضوع القصيدة؛ والجملة كاملة لا تؤدي معنى « مستقل « الذي اختاره الشاعر للإفصاح عن غايته وعزمه ولو لم يجد معينًا على ما همَّ به؛ ولفظة « أود « توحي بأنَّه مضى مختارًا ؛ بينما « مستقل» فيها رائحة الاضطرار إذ تذكر خذلان أخواله .

وقلت في كلام سابق عن ترجمة مكاوي: [فهو وضع « جدير « بدل مستقل؛ وجدير لا تقوم مقام « مستقل» في أداء المعنى المراد؛ لأن الجدارة وإن كانت تعني الاستحقاق والأهلية والكفاءة ؛ فهو مستحقٌ وأهلٌ وكفء لما همَّ به ولما عليه عزم؛ إلا انها لا تؤدي ما تؤديه لفظة « مستقل « لأنها تفيد الانفراد بالأمر ؛ ولأنها تعبر عن خذلان أخواله وتراخيهم عن المطالبة بدم خاله ؛ كما أنّ معنى

لفظة « جدير « داخل في « مستقل « ولا يدخل معنى مستقل بجدير؛ ولا يذهب عنا ما توحي به لفظة «أنا» من الاختصاص والعناية والاستعداد ومباشرة الإنجاد]

٣ ـ ووراء الثأر مني ابنُ أختٍ مَصِعٌ عقدته ما تَحُلُّ

ترجمة عدنان –٣ وارث ثأري هو ابن أختي المصع الذي لا يعرف المساومة ولا المهادنة.

ترجمة مكاوي/ ولثأري وريث هو لي ابن أختي ثابت في القتال صامد لا يلين.

« مصع «أي ثابتٌ في القتال، وترجمة مكاوي لها أدت المعنى الأصلي؛ وترجمة عدنا قصُرت عن هذا؛ فمن « لا يعرف المساومة ولا المهادنة» صحيحٌ أنه يفيد الثبات على الأمر والمغالات في تطلُّب الغاية، لكن ليس من لوازمه أو دلائله أنه مقاتل فضلاً عن أن يكون ثابتًا في القتال؛ وكلمة « وراء الثأر» فيها معنى خفيٌ يُشَمُّ شمًا من

دلالات العربية وأعراف العرب؛ فهي تتضمن معنى التهديد للقتلة وتهييج وإغراء الوريث بالأخذ بالثأر؛ وهذا المعنى لا تفي به عبارة المترجَمين.

٤ـ مطرقٌ يرشحُ موتًا كما أطرق أفعى ينفثُ السمَّ صلُّ

٤ترجمة عدنان– مطرق يرشح سما صامت كالأفعى وكالثعبان ينفث سما لا تنفع معه رقية .

ترجمة مكاوي/ مطرقُ يرشح سمًا مثلما تطرق الأفعى تنفث السم ولا يمنع السم أذاها .

لم يتعرضا لمعنى الإطراق؛ والإطراق هنا يراد به الانغماس والانهماك في النظر وتقليب الرأي في أمرٍ أهمَّ صاحبه؛ وقول عدنان «سما لا تنفع معه رقية» يبين المآل الذي يكون مع عضّ الصل؛ وقول مكاوي «ولا يمنع السم أذاها»؛ لم يجرِ العرف بأنَّ السم يمنع الأذى حتى نذهب إلى هذا النفي؟ وكذلك لو قلنا إنَّ السمَّ مفعول به

مقدم والأذى فاعل؛ فيكون التركيب: لا يمنع أذاها السم «، فإنَّ هذا لا يزيل الالتواء؛ فـ « صل « الواردة في الأصل العربي صفةٌ للأفعى ؛ والصل من أخبث الحيات وأقتلها ؛ولو قال: لا يمنع العضُّ أذاها لكان لهذا وجهٌ وإن بعُد ؛ وقول عدنان : « كالثعبان» يبدو أنه أرادها ترجمةً لـ « صل» وهي لا تقوم مقامها ؛فالصلُّ وإن كان من الثعابين إلا أنَّ لفظة الثعبان لا تؤدي المعنى الذي أراده الشاعر من قوة الفتك وسرعته لهذا خصَّ الصلّ بالذكر .

٥ـ خبرٌ مَّا، أصابنا مصمئلُ ! جلَّ حتى دقَّ فيه الأجلُّ

٥ ترجمة عدنان/- لقد بلغنا خبر جائر لقد نابنا خطب رهيب إنهم غلبوا السيد المرهوب. على أمره وقتلوه .

ترجمة مكاوي/ نعيه كان شديدًا وعلينا كارثة لو دهى شهمًا قويًا وجليلاً هده.

وقول عدنا : « بلغنا خبر جائر لقد نابنا خطب رهيب « هذا تعبير عن المعنى المراد من «حبرٌ مَّا» وكثرة الألفاظ في الترجمة

تؤكد الإيجاز الذي هو أحد خصائص العربية؛ ومع هذا فهي لا تؤدي ما يؤديه من أثر وما حلَّ به من غمٍ واختيار الشاعر أسرعُ في أداء المعنى وإنفاذه إلى المشاعر.

ترجمة مكاوي أقربُ إلى أداء المعنى؛ لأنه يقول إنَّ هذا الخبر عظُم عليَّ حتى رأيت كلَّ عظيمٍ دقيقًا.

٦ـ بزَّني الدهر وكان غشومًا بأبي، جارهُ ما يذلُّ

٦ترجمة عدنان /-لقد بزني الدهر الغشوم بأبي جاره ما يذل

ترجمة مكاوي / بزني القدر لما جرح الصديق الذي لا يضار ضيفه أبدا.

ترجمة عدنان أدت المعنى الأصلي.

ترجمة مكاوي: « الصديق « أرادها عوضًا عن « أبيّ » ولا يخفى ضعفُها في جنب ما ورد في الأصل العربي؛ فالصديق معنى مبتذل في اللسان وليس من لوازمه الإباء والشهامة والنخوة؛

ولا تحقق المراد الذي أراده الشاعر من الصفات الكريمة التي تحملها لفظة «أبي»؛ كذلك وضع الضيف موضع الجار؛ وليس كل ضيفٍ جارا؛ فمدلول اللفظين متباعد؛ فالضيف يحلُّ يومًا إلى ثلاثة أمّا الجار فلا عُرف لمدة بقائه؛ والضيف لا يحل مستجيرًا كما هي حال الجار الذي لجأ ليُدفع عنه الضيم؛ وقوله: «لا يضار» لا تؤدي معنى: «ما يذل» فالمضارة وإن كانت تحمل الإيذاء إلا أنها قد تقع ولا يشعر منها ولا يراد بها الإذلال فـ «يذلُّ» أجمعُ للمعنى الذي رمى إليه الشاعر.

٧ ـ شامِسٌ في القُرِّ، حتى إذا ما ذكت الشعرى فبردٌ وظلّ

٧ترجمة عدنان/- كان دفء شمس في القر وإذا ذكت الشعرى، كان بردا وظلا.

ترجمة مكاوي/ كان دفء الشمس في اليوم القرير وإذا ما أذكت الشعرى فبردٌ وظلال.

الترجمتان أديتا المعنى المراد.

٨ـ يا بس الجنبين من غير بؤسٍ وندي الكفين شهمٍ مـد لُّ

٨ ترجمة عدنان – يا بس الجنب من غير بؤس وندي الكفين جسور جبار .

ترجمة مكاوي / يا بس الجنبين من غير شحّ وندي الكفين شهمٍ جريء .

ترجمة عدنان أقرب؛ فهي عبرت عن البؤس بالبؤس؛ أما مكاوي فقد عبر عنه بالشحّ و؛ ومدلولهما يختلف؛ فالبؤس لا يؤدي إلى الشح وليس من لوازمه .

٩ ـ ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما حلَّ حلَّ الحزم حيث يحلُّ

٩ ترجمة عدنان /– برأي محكم حازم يتعقب هدفه حتى إذا ما حل حل الحزم حيث يحل .

ترجمة مكاوي / بالحزم الشديد يسعى إلى غرضه فإذا ما حلَّ في مكان حلَّ معه حزمه

الترجمتان أديتيا المعنى المراد .

١٠ـ غيثُ مزنٍ غامر حيث يجدي ، وإذا يسطو فليث أبلُّ

١٠ترجمة عدنان/ - كان غيثا وهابا للعطايا وإذا سطا فأسد مكشر.

ترجمة مكاوي / كان كالغيث كريمًا عندما يجدي ويهدي فإذا يغزو عَدْوًا فهو كالآساد يرد الترجمتان أدبيتيا المعنى المراد؛ وإن كانت « غامر « أوسع في الدلالة من وهاب ؛لأنَّ الغَمْر يفيد أنه يعطي حتي يغطيَ الخِلة ؛ ووهاب يعطي بكثرة ولكنه قد لا يغطي الخِلة .

١١ ـ مسبلٌ في الحي أحوى رِفَلٌّ وإذا يعدو فسِمعٌ أزلَّ

١١ترجمة عدنان – وجيه في القوم فاحم الشعر طويل الإزار وإذا غزا العدو فهو ذئب .

ترجمة مكاوي/ وجيه أمام الناس أسود الشعر طويل الإزار يندفع على العدو كالذئب النحيل .

عدنان لم يذكر معنى «أزلُّ« وهذا نقص في تأدية المعنى؛ ومكاوي وضع «النحيل» موضع الأزلّ؛ وهي لا تؤدي معناها فالأزلَّ هو من قلَّ لحم عجيزته وكان بلا أرداف فهي صفةٌ لقلة لحم العجيزة فقط؛ أما النحولة فهي إن أُطلقت تعمُّ جميع البدن؛ وإن قيدت فهي للعضو المذكر كأن يقال: نحيل الساقين.

١٢ ـ وله طعمان: أريٌ وشريٌ ، وكلا الطعمين قد ذاق كلٌّ

١٢ ترجمة عدنان– يفرق طعمين عسلا وحنظلا ومن كلا الطعم ذاق الجميع.

ترجمة مكاوي/ يذيق طعمين الآري والشريا ومنهما شيءٌ قد ذاقه كلٌّ.

الترجمتان أديتيا المعنى المراد؛ ولفظة «يفرق» هي بمعنى يفصل، وتفيد أنه يتعاقبه هذان الطعمان.

١٣ ـ يركب الهول وحيدًا ، ولا يصحبه إلا اليماني الأفُلّ

١٣ ترجمة عدنان– ركب الهول وحيدا لا يصحبه أحد إلا السيف اليماني المرصع بالمثالم.

ترجمة مكاوي/ يركب الهول وحيدًا ماله قط خليل في الوغى إلا اليماني كثرت فيه الفلول.

الترجمتان قربتا من المعنى المراد؛ وفاق مكاوي بأنه قال:» كثرت فيه الفلول» وعبارة عدنان «المرصع « لا تؤدي معنى « الأفل» لأن الترصيع هو التزيين الذي لا تقوله « الأفل »

١٤ ـ وفتوٍ هجَّروا ثم أسْرَوا ليلهم حتى إذا انجاب ، حلُّوا

١٤ ترجمة عدنان– وعند الظهيرة بدأنا نحن الفتيان الهجوم ثم واصلنا السير بالسرى

كما لو كنا سحابا لا يستكين.

ترجمة مكاوي / وفي الهجير بدأنا في الشباب الحربا في الليل طال سرانا كمن يطارد شبحا .

قول عدنان: « كما لو كنا سحابا لا يستكين» وقول مكاوي: « كمن يطارد شبحا » هذان التشبيهان لم ترد لهما إشارة؛ وقد يكون مكاوي أخذه من قول الشاعر: «ليلهم» ومقصود الشاعر أنهم واصلوا سيرهم حتى انكشاف النور ثم هجموا .

١٥ـ كلُّ ماضٍ قد تردَّى بماضِ كسنا البرق ، إذا ما يسلُّ

١٥ ترجمة عدنان– كل واحد كان سيفا متشحا بسيف إذا ما سل فهو برق سني .

فثأرنا حسب المرام لم ينج من الحيين إلا القليل إلا أقل القليل؛ وعدنان هنا قرن بيتين من الأصل العربي؛ البيت المذكور ؛ والآخر هو:

فادَّركنا الثأر منهم ولما ينجُ مِلْحيين إلا الأقلُّ

ترجمة مكاوي / وكلنا كان سيفا وقد تقلد سيفه إذ يسل البرق أسنى من البرق ضوؤه.

الترجمتان أديتا المعنى ؛ وعبارةُ عدنان أفصح؛ وترجمة مكاوي في قوله : «إذ يسل البرق أسنى من البرق ضوؤه» فيها قصور بلاغي أضعف دقة الترجمة وقلل أثرها الوجداني ؛ ولو قال: « ضوؤه أسنى من البرق « وحذف البرق الأولى لكان أبلغ .

١٧ ـ فاحتسوا أنفاس نومٍ فلما هوَّموا رُعْتُهُمُ فاشمعلوا

١٧ ترجمة عدنان– كانوا يحتسون أنفاس النوم ولكن ما أن هوموا حتى أخذنا نقاتلهم فكانوا هباء منثورا .

ترجمة مكاوي/ واحتسوا أنفاس نوم فلما أطرقوا برؤوسهم راعتهم ضرباتنا فسقطوا صرعى.

الترجمتان موحيتان بأنَّ الضمير في :» هوموا « مقصود به هذيل؛ فعدنان قال: « فكانوا هباء منثورا» ومكاوي قال :

« فسقطوا صرعى » ؛ لكنه عائدٌ على رفقةِ الشاعر؛ ومأخذه من قوله : « فاشمعلوا » أي أسرعوا ومعنى هوَّموا مالت رؤوسهم للنوم؛ والضمير في « فاحتسوا » قد يكون عائدًا على هذيل؛ فنحن تربصنا بهم حتى أخذتهم نومةٌ بعد نومة؛ وهذا من معنى احتسى أي شرب شيئًا فشيئًا ؛والضمير المفعول في : «رُعْتُهمُ « عائدٌ على الرفقة وقد يُعاد على هذيل؛ وأين مأخذ » فكانوا هباءً منثورا « ؟ في ترجمة عدنان.

١٨ـ فلئن فلَّت هذيلٌ شَباهُ ، لبما كان هذيلاَ يفلُّ

١٨ ترجمة عدنان– وإذا كانت هذيل قد كسرت شوكة رمحه فما أكثر ما كسر برمحه شوكة هذيل.

ترجمة مكاوي/ وإذا كانت هذيل في الوغى فلَّت شباه فلكم ذاقت هذيل في الردى تلك الشباه.

الترجمتان قربُتا من المعنى؛ وقول عدنان : « فما أكثر» وقول مكاوي : « فلكم « تعبران عن الكثرة المفهومة من قول

الشاعر: «لبما»؛ وأما قول عدنان: «كسرت شوكة رمحه» معبرًا بها عن فلتْ شباه؛ فهذا معنى بارد؛ فليس المقصود على الحقيقة وإنما التعبير مجازي؛ أي لئن أضعفت هذيلٌ قوته وإقدامه. . .

١٩ ـ وبما أبركها في مُناخٍ جعجعٍ يَنقَبُ فيه الأظلُّ

١٩ ترجمة عدنان- كانوا قد طرحوه على أرض غليظة وصخرة خشنة تتحطم عليها خف الإبل، وحينما حيا الصباح في ذلك المكان الموحش القتيل فإنه كان مسلوبا منهوب الغنائم. ترجمة عدنان هنا لمعنى بيتين من القصيدة؛ البيت المذكور والآخر هو:

وبما صبَّحها في ذُراها ، منه بعد، القتل نَهْبٌ وشلُّ

وترجمته للبيت الأول: «وبما أبركها . . . «فَهِم المترجم أنَّ هذيلاً هم الذين أبركوا الشاعر؛ ولكنَّ الصواب أنه هو الذي أبركها؛ ومعناه معطوفٌ على البيت الذي قبله؛ ففي السابق إفادةٌ أنه أكثرَ فيها الفلَّ وهو الكسر؛ ثم أضاف أنه أناخهم في أرضٍ غليظة لو

سارت عليها الأبل لنقبتْ أخفافها أي حفيت وقد تدمى؛ بل قد يصل الأذى إلى « الأظلّ « وهو باطن الخف؛ كما أنَّ الضمير في « أبركها « يعود على هذيل؛ فهو فلَّها وأبركها .

ترجمة مكاوي/ ألقوه في مناخ غليظ على صخر وعر تقف فوقه الجمال فتتحطم حوافرها .

ذلك فهِمَ مكاوي من أنَّ هذيلاً هم الذين أبركوا الشاعر .

وقولهما : « تتحطم « أغناني شاكر عن القول فيها حيث قال ــ فيما مرَّ ــ متعقبًا مكاوي: (. . . ثم يقول المترجم : « تتحطم حوافرها « و» التحطم « هو تكسُّر الشيء اليابس، « وخف البعير « لحمٌ وجلد وإنما يقال : « نَقِب خفُّ البعير») ومن تعقُّب شاكر لمكاوي : (ومعلوم أنَّ الحافر للخيل والبغال والحمير، أما الجمال فيقال لذلك العضو منها : «الخُفُّ « و « المَنْسِم « إلى ألفاظٍ أخرى تعرفها لغة العرب)

٢١ـ صَلِيتُ مني هذيلٌ بِخِرقٍ لا يَمَلُّ الشرَ حتى يَمَلوا

ترجمة عدنان- أما الآن فقد صليت مني هذيل بجراحات عميقة الغور فأنا لا أمل الشر هو الذي يملني.

ترجمة مكاوي/ ها هم الهذليون قد لقوا مصرعهم وأصابتهم من الجراح العميقة والشر لم يفلَّ عزمي بل فلَّ عزمه.

قول عدنان: «لا أمل الشر هو الذي يملني» يفيد أنه فهم أنَّ الشرَّ هو الذي يملُّ الشاعر لكثرة تردده عليه وعمله به وملازمته له؛ لذا فقد ملَّ الشرُّ عمل الشاعر؛ ولكن الضمير «الواو« يفيد أنَّ الملل يقع من هذيل فهو عائدٌ عليهم؛ فهو سيتابع الإيقاع بهم حتى يذيقهم ما يتمنون معه أنهم لم يقتلوا خاله.

وقول مكاوي: «والشر لم يفلَّ عزمي بل فلَّ عزمه» هو أيضا فهم أنَّ الفَلَّ يقع على الشر؛ وقال: «عزمه« ومعنى البيت يفيد أنها «عزمهم».

وقول عدنان: « صليت مني هذيل بجراحات» وقول مكاوي: « وأصابتهم من الجراح العميقة» أراداها ترجمةً لـ:

« خِرْق « وقد تكون الجراحات مفهومةً من معناها فالخِرْق هو الشجاع؛ وكان الأصحُّ أن يشيرا إلى معناها ثم مدلولها .

٢٢ ـ يُنْهِلُ الصَّعْدة حتى إذا ما نهِلت كان لها منه عَلُّ

ترجمة عدنان- وروى عطش الرمح بالسقية الأولى ولم تمتنع عليه سقايات أخرى لاحقة .

ترجمة مكاوي / الرمح قد روي بالسقية الأولى هناك لم يُحرَم من سقيةٍ أخرى

الترجمتان أديتا المعنى المراد .

٢٣ ـ حلَّت الخمر وكانت حرامًا وبلأيٍ مَّا ألمتْ تَحِلُّ

ترجمة عدنان– لقد حلت الخمر بعدما كانت حراما إنها بالجهد الجهيد صار تحلالا لي. كما صارت للسيف والرمح والفرس حلالا يشترك فيه الجميع الآن .

ترجمة مكاوي/ حلت الخمر لمثلي بعد أن كانت حراما أنا حللتُ لنفسي شربها بعدلائي.

الترجمتان أديتا المعنى؛ إلا أنَّ قول مكاوي: «أنا حللتُ لنفسي شربها» أضعفت ترجمته قليلاً؛ فليس في البيت ما ينهض إلى هذا المراد؛ ولعله فهم هذا من «وبلأيٍ» أي أنني بعد مشقةٍ وبطء حلتْ لي الخمر؛ وقد استغلق عليَّ فهم المراد من قول عدنان: «كما صارت للسيف والرمح والفرس حلالا يشترك فيه الجميع الآن» فلم يرد ذكرٌ للسيف ولا للرمح ولا للفرس؛ كما أنه ليس من المعهود أنَّ هذه الثلاثة تُسقى أو تُمنع من الخمر .

٢٤ ـ سقِنيها يا سوادَ بن عمرٍو إنَّ جسمي بعدَ خالي لخَلُّ

ترجمة عدنان/- فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لجرح عميق.

ترجمة مكاوي/ اسقني الكأس اسقنيها يا سواد يا بن عمر! إن جسمي بعد خالي مثل جرح غائر

الترجمتان أديتا المعنى؛ وترجمة مكاوي أجود لأنه فهم التكرار من «سقِنيها» وهي تفيد هذا؛ لأنها تعبر عن حال ابتهاج للشاعر فكأنه يستحثُّ الساقي على معاودة السقي حين شفى ثأره.

٢٠ ــ وبما صبَّحها في ذُراها ، منه بعد ، القتل نَهْبٌ وشلُّ

ترجمة عدنان – فلقد سقينا هذيلا كأس الموت فكانت حصيلته نواحا وعماية ومهانة.

ترجمة مكاوي / وإن كأس المنايا ذاقته مني هذيل فأترعت بالرزايا وبالعمى وبالذل.

لا بد من شرح بعض الألفاظ لتعين على ما فهمه المترجمان؛ «ذراها» ذرا البيت ما يحيط به فإذا كان يتمكن من الوصول إلى هذا فقد سقاهم كأس الموت والمهانة «شلُّ» الشلُّ هو الطرد ؛ والترجمتان أديتا هذا المعنى.

٢٥ ــ تضحك الضبع لقتلى هذيلٍ وترى الذئبَ لها يستهلُّ

ترجمة عدنان/– تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئاب لها تستهل.

ترجمة مكاوي/ لقتلى هذيل تضاحك الضبع وتبصر الذئب ووجهه يلمع.

ترجمة عدنان ما قاله الشاعر؛ وكذلك ترجمة مكاوي إلا أنها قصَّر حين ذهب إلى أنَّ معنى «يستهل» يلمع وجهه؛ ومعناها: يستعوي الذئاب.

٢٦ ـ وسباع الطير تهفو بطانًا تتخطاهم فما تستقلُّ

ترجمة عدنان – وعتاق الطير تنتقل من جثة إلى جثة وتغدو بطانا من المأدبة العظيمة فلا تكاد تطير.

ترجمة مكاوي/ والصقور النبيلة تتطاير وتخطو من جثة لجثة ولا تستطيع أن تهفو من المائدة الغنية.

مكاوي حصر الطير بالصقور وهذا ما أضعف ترجمته قليلاً؛ وكلا الترجمتين أديتا المعنى.

توشية

إنَّ من المهالك المهلكة أن يظن الإنسان في نفسه القدرةَ على الرد أو يتعمد الاستماع أو القراءة رغبةً في الرد على ما يقع عليه من أفكار شاذة ومضلة؛ فإنَّ هذا بتقديري من استشراف الفتن والتعرُّض لمظانها وقد عوفيتَ منها ، والحكيمُ الحازمُ المشفقُ على دينه يجب عليه استدبار مثل هذا؛ ولا يسعى إليها معتدًا بعلمه وعقله وحصانته، لكن إن وقع له في طريقه العلمي شيءٌ من هذا الأذى من غير قصد منه فإنَّ الله ـ بفضله ومنه ـ سيعينه على إماطته عن طريق المسلمين، فلا تبحث عن الأذى لتميطه وإن وقعتَ عليه من غير قصد فستُعان بإذن الله .

الفصل الحادي عشر
بين الأفغاني وشاكر

كتب سعيد الأفغاني عن نبوة المتنبي كتابةً يذهب بها إلى القول بثبوت ادعاء المتنبي النبوة رادًا على محمود شاكر إنكاره لهذا الادعاء فجاءت القضية كما يلي وهي في كتاب المتنبي ص ٥٣٣ وما بعدها:

قال سعيد الأفغاني: (... وقد أنعمت في تدبر الأسباب الحادية على النفي فلم أجد مَقْنعا به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة!! والتاريخ لا يثبت خبرًا أو ينفيه تبعًا لميل مؤلف أو رأيه، ولابد في حال النفي من التعرض لجميع الأخبار المثبتة خبرًا خبرًا وهذا لم يصنعه شاكر).

فنقض شاكر قائلاً: (وأنا حين أردت أن أكتب عن المتنبي نظرت في هذه الأخبار خبرًا خبرًا فلم أجد دليلاً واحدًا يجعله تستحق الصدق فأبقيتها موقوفة، ثم عدت فنظرتُ فتنا وشتها الشبهات واعتورتها الطعون فلم أجد بدًا من وسمها بالكذب، ثم عدت إليها فعارضتها بالعقل وشعر الرجل وحوادث التاريخ

لأستخرج منها الحقائق التي يسترها الرواة والمتكذبون ، فوقعت لي أشياء هي التي جعلتها أصلاً فيما كتبت) .

فالأفغاني يقول : [وقد أنعمت في تدبر الأسباب الحادية على النفي فلم أجد مَقْنعا به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة] ؛ لكنَّ المنهجَ الذي سار عليه شاكر في تتبع الخبر صحيحُ الخطوات؛فهو لم يهتبل الخاطر الأول ؛ فهل الخطأ في استدلال شاكر أو أنَّ هناك ثغرةً يراها سعيد قد أخلت بما وصل إليه شاكر ؟ وأنا هنا لا أسعى إلى إثبات أو نفي ادعاء النبوة ؛ فليس هذا من غاية البحث ، وإنما النظر بأسلوب النقض وكيف جرى، سواءً وافق الحقيقة التاريخية أم خالفها ؛ فحدود البحث تقف ـ حسب الوسع ـ عند جرد أساليب النقض ؛ وإن جاءت مشاركة فهي عفويةٌ انساح بها القلم ؛ وقد هممت أن أقرأ ما كتبه المعري عن نبوة المتنبي لأقول رأيي في المسألة فعدلت؛وهممت أن أوازن بين أدلة الشيخين ، كذلك عدلت عن أن كتبت شيئًا يسيرًا عن هذا ولعله يتيسر لي أو لغيري أن يقوم بهذا ؛ وأرى أن يكون العنوان « نبوة المتنبي بين شاكر وسعيد »

قلت : وقول سعيد : [والتاريخ لا يثبت خبرًا أو ينفيه تبعًا لميل مؤلف أو رأيه] هذه الجملة لا تعين على إثبات ولا نفي وإنما تهيّج الطرف الآخر ؛ فهي تذييل يفسد ما قبله من القول؛ وقد يحمل الطرف المخالف على الغفلة عن أول الكلام .

والمؤلف إذا رأى رأيًا مستقيمَ الدليل فمال إليه فإنه ينفي ويثبت، وبهذا جرت مسائل العلم في التاريخ وغيره؛ ومما جرى هنا إثباتًا ونفيًا إثبات علوية المتنبي ونفي قرمطيته ؛ وإذا لم يكن للمؤلف رأيٌ فما قيمة تأليفه؛ ولا يؤاخذ إلا بالنظر إلى دليله من حيث الصحة والخطأ ؛ أمّا أن لا يكون له حقٌ بنفي أو إثبات فهذا تحكمٌ لا يصار إليه؛ فقول الأفغاني عليه رحمة الله: (والتاريخ لا يثبت خبرًا أو ينفيه تبعًا لميل مؤلف أو رأيه) قولٌ فيه تعسير وفي الأخذ به مشقةٌ على العلم وأهله .

قال سعيد : (وقد روى المعري ــ وهو الحجة الثبت ــ أمر التنبؤ، وما حفَّ به من حادث ومعجزات في رسالة الغفران ؛وأبو العلاء كان أحرى أن يشك أو يكذب الخبر، لو أنَّ في الأمر مجالا

للشك واحتمالا للتكذيب؛ لأنه أشدُّ حبًا للمتنبي وعصبيةً له وهو أنفذ بصيرةً فيما يقال وأحكم نقدًا للأخبار، مع قرب زمان وصفاء ذهن وقوة حجة ومواتاة وسائل التحقق إذ ذاك)

وأعلق على قوله واصفًا أبا العلاء: «وهو أنفذ بصيرةً فيما يقال وأحكم نقدًا للأخبار، مع قرب زمان وصفاء ذهن وقوة حجة ومواتاة وسائل التحقق إذ ذاك] وهذه تزكيةٌ لأبي العلاء ليس من لوازمها قصورُ شاكر في هذا الجانب؛ وهو تعليل لا يجزم به إلا بعد الموازنة بين فهم الرجلين «أبي العلاء وشاكر» وهذا ما لم يقم به الشيخ سعيد.

فقال شاكر: (أما أنَّ رواية المعري ـ وهو صاحب عصبية لأبي الطيب ـ... فإنَّ أبا العلاء لم يُشْهِدْ كتبه أنه لا يروي إلا الصحيح من الأخبار، وتركُ المعري الشك فيها أو تكذيبها ليس يقوم دليلاً على صحتها، وليس المعري بمنزهٍ عن الخطأ والغفلة وهو من هو؛ فذهاب وجه النقد عن المعري ليس يكون طعنًا فيه) وقوله: «وتركُ المعري الشك فيها أو تكذيبها ليس يقوم دليلاً

على صحتها «الأَصل أن تركْكَ الشك دليلٌ على صحتها لأنَّ التكذيب طارئ فلو كان مما خطر على أبي العلاء الكذب في نسبة التنبؤ لقال به .

والجملة الأخيرة أوردها شاكر خشية أن كون كلامه طعنًا بأبي العلاء : (فذهاب وجه ـ طعنا فيه) ولا أرى أنها تستقيم دليلاً لأن ذهاب وجه النقد عن المعري بذهول أو نسيان أمرٌ لا يأتي على الذهن لأنها ـ أعني ادعاء النبوة ـ مما لازم المتنبي وشاع عنه ؛ فلم تُقل بمجلس فتناساها الناس؛ بل هي لزمت أبا الطيب حتى أصبح لقب « المتنبي « علمًا على هذا الرجل وصار أعرفَ من اسمه الحقيقي .

ثم احتج بأنَّ ورود الروايات المكذوبة في كتب العلماء ليس دليلا على صحتها ؛ فهكذا ورود أدلة نبوة المتنبي، ثم ذهب ينفي شبهة النبوة بدليل عقلي منهجي أي بمنهج ما سار عليه كثير من مدونات الكتب ، فقال شاكر : (وأحب أن أقرب إلى الأخ حقيقة هذه الروايات . . . فهو يعلم أنَّ الرواة رووا للرسول صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة . . . أفيكون تداولها وذيوعها وتصديق

العامة لها وورودها في بعض كتب العلماء هو الدليل الذي لا دليل غيره على صحة هذه الأخبار ؟ !) قلت : نعم إذا ترك العلماءُ الأثباتُ ردها والطعن بها كما ترك المعري أمرَ التنبؤ .

كان من حجج الأفغاني : (. . . وقد أنعمت في تدبر الأسباب الحادية على النفي فلم أجد مقْنعًا ، به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة) فقال شاكر: (وكان حقًّا على الأستاذ أن يعلمني وجوه الضعف في قولي حتى أستبرئ منه) قلت : إنَّ الأفغاني أورد ما يراه من ووجوه الضعف كتكاثر ورودها وسكوت أبي العلاء وخجل أبي الطيب كلما سئل عن أمر لقب المتنبي، وعلى أي شيءٍ تقع كلمة كافور: « من ادعى النبوة بعد محمد ، أما يدعي الملك مع كافور » .

وكان رد شاكر على خجل أبي الطيب كلما سئل عن أمر لقب المتنبي : . . . إنَّ السؤال عن [حقيقة هذا اللقب] بعد هذه الشهرة التي يزعمونها ليدل دلالة قاطعة على وضع هذه الأحاديث المروية والأخبار المتداولة . . . ويزعمون أنهم كتبوا وثيقة أشهدوا

عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام وأنه تائب منه ولا يعاود مثله؛ فهلا كان الأولى بهم أن يظهروا هذه الوثيقة . . . وكان أبو الطيب شجًا في حلوق الأدباء والشعراء . . . وهو في جوار سيف الدولة، وقد أوقعوا بينه وبين أميره بكل ما ملكوا) .

ومما قال سعيد : [أما الوثيقة فهي لبطلان علويته؛ وبهذا تزول شبه الأستاذ ؛ فإنَّ من المألوف أن تكتب الوثائق في إثبات الأنساب ونفيها] قلت : فإن ثبت أنَّ الوثيقة بالنسب أي ببطلان علويته لا بادعاء النبوة فقد سقط جانب أصيل من أدلة شاكر .

وأما الرد على كلمة كافور فقال عنها : (وأما كلمة كافور فهي كلمةٌ مفتعلة موضوعة تافهة، وإلا تكن كذلك فليس فيها أيضًا ما يدل على شيءٍ محقق كان قد حدث من أبي الطيب، وكافور كان قد سمع هذه الدعوى التي يزعمونها عن نبوة المتنبي) قلت : [وكافور كان قد سمع] المقصود أوأنّ كافورًا . . . أقول هذا ليستقيم الفهم .

ولم يبين شاكر مأخذ قوله بوضعها ولا تفاهتها ، والموضوعة تؤدي معناها وتكفي عنها لفظة « مفتعلة « ولكن يبدو أنَّ الشيخ هنا تتابعت أنفاسه؛ ولذلك جاء بعد هذا قوله : (هذا وقد أراد الأستاذ سعيدٌ أن يعلمنا سبل التحقيق في التاريخ فقال : « والتاريخ لا يثبت خبرًا أو ينفيه تبعًا لميل مؤلف أو رأيه . . . وهو قد فعل أكثر من ذلك وأكبر؛ وذلك أنه بعد اعتراضه قال: [وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر ولا ممن يروج الاختلاق] ولم يرد في كلامنا ذكر كافور واختلاقه حتى يعقب الأستاذ هذا التعقيب . . . فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخي والبرهان العقلي: أن كافورًا لم يكن يختلق على الناس ولا يروج الاختلاق) .

قول شاكر: (وهو قد فعل أكثر من ذلك وأكبر) هذا ليس نفيًا لدليل سعيد ؛ ففي مجال الردود لا يُقطع بالبراءة من الخطأ لأنَّ الطرف الآخر وقع بما هو أكبر منه ؛ بل إنَّ اللجوء إلى هذا إقرار بصواب المأخذ الذي أخذه أحد الطرفين على الآخر؛ وهذا مما يلجأ إليه أحد الطرفين حين تضيق الحجة ؛ فإذا كان سعيد] قد

فعل أكثر من ذلك [فما المسوغ لك أن تفعل أنت الخطأ أيضا ؟

قلت : وإذا وُجد ناقض للخبر فما المانع أن نأخذ بالناقض ونكذّب الخبر ولا يسوغ بقاء التصديق مع وجود ناقض قوي موثق ؛وهذا منهج لكل خبر؛ فإذا غاب الشك في الخبر عن الراوي الأول ثم تنبه إلى دواعيه مَن بعده فمتى قويت حجة المتأخر فيؤخذ بها وتُرد رواية الأول وتنقض .

وقوله : (وهو أنفذ بصيرةً فيما يقال وأحكم نقدًا للأخبار) هذا ينفيه أو يثبته مأخذ الدليل وقوته من ضعفه عند شاكر وقوله: (مع قرب زمان وصفاء ذهن وقوة حجة ومواتاة وسائل التحقق إذ ذاك) قلت : قوة الحجة الأولى لا مشاحةَ بأن تنفيَها الحجة الثانية إذا كانت أقوى وأبصرَ مأخذًا ؛وأما مواتاة وسائل التحقق فلابد للأخذ بها من الموازنة بين مصادر الرأي عند الطرفين؛ رحم الله الشيخين ورضي عنهما فكم لهما من فضلٍ على اللسان وأهله .

رأيت أنَّ أساليب الرد عنده تختلف باختلاف الباعث وباختلاف منزلة المردود عليه؛ فهو مع لويس عوض لديه يقين بأنَّ

الرجل ليس من الأكفاء وأنَّ علمه تخاريصُ وأوهام؛ ومع طه حسين يرى أنه رجلٌ سطا على علم هو أول من قال به؛ لذلك كثُر عنده تنقُّص طه بعلمه وفهمه وأمانته؛ ورأيته مع سعيد الأفغاني ـ وإن لم يقلها صراحة ـ يرد على من يرى أنَّ عنده علمًا لذلك جاءت ردوده أخفَّ عبارةً وأقل إقناعًا وذلك لقوة دليل سعيد؛ كما أنها تحمل تصريحًا بالألم النفسي الموحي بالشكاية.

ولا أرى أنَّ نفي ادعاء النبوة أو ثبوته مما يستحق هذا الجهد من البحث والمدارسة؛ ولكني أذهب إلى باب آخر وهو تعلُّم الاستدلال والنقض؛ وهذا من أنفع ما في هذه المناقشات خاصة حين تكون بين علمين من أعلام العربية المعاصرين فليس في ثبوتها أو نفيها ما يضيف علمًا يؤسف على فواته؛ وإنما المغنم هنا يكون بمعرفة مناهج الرد بين أفذاذ الأقران.

وكذلك الأمر في قضية إثبات علوية المتنبي أو نفي قرمطيته؟؛ فهذه مسألةٌ لا أرى أن ينفق فيها هذا الجهد من البحث والرد والاستقصاء والموازنة بين الأدلة وتضعيف الروايات أو تقويتها،

والعلم بها أرى أنه فضلة؛ لا تداني دراسة شعره دراسة أدبية لا تاريخية، فماذا لو توجه بهذا الجهد والجَلَد إلى تحليلٍ أدبي بياني لشعر أبي الطيب .

قرأت كتابه «برنامج طبقات فحول الشعراء» وهو قائمٌ على الردّ على مقالةٍ للدكتور علي جواد الطاهر منشورةٍ في مجلة المورد العراقية في المجلد الثامن العدد الثالث ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م؛ جاءت المقالة في إحدى وعشرين صفحة من ص ٢٥ـ ٤٦؛ والحديث فيها في جملته اعتراضٌ من الدكتور علي على تغيير شاكر (طبقا ت الشعراء) إلى (طبقات فحول الشعراء) وهو كتابٌ لمحمد بن سلام الجمحي رحمه الله؛ وتغيير التسمية رآه شاكر بأدلة استحسن الأخذَ بها؛ فكان الدكتور علي يرى الإبقاء على التسمية التي اختارها المؤلف:»طبقات الشعراء « ولم أجد في الاعتراض أو النقض جديدًا يضافُ إلى حدود البحث. ؟

الخاتمة

والخاتمة قِطفٌ يختم به الباحث كتابه؛ ليجعلها آخر عهده بالكتاب كما أنها شذراتٌ يوجز بها للقارئ ما دار في كتابه هذا .

هذا ومن أولِ ما يطالعُك من أساليبه أنها كلها جادٌّ مبنيٌ على دليلٍ مستقصى موثق، وعلم واسع وبحثٍ مستفيض؛ وهذه الجدية تراوحت بين الجاد البحتً والسخرية الجادة من المخالف والتندر والوخز واللسع والإضحاك من الطرف الآخر؛ يجذب القارئ أحيانًا فتراه يقول مثلا: «فحدثني كيف يتفق أن . . . « ونحوها وهي ترد عنده في «أباطيل وأسمار « فإذا قال هذا فأنصت لما سيقول بعدها؛ فهو سيستنبط ما لم يقل مما قيل، أي أنه سيطبق منهجه في التذوق فيتحسس الألفاظ مستنبطًا ما تحتها؛ وأسلوبه في كتاباته التأملية أبلغُ أساليبه أثرًا وأصدقها حرفًا وأقدرها إبانةً عمَّا يكنه، بل وأحبُّها إلى نفسه؛ وستجد هذا في فصل أساليبه الوجدانية .

وأريد أن ينتبه القارئ وهو يطالع في كتب أهل العلم إلى أنَّ من الانتفاع الخفي من علم العالم أن يحرك ساكنًا لدى القارئ فبالإضافة للمنفعة العلمية فإنه ينشّط بعد فتور ويثير بعد خبوء ويفتح لك بابًا من أبواب البحث؛ وهَو يعطيك المسألة ويريك كيف اطمأنَّ إليها.

وكتاباته وإن كانت مقالاتٍ في مجلات إلا أنَّ هذه المقالات لا تجري على ما جرى عليه كثيرٌ من المقالات الصحفية التي يبدو عليها التخفف من التوثيق والتساهل في بلاغة العبارة وجزالتها؛ لأنَّ كثيرًا من المقالات الصحفية تخاطب العامة أكثر من الخاصة كما أنها في غالبها حديث عن شأنٍ عام ينقضي في يومه هذا أو بعده بقليل؛ وليست تحريرًا لمسألةٍ علمية؛ وهو لا يلقي حروفه وما يريد قوله لا يلقي هذا مباشرة فمما تجد عنده بكثرة، ويكاد يفوق به غيره أنه يسرد لك سردًا مفصلاً جاذباً إلى الأمر الذي حدا به أن يكتب؛ فيرتع الوجدان بين جمال العبارة ومتعة التسلسل الباعث على هذه الحروف فيغري القارئ بالمتابعة بألفاظ يأخذ بعضُها

برقاب بعض؛ فهو يستشهد بمواقف تاريخية تعينه على إيصال ما يريد وأنه ليس بغفلةٍ عن خفايا ما يحاك.

لهذا تجد أنَّ من أخصّ خصائص منهجه في النقض وأكثرها وضوحًا وأوسعها انتشارا حرصه على التوثيق في نقض الرأي المخالف؛ وهذا المنهج من أوجب شروطه الإخلاص وسلامة النية وسعة العلم، وهي درجاتٌ أُحسب أنَّ الشيخ قد بلغها؛ فأنت ترى أنه إذا أجرى قلمه في فن فإنك لما تجده من السعة في العلم وتدفق الشاهد وتوثيقه تقول لا يحسن غير هذا؛ ورأيت أنَّ قلم الشيخ يعلم الاستنباط؛ فهو يصغي للألفاظ إصغاءَ من يتحسسُ ما توحي به.

وإذا وجدت أنَّ الشيخ يطيل في الشرح والإبانة فلا تستطل الطريق فهذا أمرٌ يلازمه وهو أصل من أصول قلمه ولا يستطيع أن يجد منه فكاكا؛ وقد يكون سببُه سعةَ علمه وحرصَه على التوثيق؛ولكنَّ هذا قد يحرم القارئ المتعجل، وجدتُ هذا وأنا أبحث عن مراده من «التذوق» فقد قرأت من ص ١١٢٨ من

جمهرة مقالاته وسرت في تشعبات وتفريعات أتعبتني حتى وصلت إلى ص ١١٨٣؛ فإذا الأمر فُتح طريقه بأقل من نصف صفحة؛ وهو طريق لم يكتمل وتجد تفصيله في الفصل الثالث.

ومن خلال قراءة الأسلوب الذي سار عليه محمود شاكر في تعقُب طه حسين فإني أقول لا غرابة إن رأيتَ أن بعض ألفاظ شاكر في ردوده على طه حسين مستوحى مما كان ما بين الرافعي وطه رحمهما الله؛ وقد طبقت الشك العلمي للتحقق من تأثير الرافعي على ردود شاكر وذكرت هذا مفصلاً في الفصل الثاني.

بعض الكُتّاب حين تقرأله فإنك من شدة ما يأخذك من الإعجاب، ومن دقة ما ترى من الصواب وما تحسه من وقار الحرف وما يغشاك من السكينة تقول: إنه يكتب وهو في غيبوبةٍ علمية؛ فكأنه ساعتئذٍ رُفع عنه كدر الذهن وأُنعم عليه بصفاء ونُقِل إلى واقعٍ غيرِ واقع الناس وهذا ما استشففته من بعض ما قرأت له.

ورأيت أنَّ المادة المحققة لمنهج البحث وغايته أخصبُ في كتاب «أباطيل وأسمار» لأنَّ الأمر فيها دار على أكثر من قضية فأثمر هذا حجاجًا ونقضًا يختلف في كل قضية.

مما لا غنى عنه في إصابة الرأي أنك إذا كنت تدرس نصًا لشاعر أو ناثر أن تطيل القراءة بإنتاجه من غير هذا النص فإنك ستصل إلى علامات خفيةٍ مميزةٍ له عن غيره تهتدي بها إلى حقائق قد لا تخطر على قائل النص نفسه.

ومما يعينك على الصواب أن تتزي بما تراه من زي الكاتب النفسي وأن تحاول أن تعيش حالته الشعورية في كل معنى تقرأه؛ فقد تجد أنك حينًا تهزُّ يدك ومرةً تكون عابسًا وثالثةً تكون طربًا مرسلاً أساريرك ورابعةً تكون منقبضا، وقد تحس أنَّ الأمر يحتاج إلى الوقوف أو رفع الصوت؛ وقد يأخذك الإصغاء للمعنى أن تطيل التحديق بكلمةٍ في النص.

ومحلل النص قد يقرأ قدرًا كبيرًا من الكلام لا يجد فيه ما يثير، ثم يعثر على لفظةٍ ثرية تفجر فيه القول فعليه أولاً بعدم

استطالة الطريق ، وعليه ثانيا أن يبالغَ بالحفاوة بهذه الكلمة .

ومنهج التذوق هو أخصُّ ما ينسب إليه ؛ وأظنه من آثر آرائه عنده؛ وهو منهجٌ اتخذه لإقامة دراساته ، واطمأنَّ إلى نتائجه؛ وصار دليلاً يقطع بما يوصله إليه ؛ ووضع له مقومات يسير عليها منها أنه قائمٌ على الاستقراء الموسَّع للشأن الذي يريد دراسته؛ و الإبصار الثاقب والغوص في حنايا النصوص و الاستحضار الذهني لمجموع ما قرئ و القدرة على الربط بين ما تؤديه النصوص فقد ينفي بعضها بعضًا أو يثبته؛ ورأيته من خلاله يجمع الشذرات المتناثرة عن الشأن الذي يبحث فيه، ثم يؤلف بينها بِعِقدٍ ينظمها فتخرج دليلاً مكتملَ الأعضاء يرى القول به نفيًا أوإثباتا .

وقد رأيت بالاستقراء أن أضع حدًا بين التذوق والتحليل فقلت: إذا أردنا أن نضع حدًا يفصل بين المراد بالتذوق وبين المراد بالتحليل فإننا نقول: إنَّ التحليل تُعرف به خفايا الألفاظ ؛ والتذوق تمييز عصر القصيدة أوشاعرها من خلال إدامة النظر في إنتاج؛ وفي الفصل الثالث تفصيلٌ أكثر .

ومن مناهج توثيقه حثُّه على مقارنة أقوال المتعاصرين ومصادر أخبارهم «لأنه أساس تهدي إليه بديهة العقل» ؛ في أثناء مدارسته لخبر دير الفاروس ذكر فائدةً جليلة يجب الاحتياط من الوقوع بمثلها ، وهي الضرر العلمي والتاريخي الذي يحدثه اختصار أقوال المتقدم بما يرى الناقل عنه وبما فهم هو لا كما قال المنقول عنه .

في المقالة الثانية والعشرين تبين لي فيها أمران: نَفَسٌ وأسلوب أما النفس فيظهر بطريقة الإفصاح التي التزم فيها الشيخ إظهار الصحبة والمودة بينه وبين القارئ؛ فهو يثير جانبَ العاطفة معه؛ وأما الأسلوب ففيه دفءُ الحرف الذي ينقل هذه المشاعر؛ فهو يريد أن يأخذ قارئه مأخذَ نجاة.

ومن عجائب أساليب نقضه للأخبار التي يرى أنها موضوعة، خضخضةُ الخبر حتى تتساقطَ منه القوادح ليريَها القارئ ويُسمعَ السامعَ صوتَ وقعها؛ ورأيت أنَّ من أضعف المدارسات والردود عند شاكر ما دار بينه وبين سعيد الأفغاني حول نبوة المتنبي وقد ذكرت هذا مفصلا في الفصل الخامس .

لا مانع أن نأخذ بالناقض ونكذّب الخبر ولا يسوغ بقاء التصديق مع وجود ناقض قوي موثق ؛وهذا منهج لكل خبر؛ فإذا غاب الشك في الخبر عن الراوي الأول ثم تنبه إلى دواعيه مَن بعده فمتى قويت حجة المتأخر فيؤخذ بها وتُرد رواية الأول وتنقض .

رأيت أنَّ أساليب الرد عنده تختلف باختلاف الباعث وباختلاف منزلة المردود عليه؛ وهذا بالموازنة بين ردوده على لويس عوض وطه حسين وبين ردود ه على سعيد الأفغاني . فهو مع لويس عوض لديه يقين بأنَّ الرجل ليس من الأكفاء وأنَّ علمه تخاريصُ وأوهام؛ ومع طه حسين يرى أنه رجلٌ سطا على علم كان شاكر هو أول من قال به ؛ لذلك كثر عنده تنقُّص طه بعلمهً وفهمه وأمانته؛ورأيته مع سعيد الأفغاني ـ وإن لم يقلها صراحة ـ يرد على من يرى أنَّ عنده علمًا لذلك جاءت ردوده أخفَّ عبارةً وأقل إقناعًا وذلك لقوة دليل سعيد الأفغاني ؛ومما در بينهما خلاف عن نبوة المتنبي، ولا أرى أنَّ نفي ادعاء النبوة أوثبوته مما يستحق هذا الجهد من البحث والمدارسة؛ ولكني أذهب إلى باب آخر وهو تعلُّم

الاستدلال والنقض ؛ وهذا من أنفع ما في هذه المناقشات خاصة حين تكون بين علمين من أعلام أي من العلوم؛ فليس في ثبوتها أونفيها ما يضيف علمًا يؤسف على فواته؛ وإنما المغنم هنا يكون بمعرفة مناهج الرد بين أفذاذ الأقران .

وكذلك الأمر في قضية إثبات علوية المتنبي أو نفي قرمطيته ؟؛ فهذه مسألةٌ لا أرى أن ينفق فيها هذا الجهد من البحث والرد والاستقصاء والموازنة بين الأدلة وتضعيف الروايات أو تقويتها ، والعلم بها أرى أنه فضلة ؛لا تداني دراسة شعره دراسة أدبية لا تاريخية، فماذا لو توجه شاكر بهذا الجهد والجَلَد إلى تحليلٍ أدبي بياني لشعر أبي الطيب ؟ .

من الفروق المنهجية العلمية بين القراءة التاريخية والقراءة الفنية البلاغية ؛ أنَّ الأولى قراءة عالم لا يراعي مواطن الجمال والقبح في النظم ، ولا يعنيه إلا ما ينطوي عليه النص من إبانة عن أحداث ويعينه على الكشف في صدق الخبر أو كذبه ؛ فلا يلتفت إلى نظرةٍ وجدانية أو بلاغية ؛ وهي التي يتوجه إليها قارئُ النص قراءة

بيانية وجمالية والقارئ قراءة تاريخية لا يعنيه أن تكون اللفظة قلقةً مضطربة أو ساكنةً مُبِينة؛ زادت النص جمالاً أو أضعفت أثره الفني .

أحببت أن أقف وقفة بيان وإيضاح؛ أفرق فيها بين سعة المعرفة وبين العلم فأبنت عن هذا موجزًا في الفصل الثامن .

في دراسته لقصيدة : « إنَّ بالشّعْب الذي دون سلْع « أبى الوقوف عند المعنى اللغوي لألفاظ الشَعر؛ لأنه هذا سيضعه في تابوتٍ من اللغة، ومؤدى هذا افتقاد البحث جمال النص: (وإذا وقف المرءُ عند منطوق النص وحده، بقي الشعر الذي ينظر فيه مطموسًا في موضع . . .)

في بعض نظراته لقصيدة» إن بالشعب « يجمع بين النظرين النحو والنقد الأدبي :(« خبرٌ ما) قدم الفاعل على فعله وأدخل على « الخبر» « ما « التي تجيء حشوًا لتدل على الإعراض عن وصف الشيء بما ينبغي له من الصفات ؛ لأنك مهما حاولت وصفه فبالغت في الصفة فلن تبلغ كُنْهه)

قلت: وهذا كلامٌ نفيس ينبغي التنبه إليه في تحليل النصوص والدراسات الأدبية أعني ما تخفيه «ما» فهذه دعوةٌ للناقد ودارس النص أن يقفَ ويطيلَ الوقوف متقصيًا ما تحت هذه الـ « ما «؛ وفي دراسته لهذه القصيدة ظهر احتفاؤه بمنهج « الموازنة « سواء النقدية أو التاريخية. وفي هذه القصيدة داخَلَ بين النحو والنقد حين وقف عند: « وفتوٍ هجَّروا ».

قد يكون الكاتب أو الشاعر من أهل الطبع وصادقًا في إحساسه بمعاني أو مشاعر يحس مسَّها في داخله ويجد حرها يجري في دمه وتكاد تنقذف على لسانه؛ ولكن التعبير المباشر أعجزه فتجده يقلب المعنى بألفاظ كثيرة ويدور حول ما يريد وقد لا يهتدي؛ فإذا أفاض الناقد أو محلل النص بشرح معنى من المعاني ولم يستطع إشراك القارئ بما وجد في نفسه من تأثر؛ فهو إما أن يكون متكلفًا؛ أو أن يكون عاجزًا عن اختيار اللفظ الذي ينقل مشاعره للقارئ ويجعله يحس إحساسه.

ينصف الآراء التي يراها أهلاً للإنصاف الصادرة من المستشرقين ولا يهضمهم ما لهم من سابقةٍ علمية ؛ فقد قال عن توينبي : (ومن البيّن أن مؤرخًا مثل « توينبي « لا يلقي القول جزافًا في أمر هو من صلَب مادته . . . كما تنبه إليه « توينبي « أيضًا فإنّ هذه المعركة لا يمكن أن تُعدَّ معركةً أدبيةً مجردةً من العوامل السياسية والدينية) وقال عن جوته : (فإنه شاعر ملء عروقه ، ليس من أمثال هؤلاء في شيء وكان مع تقدمه وسبقه في الشعر . . . متوقدًا ملتهب الحِس . . . وقد عجبت لجوته لأنه وإن لم يعرف العربية لمح ـ بإحساسه المتوقد ، وبتوتره المستجيب لنبضات الفن ـ هذه الصلة بين القسم الرابع وبين القسم الأول . . . وهذا إحساسٌ عجيبٌ جدًا) .

بينتُ أنَّ التعقُّب أغلظُ عبارةً وأشد نبرةً من عبارة الرد أو النقد أو المدارسة وهذا في الفصل الثامن .

اللهم هذا منك ولك فتقبله مني إنك أنت السميعُ العليم

توشية

وهـذه قطعـةٌ مـن حديـث قـال فيهـا صلـى الله عليـه وسـلَّم : «إن كان في الحراسـة كان في الحراسـة، وإن كان في السـاقة كان في السـاقة « ومعنى هـذا أنَّ هـذا الرجلَ يقومُ بما عُهِدَ به إليه مخلصًا لله من غير اعتبار لموقعه ، فلا تقلق على موقعك في هذه الحياة الفانية ، إذا صلحتْ نيتُك وأخلصتَ لله، وأبشر فإن أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم لا يزال فيها هـذا الصنف الذين حين تموج الفتن يحفظ الله بهم الجميع جعلنا الله منهم .

ختم الخاتمة

وأختم كتابي هذا بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلَّم ثم بالدعاء لوالديَّ

ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا اللهم تغمدهما بواسع رحمتك وأسكنهما فسيح جنتك واجعل قبريهما روضةً من رياض الجنة واغفر لكل من له حقٌ عليهما .

وبالحمد بدأت وبه أنتهي فالحمد لله رب العالمين .



المراجع

١ ـ كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والناثر لضياء الدين بن الأثير/ تحقيق الدكتور نوري القيسي/الدكتور حاتم الضامن / هلال ناجي/ منشورات جامعة الموصل.

٢ ـ نتائج الفكر في النحو/لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي/حققه وعلق عليه/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض.

٣ ـ « الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري» / لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي/ تحقيق السيد أحمد صقر/ الطبعة الرابعة/ دار المعارف.

٤ ـ « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون/ جما الدين بن نباتة المصري/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ منشورات المكتبة العصرية / صيدا ـ بيروت/ ١٤٠٦هـ ـــ ١٠٨٦م.

٥ ـ رسائل الجاحظ/ قدم لها وبوبها وشرحها / الدكتور علي أبوملحم/درا مكتبة الهلال.

٦ ـ مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني / حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه / محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الفكر / الطبعة الثالثة/ ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

٧ـ مقدمة ابن خلدون / تحقيق الأستاذ درويش الجودي / المكتبة العصرية / بيروت.

٨ ـ الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء / تصنيف ابن قتيبة الدَّينوري / حققه وضبط نصه/ الدكتور مفيد قُميحة/راجعه وضبط نصه الأستاذ/ نعيم زرزور.

٩ ـ الخصائص لابن جني / تحقيق عبد الحكيم بن محمد / المكتبة التوفيقية.

١٠ـ شرح الأشموني على ألفية إمام النحاة/ محمد محيي الدين عبد الحميد .

١١ ـ دلائل الإعجاز / عبد القاهر الجرجاني / قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر / شركة القدس للنشر والتوزيع؛ الناشر

مطبعة المدني بالقاهرة ـ دار المدني بجدة/ الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

١٢ـ طبقات فحول الشعراء / محمد بن سلاَّم/ قرأه وشرحه محمود محمد شاكر/الناشر دار المدني بجدة .

١٣ـ مقاييس اللغةم/ لا بن فارس/ راجعه وعلق عليه / أنس محمد الشامي/ دار الحديث القاهرة.

١٤ـ كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني /حققه وقدم له إبراهيم الأبياري؛ راجعه محمد خلف الله أحمد / القاهرة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية/ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٥ـ الجُمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد . مؤسسة الرسالة بيروت/ دار الأمل إربد ط١ .

١٦ـ ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة /الطاهر أحمد الزاوي/توزيع دار الباز/مكة الكرمة.

١٧ـ أباطيل وأسمار؛ محمود شاكر ؛ الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة؛ الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

١٨ـ «المتنبي» « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا » الناشر مطبعة المدني بالقاهرة ــــ دار المدني بجدة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٩ـ جمهرة مقالات محمود شاكر؛ جمعها ورتبها الدكتور عادل سليمان جمال؛ الناشر مكتبة الخانجي؛الطبعة الثانية ٢٠١٣م.

٢٠ـ نمطٌ صعب ونمطٌ مخيف/ محمود محمد شاكر/ الناشر مطبعة المدني بالقاهرة ـ دار المدني بجدة/ الطبعة الأولى/ ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٢١ـ قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاَّم/ محمود محمد شاكر/ الناشر مطبعة المدني بالقاهرة ـ دار المدني بجدة .

٢٢ ـ القوس العذراء / محمود محمد شاكر .

٢٣ـ برنامج طبقات فحول الشعراء» محمود شاكر .

٢٤ ـ مقالات العلامة الدكتور محمد محمود الطناحي صفحات في التراجم واللغة والأدب « دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر / بيروت/ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

٢٥ ـ دراسات لأسلوب القرآن الكريم/ محمد عبد الخالق عضيمة/ دار الحديث القاهرة.

٢٦ ـ موسوعة الشعر العربي/ اختارها وشرحها وقدم لها: مطاوع صفدي و إيليا حاوي/ أشرف عليها الدكتور / خليل حاوي/ التحقيق والتصحيح نصًا ولغةً وروايةً/ أحمد قدامة.

٢٧ ـ تحت راية القرآن/ مصطفى صادق الرافعي / صحح أصوله محمد سعيد العريان/ الناشر دار الكتاب العربي بيروت/ الطبعة الثامنة.

٢٨ـ «ثورة الشعر الحديث من بود لير إلى العصر الحديث/ الدكتور عبد الغفار مكاوي/ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٩ـ النور والفراشة رؤية جوته للإسلام وللأدب بين العربي والفارسي مع النص الكامل للديوان الشرقي دراسة وترجمة عبد الغفار مكاوي/ الناشر مؤسسة هنداوي.

٣٠ ـ نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد / إبراهيم اليازجي

٣١ ـ دراسات عربية وإسلامية لمجموعة من الباحثين .

٣٢ ـ المرايا المحدبة من البنوية إلى التفكيك/ الدكتور عبد العزيز حُمّودة/ عالم المعرفة ٢٣٢/ الكويت .

٣٣ـ المدخل إلى منهج التذوق عند محمود شاكر» تأليف عبد الحميد محمد العمري /تقديم الدكتور عبد الجليل هنوش/ دار البشير للثقافة والعلوم/ الطبعة الأولى .

٣٤ ـ تقديم لوط ابنتيه لقومه في التوراة والقرآن» / بحثٌ لعائض بن سعد الدوسري/ جامعة الملك سعود .

٣٥ ـ مجلة المورد العراقية في المجلد الثامن العدد الثالث ١٣٩٩هـ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

في هذا الكتاب

... فإذا أفاض الناقد أو محلل النص بشرح معنى من المعاني ولم يستطع إشراك القارئ بما وجد في نفسه من تأثر؛ فهو إما أن يكون متكلفًا؛ أو أن يكون عاجزًا عن اختيار اللفظ الذي ينقل مشاعره للقارئ ويجعله يحس إحساسه... وكم من كاتبٍ في هذه الأرض، على اختلاف ألسنةِ أهلها، قضى عمره يستصفي للناس عصارة تجاربه في كلمات، ثم يخرج من الدنيا وكأنه لم يقل شيئًا ولم يكتب شيئًا ، ثم يأتي على الناس زمانٌ فيجدونه قد أبرأ ذمته، وأدى للناس أقضى حقهم عليه ولكنهم ذهلوا عنه... إنّ أسلوبه في كتاباته التأملية أبلغُ أساليبه أثرًا وأصدقُها حرفًا وأقدرُها إبانةً عمّا يكنه، بل لا أجازف حين أقول وأحبُّها إلى نفسه؛ وستجد هذا في فصل أساليبه الوجدانية